دار الثقافة الجديدة

علم النفس الاجتماعي والتاريخ

ب. پورشنيف

ترجمة: سعد رحمي

علم النفس الاجتماعى والتاريخ

دار الثقافة الجديدة

علم النفس الاجتماعى والتاريخ

ب . پورشنيف

ترجمة: سعد رحيمى

مقدمة

أخذت مشكلات علم النفس الاجتماعى تحظى باهتمام العلماء السوفييت من جديد فى الآونة الأخيرة ، وبعد توقف لفترة طويلة . ويرجع تجدد الاهتمام الى اعتبارات ليس من العسير ادراكها ، كما يرجع أيضا الى الاعتبارات المرتبطة بالمهام العملية للتربية الشيوعية .

وان كانت المناقشات التى احتدمت فى بادىء الأمر حول موضوع واغراض علم النفس الاجتماعى الماركسى — اللينينى السوفييتى قد فترت بعض الشىء ، الا أنه لا ينبغى تأويل ذلك بأن هذا الفرع الحديث والواعد من المعرفة العلمية لم تتبلور فى اطاره بعد العديد من التيارات والاتجاهات المختلفة(١) ، فنشأة هذه التيارات والاتجاهات مسألة حتمية كما هى الحال فى أى مجال علمى آخر ، وسوف نحكم عليها حكما موضوعيا وفقا لما هى جديرة به بالفعل وليس وفقا لما ندعيه .

وثمة نقطة أخرى تستحق ان نتوقف على الفور لنزيل ما يحيطه بها البعض من غموض وابهام .

يقال احيانا أن علم النفس الاجتماعى لايدخل فى اطار علم النفس وانما هو فرع من نظرية المادية التاريخية يختص بدراسة مشكلات المنهج أو

---

(١) انظر : « مشكلات علم النفس الاجتماعى » ، بقلم ف. ن. كولبانوفسكى ، وب . ف . بورشنيف ، موسكو ١٩٦١ والذى يلخص المرحلة الأولى من المناقشات ، وانظر أيضا ب. د. باريجين ، « علم النفس الاجتماعى كعلم » ، لينينجراد ، ١٩٦١ .

الحقائق المحددة التى تلازم « الوعى اليومى » و « الرأى العام » ، وانه بهذه الصفة لا ينتسب الى علماء النفس لأنه يتناول قوانين ترتبط بعلم الاجتماع أكثر مما ترتبط بعلم النفس . ولكن لماذا يتشبث دعاة هذا الرأى بعلم النفس ؟ ان للكيمياء فروعا عدة ، يعرف كل منها بنعت مقابل (الكيمياء الفيزيائية ، والكيمياء الاشعاعية ، والكيمياء الحيوية ، الخ) ، فهل هناك من ينتهى به ذلك الى القول بأن أى فرع منها ليس كيمياء ؟ وباختصار ، يحسن بمعارضى علم النفس الاجتماعى أن يبحثوا عن اسم آخر أكثر ملاءمة للمجال المحدد الذى يحظى باهتمامهم .

و « الرأى العام » و « الصراع الأيديولوجى » وغيرهما من المقولات المشابهة ، ترتبط بالوعى الاجتماعى بالمعنى العام لهذا المصطلح ، ولا تنتمى الى علم النفس الا جزئيا . وعندما يتحدث كتاب الغرب عن « الحرب النفسية » فهم يعنون بذلك الصراع الأيديولوجى وليس الصراع السيكولوجى .

وعلم النفس الاجتماعى جزء من علم النفس . وهذه هى أولى النقاط التى ينبغى توضيحها . وفى مقدورنا — كما هى الحال فى الكيمياء — أن نضيف مختلف النعوت والتعريفات من أجل تحديد مجال وتخصص هذا الفرع من العلم ، مع بقاء علم النفس على ما هو عليه من شمولية .

وترجع المحاولات التى تبذل لابعاد علماء النفس عن علم النفس الاجتماعى الى الخوف من سيطرة المفاهيم السيكولوجية عند تفسير القوانين الكامنة وراء الحياة الاجتماعية . ولكن القوانين الاجتماعية لا يمكن أن تخضع لهذه السيطرة الا اذا توفرت النية المتعمدة لذلك ، والا اذا افتقدنا المعرفة التى يمكننا الاعتماد عليها والثقة بها حول القوانين المحددة التى تحكم وجود المجتمع وتطوره . والعلوم الاجتماعية السوفيتية لديها مدرسة الماركسية اللينينية الخلاقة لتساندها ، وليس هناك اليوم أى خطر حقيقى لأن تكون مجالا مستباحا تغزوه المفاهيم البيولوجية أو السيكولوجية ، كما

هى الحال تماما بالنسبة للعلوم البيولوجية ما بعد داروين ، والتى لا ينفى تدخل الكيمياء والفيزياء بقوانينهما الخاصة بنشاة الحياة وتطورها ، أى خطر بالنسبة لها . ان أكثر البيولوجيين تخلفا هو وحده الذى يمكن أن يدير ظهره للكيمياء والفيزياء ، لأنهما يشغلان مجالين ملاصقين لمجال اهتمامه .. وعلى نفس النحو يمكننا أن نقول لأولئك الذين يخشون تسرب التفسير السيكولوجى الى القوانين الاقتصادية الموضوعية : لا تدعوا المفاهيم السيكولوجية تتسرب الى هذه القوانين ، ولكن ركزوا عنايتكم واهتمامكم على علم النفس ، تماما كما يأبى اى عالم بيولوجى أن يدع المفاهيم الكيميائية تتسرب الى قانون داروين البيولوجى البحث عن الانتقاء الطبيعى . إن هذه العلوم جميعا لا تنفى بعضها بعضا .

وليس هناك ما يدعو الى الخجل عندما نقر بأن علم النفس الحديث يستند الى قاعدة راسخة من العلوم الطبيعية ، فهناك العديد من العمليات الروحية والنفسية التى ترتبط أوثق الارتباط بفسيولوجيا النشاط العصبى الأعلى . وعندما نقول « علم النفس الاجتماعى » فنحن انما نقول « علم النفس » ، ومن ثم فالحديث يدور حول علم يرتبط بالقوانين التى تحكم عمل المخ والجهاز العصبى .

ان أى مفاهيم خاصة بعلم النفس تستبعد الفسيولوجيا ، هى مفاهيم غير علمية بل ومعادية للعم ، لأنها تتعارض مع كل ما استقرت عليه المعرفة العلمية فى الوقت الراهن ، بما فى ذلك التعاليم الفسيولوجية لايفان بافلوف .. كما أن أى فهم سليم لآلية المخ البشرى ، وخاصة « نظام الاشارة الثانى » ، لا يمكن أن يسمح قطعا بأى محاولة لاقامة علم النفس الاجتماعى السوفيتى على أى قاعدة أخرى سوى علم النفس ..

وعلم النفس الاجتماعى ، شأنه شأن علم النفس عموما ، مجال واسع يلامس مجالى العلوم التاريخية والبيولوجية .

وكان اوجست كونت ، الفيلسوف الوضعى ، يقول فى قحة ان الفرد هو ، أولا ، جوهر بيولوجى ، أو موضوع للفسيولوجيا ، وثانيا جوهر

اجتماعى ، أو موضوع لعلم الاجتماع ، ومن ثم فهو مقيد بهاتين السلسلتين السببيتين .

وأما هنرى دالون ، العالم السيكولوجى وعضو الحزب الشيوعى الفرنسى ، والذى توفى فى عام ١٩٦٢ ، فكان يجأر بالشكوى من أن العديد من الناس يتناولون قطبى البيولوجيا وعلم الاجتماع منفصلين ، ويعتبرون علم النفس طرفا ملحقا بالبيولوجيا أو مدخلا للعلوم الاجتماعية ، أو هجينا علميا مولدا (١) ، وأوضح أن الجدل الماركسى يثبت أن **علم النفس انما هو علم بيولوجى واجتماعى فى آن واحد ، وانه يعنى بدراسة الانسان كوحدة مندمجة فى البيئة المحيطة بها ، والتفاعل المستمر بين الانسان وبيئته ، والصراع الاجتماعى الذى يحدد شخصية الانسان (٢)** .

وهذا التعريف العام يصدق أيضا على علم النفس الاجتماعى ، فهو فرع هامشى واحد يمتزج بعلمين أساسيين من العلوم الحديثة .

ولكن العلاقة بين علم النفس الاجتماعى وما يسمى علم النفس العام ، أو علم النفس الفردى هى حقا ما يصعب تحديده . ولكن هذه ، ان جاز القول ، مسألة داخلية .

ومصطلح « علم النفس الاجتماعى » لا يستخدم بمعناه الخاص فحسب ، وانما يستخدم أيضا بالمعنى المنهاجى العام الاكثر اتساعا ، وهنا تكتسب العناصر النفسية طبيعتها الاجتماعية ، لأنها تتوقف الى حد كبير على البيئة الاجتماعية التاريخية (٣) وأما بالمعنى الخاص والضيق ، فعلم النفس الاجتماعى يتناول النشاط النفسى للناس داخل الجماعة ، داخل البيئة

---

(١) هـ. دالون ، « علم النفس والمادية الجدلية » ، جماعة جوينيو ، ١٩٥١ ، ص ٢٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

(٣) أنظر أ.ن.ليونتيف ، « مشكلات التطور النفسى » ، الطبعة الثانية ، موسكو ، ١٩٦٣ .

الجماعية ، على خلاف علم النفس الفردى الذى لا يتناول هذا النشاط الا فى عزلة نسبية ، أو فى علاقة الفرد بفرد آخر .

وما زال الجدل يدور حول ما اذا كان علينا أن نعتبر علم النفس الاجتماعى الماركسى (بالمعنى الخاص) علم نفس من « الدرجة الثانية » ، أى فرعا هامشيا من علم النفس الفردى (علم النفس العام) . فهل التفاعل النفسى للناس فى اطار البيئة ، ثانوى ، اى مكمل لسيكولوجية الفرد — أم ان الظواهر الاجتماعية النفسية أكثر جوهرية وعمقا من سيكولوجية الفرد ؟

وان كان من المسلم به أن الفرد نفسه كائن اجتماعى ، فهذه حقيقة تدعم موقف علم النفس الاجتماعى الذى ربما يثبت فى يوم من الأيام أنه اكثر جوهرية وأكثر « عمومية » من « علم النفس العام » . وربما جاء أيضا اليوم الذى يتمكن فيه هو وحده من ان يحمل اسم علم النفس عن جدارة كاملة . ولكن هذه مسألة يحسمها المستقبل البعيد . وأما فى الوقت الراهن ، فجميع فروع علم النفس تقاتل من أجل الفوز بمركز الصدارة ، والجدل لا يتعلق هنا بتصنيف وتبويب العلوم ، وانما هو نزاع داخلى .

وعلم النفس الاجتماعى علم تاريخى بالضرورة . والجانب التاريخى هو حجر الزاوية فيه ، بنفس الدرجة التى يشكل بها الجانب الفسيولوجى المادى قاعدة النشاط النفسى ، لأنه يدرس الانسان فى حركته وتغيره .

قال البابا بيوس الثانى عشر موجها حديثه الى المؤتمر العاشر للتاريخ المنعقد فى روما فى عام ١٩٥٥ : « ان مصطلح تاريخية الأشياء يعنى نظاما فلسفيا لايرى فى النشاط الروحى ، والمعرفة ، والدين ، والأخلاق ، والقانون ، الا شيئا واحدا هو النشوء والتطور ، ومن ثم فهو **يرفض كل ما هو سرمدى ، أبدى ، مطلق ، لايزول** . وهذا النظام لا يتفق بالطبع والنظرة الكاثوليكية ، ولا يتمشى مع أى ديانة تقر بوجود آله » .

واما ان تاريخية الأشياء لاتتمشى مع الذين تهذا حق لاجـدال فيه . فليس هناك ما هو ثابت فى الانسان سوى خصائصه التشريحية والفسيولوجية (بما فى ذلك المخ بالطبع) ، والتى يشترك فيها البشر جميعا بصفتهم نوعا بيولوجيا . ولكن الطبيعة الخاصة للانسان هى ان أداء هذه القاعدة الثابتة لوظائفها يتفاوت فى مظاهره العليا ، بل ويصل التفاوت ، فى الواقع ، الى الحد الذى تتحول معه الوظائف الى نقيضها ، حتى تتمكن من مواكبة كل ما يطرأ من تغيرات وتحولات فى العلاقات الاجتماعية التاريخية . **فالمخ يظل على ما هو عليه ، ولكن محتوى الوعى والعمليات التى يؤديها المخ تختلف ، بصرف النظر عن اى تغيرات عضوية** . والمخ يستطيع أن يمارس وظائفه وفقا لأساليب مختلفة للأداء ، بل وقد يبلغ الاختلاف بين هذه الأساليب حد التضاد . والعديد من الأمراض العصبية ليست أمراضا بالمعنى الضيق ، ولا تنجم عن عدوى أو اضطرابات عضوية أو كيميائية فى النسيج العصبى **والمعيار الذى يميز بين ما هو سوى وما هو مرضى معيار اجتماعى تاريخى بحت** . وبعض الظروف التى نعتبرها مرضية الآن ، لم تكن تدمغ بهذه الصفة فيما خلا من قرون ، كما ان الكثير مما يعتبره الناس الآن سويا مشروعا ، لم يكن ينسب فى الماضى الا الى الآبقين المارقين والخارجين على القانون ، ومن أصابهم مس من جنون . فتحديد كيفية أداء المخ لوظائفه «على النحو السوى» مسألة لاتقررها البيئة الطبيعية ، وانما تقررها البيئة الاجتماعية (١) ، بمعنى أن النشاط العصبى الأعلى يحكمه مبدأ تاريخ الأشياء .

ولذلك ، فعلم النفس الاجتماعى وعلم التاريخ يرتبطان ارتباطا وثيقا لا ينفصم .

والعلاقة السببية بين الوجود الاجتماعى والوعى هى المحور الذى تدور حوله المادية التاريخية .

---

(١) انظر م. فوكول : الجنون والحكمة ، تاريـخ الجنون فى العصر الكلاسيكى (من القرن ١٧ الى القرن ١٨) ، باريس ، ١٩٦١ .

والقول بأن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي ، مبدأ جوهري يفتح جوانب لانهاية لها من علم التطور الاجتماعي . ولكن ينبغي تفسير ذلك تفسيرا شاملا ، سواء من وجهة النظر الفلسفية أو من وجهة النظر التاريخية المحددة .

أن مانريد أن نعرفه هو كيف ، وبأية طرق خاصة ومميزة ، يحـدد الوجود الاجتماعي ، الوعي . والواقع أن المغالطة التي تنطوي عليها المادية الاقتصادية هي أنها تتغافل العوامل الذاتية في التاريخ الانساني . أمـا الماركسية ، فهي أبعد ما تكون عن تغافل العوامل الذاتية ، **بل ولقد تطلب اكتشافها للعوامل الموضوعية أن تقدم تفسيرا للعوامل الذاتية أيضا .**

وعلم النفس الاجتماعي يدرس اكثر الجوانب ذاتية في الذات ، أي التكوين والمزاج النفسي المتغير تاريخيا للانسان .

فهل يتناول المؤرخون ويحللون التكوين النفسي ؟ لسوء الحظ ان قليلا منهم — فحسب — ينحون هذا المنحى .ومع ذلك فأي تاريخ لا يتناول التركيب النفسي يظل تاريخا لاعلاقة له بالانسان الحي . انه تاريـخ « مفرغ من الانسان » . والدراسات التي تدور حول الحركة العمالية تتحدث كثيرا عن الوضع الاقتصادي للعمال ، وتحتوي على بيانات ومعلومات واحصاءات عن أعدادهم ، واضراباتهم ، وعن تنظيمات الطبقة العاملة وأحزابها ، وعن الصراع الأيديولوجي . ولكننا لا نلتقي في هذه الدراسات بالعمال أنفسهم ، ولا نراهم الا فيما ندر . والحاجة مازالت ماسة لاجراء دراسـات عميقة تتناول العمال كعمال ، وكل ما نلتقي به الآن كبديل عن المادية التاريخية لايعدو أن يكون نوعا من الدراسات في السلوكيات ، اي دراسة السلوك الخـارجي للعمال دون أي اشارة لسيكولوجيتهم .

حقا قد نصادف هنا أو هناك بعض محاولات لدراسات نفسية لبعض الجماعات أو العصور التاريخية . ولـكن التحليل النفسي ما زال ينصب — كقاعدة عامة — على الشخصيات التاريخية كأفراد ، ولا يتجـاوز تقديم

الصورة الشخصية النفسية دون أن يكون فى تلك مايمت لعلم النفس كعلم بصلة .

ومازال المؤرخون متخلفين فى دراستهم للجوانب الذاتيـــة والنفسية لتصرفات الجماهير وماتقدم عليه من أعمال . ولكن ليس هناك من يزعم أن علاج هذا الخلل لن يؤدى الا الى « سيطرة » علم النفس على علم كتابة التاريخ ، سوى أصحاب النزعات المادية الاقتصادية الذين لاســبيل الى زحزحتهم عن أفــكارهم الخاطئة . فمن واجب التاريخ الحق ، ان يختبر كافة جوانب الواقع ، وأن يدرس القوانين الخاصة التى تحكم مختلف مستويات ومجالات الحياة الاجتماعية للانسان . وتقدم كتابات لينين نموذجا دقيقـــا ومتكاملا لكيفية دراسة الحركة الحية لمشاعر الجماهير وغيرها من الحقائق الاجتماعية النفسية ، دون أن تخشى الوقوع تحت « سيطرة » علم النفس .

ولكن المؤرخين ، والحق يقال ، بدأوا فى ادراك هذا الخلل فى كتاباتهم.

وقولنا هذا لايعنى أن هذا الكتاب يتناول مناهج محددة لتطبيق عـــلم النفس الاجتماعى على مختلف القضايا التى يطرحها علم التاريخ ، فتحقيق هذا الهدف يتطلب دراسة نظرية خاصة .

وليست هناك « وصفات جاهزة » تحدد كيفية تطبيق عـــلم النفس الاجتماعى فى التاريخ الحديث . ومما لاشك فيه أن الغرض الأسمى هو أن يساهم فى تربية وتكوين الانسان الجديد ، انسان المجتمع الشيوعى ، لأن جدوى علم النفس الاجتماعى ستقاس ، فى التحليل الأخير ، بمدى ملاصقته للحياة وارتباطه بها ، ومدى ما يحققه للبناء الشيوعى من منفعة ، ولكن هذا لا يلغى ضرورة الأساس النظرى العميق . وسوف يكون اثره سطحيا اذا لم يتوفر النظام العلمى ، واذا لم يكن هناك تفسير واضح للعناصر البسيطة ، والأفكار الأولية ، وتعميمات ترتبط بالأساس نفسه **وليس هناك ما هو اشد ازعاجا من أولئك الباحثين الذين يتعجلون انجاز ماهم بصدده من دراسات فينحون الجوانب النظرية ويتغافلونها** . ولن ينجح علم النفس الاجتماعى

الماركسى فى انجاز المهام التى تواجهه مالم يعمل كعلم حقيقى ، ومالم يكف عن التخمين المجرد .

ومهما يكن من أمر ، فلا جدال فى أن علم النفس الاجتماعى على النحو الذى أرسى قواعده علماء النفس والمؤرخون فيما يتعلق بالماضى ، يوفر لنا معملا ضخما لدراسة واختبار الافكار التى نحتاج اليها فى ممارستنا المعاصرة . وتكوين العلاقات الشيوعية وتنشئة الانسان الجديد لايتطلبان مواصلة الملاحظة والمراقبة والخروج بالتوصيات الملائمة فحسب ، وانما يتطلبان أيضا أبحاثا جذرية وعميقة ، كما يحدونا الى الاهتمام بالجوانب الجوهرية ، ذلك التعقيد الذى يتسم به العنصر الذاتى فى الصراع الاجتماعى فى البلدان الراسمالية وفى الدول الوطنية الفتية . وينبغى على كل من يتطلع الى وجود علم نفس اجتماعى ماركسى حقيقى ، الا يغرب عن ذهنه فى أى وقت أنه **كلما تعمقنا فى ارساء الأساس ، كلما ازداد الصرح الذى نشيده قدرة ورسوخا .**

بقى أن نضيف أننا لا نتعرض فى هذا الكتاب للاتجاهات الاساسية فى علم النفس الاجتماعى الغربى المعاصر ، فهى عديدة ، وتتفاوت كثيرا فيما تستند اليه من أفكار ومناهج . ولكن السمة المشتركة لها جميعا هى أنها ليست اجتماعية بالمعنى الكامل للكلمة ، كما أن مادتها ليست هى المجتمعات والجماعات الانسانية ، وانما مجموعات من الأفراد .

وهذا الكتاب يعرض الافكار الخاصة التى يستند اليها المؤلف فى محاولة التوصل الى مفهوم يخالف ذلك من كافة الوجوه .

● الفصل الاول ●

علم الثورة اللينينى وعلم النفس الاجتماعي(1)

١ — فلنلتصق بالحياة

كان لينين يفترض فى أى ثورى ، شيوعى ، أن تتوفر له « النظـرة الواقعية المتزنة للأمور ، والاخلاص المتوهج »(٢) .

والماركسية مفهوم علمى كامل لقوانين وعمليات الحياة الاجتماعية ، وهى وحدة تجمع بين الفكر المجرد والمعرفة المحددة . وهى حلم وعاطفة متوثبة فى نفس الوقت . يقول لينين فى كتابه : ما العمل ؟ — « لابد لنا أن نحلم ! ما أن كتبت هذه الكلمات حتى احسست بنذير الخطر » . فقد شخصت أمامه صورة أحد الاشتراكيين الديموقراطيين الذين لايكفون عن التجهم والعبوس وهو يسأله : « وهل يحق لماركسى ، مهما كانت الاحوال ، أن يحلم ؟ الم يعلمنا ماركس ان **الانسانية لاتطرح على نفسها فى اى مرحلة من المراحل الا المهام التى هى قادرة على انجازها بالفعل ؟** والليس التكتيك هو مواجهة القضايا التى تواجهنا فى مجرى حياة الحزب ، وتتزايد كلما تنامى الحزب وشب عن الطوق ؟ » . وردا على هذه الأسئلة العسيرة استند لينين

(١) كتب هذا الفصل بمعاونة أ.م. لوكومسكايا ، الحاصلة على درجة مرشحة فى التاريخ .

(٢) ف. ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣٢ ، ص ٣٢٧ .

الى فقرة اقتبسها من بيساريف تدور حول النزعة الطبيعية وضرورة وجود فجوة معينة بين الواقع وبين الحلم الذى سبق أن راودنا وتصورنا به هذا الواقع ، والا لما أمكننا أن ندرك ذلك الباعث الذى يحفز الانسان الى ابداع انجازاته الكبرى فى مجالات الفن والعلم ، وفى حياته العملية جميعا . يقول بيساريف : « **والفجوة القائمة بين الأحلام والواقع لايمكن أن ينجم عنها أى ضرر لو ان الشخص الذى يحلم آمن حقا بما يحلم به ، ولو أنه لم يتوقف لحظة عن مراقبة الحياة عن كثب ، والمقارنة بين ما يلاحظه وبين القصـور التى تخيلها وبناها فى الهواء ، ولو ان ديدنه كان بشكل عام ، هو العمل ، وعن وعى ، من أجل انجاز ما جمح اليه تصوره . واذا أمكننا أن نتوصل الى شىء من الارتباط بين الأحلام وواقع الحياة ، اذن فكل شىء على مايرام** » .

ثم يعلق لينين قائلا : « **ولسوء الحظ انه ليس هناك فى حركتنا الا القليل جدا من هذا النوع من الأحلام** »(١) .

وهل آلاف الأعوام من الحضارة الانسانية الا التجسيد المادى لصور ذهنية من صنع الخيال ، انتهت — عندما اكتسبت الجدية والتوهج — الى أرض الواقع ، وان لم ترتبط بهذه الأرض الا بأوهى الخيوط ؟ . ان المثال أو المهندس المعمارى يتأمل الخواص الطبيعية للحجارة والصخور ، ويظل يمعن النظر فيها ويقلبها من كل جانب **الى أن يعثر على الخيط الذى يربط خياله بالواقع ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، يهتدى هذا الخيال الى الطريق فيتجسد ابداعا ماديا واضحا وملموسا** . ولكم كانت رغبة الانسان وتلهفه لاعـادة صياغة حياته الاجتماعية ، بل ولاعادة صياغة ذاته نفسها ، اكثر قوة وروعة ، وبما لا سبيل معه الى المقارنة ، من كافة الانجازات الأخرى التى تمكن من تحقيقها . ولقد تطلب الأمر تراكم الرصيد الملائم من المعرفة الدقيقة والواضحة حتى أصبح فى الامكان تسليط الاضواء على القوانين الاقتصادية المجـردة ،

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٥ ، ص ٥٠٩ .

وعلى جميع الزوايا الأخرى التى تقترب من الواقع ، بما فى ذلك عواطف الانسان ووجدانه .

ولم يكن لينين من علماء النفس المحترفين رغم تفاعله السريع والدقيق فى مؤلفه : « **من هم اصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين الديموقراطيين** » مع كتابات ستشينوف فى علم النفس .

يقول لينين : « وهاهو عالم النفس الذى يستند الى العلم يتخلى عن النظريات الفلسفية عن الروح ويبدأ فى اجراء دراسة مباشرة للبنية التحتية المادية للظواهر النفسية — وهى العملية العصبية »(١). ولاحظ لينين أن الجميع يتحدثون عن الفهم الجديد جذريا لعلم النفس الذى توصل اليه ستشينوف ، وتحليله الناجح للعمليات النفسية التى كانت بلا تفسير حتى ذلك الحين ، مما يؤكد أن لينين كان يتابع أبرز الاتجاهات المادية فى علم النفسى الروسى . ولكنه كان عالم نفس بمعنى مختلف . كان عالم نفس بالقدر الذى تحتاج معه الثورة البروليتارية وقضية الحزب الى معرفة واضحة وحية بروح الشعب ، ادراكا منه لأنه من المحال ، مع عدم توفر هذه المعرفة، أن يتم التوصل الى تقييم دقيق وكامل لتوازن القوى الثورية عند كل ساعة محددة . ومما له دلالته الفائقة الأهمية بالنسبة لعلماء النفس ، أن لينين يوشى كتاباته بمجموعة كبيرة ومتنوعة من الملاحظات الجادة الرزينة ، والتى تتسم أيضا بالحماس والاعجاب فى غالب الأحيان ، عندما يتحدث عن الحالة الذهنية للجماهير وما يطرأ عليها من تغيرات نفسية ، وعندما يحلل وضع الفئات المتعددة للمجتمع فى المراحل المختلفة .

وكثيرا ماكان الاشتراكيون القانونيون والمناشفة يتشدقون بالحديث عن سيكولوجية الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة . **ولكن مما يدعو الى الدهشة حقا ان اهتمامهم تركز كله تقريبا حول تلك الجوانب من علم النفس الاجتماعى التى يستدل منها — من وجهة نظرهم — على انعدام المهدات**

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ١ ، ص ١٤٤ .

الاجتماعية النفسية اللازمة للعمل الثورى المباشر .وحقا ، لكم أعمتهم نظرياتهم المزعومة عن رؤية أى شىء آخر . ومما له اهميته فى هذا الصدد ذلك النزاع الذى شجر بين لينين وستروف حول توفر أو عدم توفر هذه « الظروف الاجتماعية النفسية » للثورة فى روسيا(١) .

كان ستروف يعارض شعار الدعوة الى الهبة المسلحة استنادا الى أن الدعاية الجماهيرية الواسعة للبرنامج الديموقراطى هى وحدها التى يمكنها خلق الظروف الاجتماعية اللازمة لهذه الهبة . كان رد لينين هو أن مثل هذا الموقف ، **فى الوقت الذى بدأت فيه الثورة بالفعل** ، لا يعنى الا التخاذل والتراجع الذى لن يستفيد منه الا البورجوازية الليبرالية . وقال موضحا وجهة نظره : « انه موقف أشبه تماما بما حدث فى برلمان فرانكفورت فى عام ١٨٤٨ ، عندما أخذت العناصر البورجوازية التى لا تعرف الا الثرثرة والصياح الأجوف تركز كل جهودها فى صياغة القرارات والبيانات وأعمال الدعاية الجماهيرية ، وتهيئة الظروف الاجتماعية النفسية ، فى الوقت الذى كانت القضية فيه هى صد هجوم القوات المسلحة التى حركتها الحكومة بالفعل ، وعندما كان تطور الاحداث قد أفضى الى ضرورة ، النضال المسلح (٢) . وطالب الاشتراكى الثورى تشيخونوف بشطب شعار القضاء على الملكية واعلان الجمهورية من البرنامج وراح يردد : « يجب ألا نتغافل العامل النفسانى » ... « ان فكرة الملكية تضرب بجذورها بعمق فى وجدان الجماهير » ... « ينبغى علينا أن نضع سيكولوجية الجماهير فى اعتبارنا » ... « ان مسألة الجمهورية تتطلب الحد الأقصى من الحذر » . وعارض لينين بكل شدة هذه المحاولة لاستخدام المفاهيم السيكولوجية لتفسير احداث التاريخ ، وقال أن تشيخونوف ، الذى يبدو أكثر ملكية من الملك « **يبرر استخدام السوط ، استنادا لما للسوط من تاريخ يمتد وراءه آلاف السنين** ». ثم شرح رأيه موضحا أنه ينبغى محاربة هذه الغرائز الطبقية التى تعرقل الثورة بدلا من التهليل لها والدفاع عنها » (٣) .

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٨ ، ص ٥٥٠ .
(٢) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، مجلد ٩ ، ص ٦٩ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١١ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

وكان لينين يمتلك القدرة على اكتشاف أوهى أعراض المشاعر الثورية، والفرصة المتاحة للالتحام بها . وكانت له عين ثاقبة ترصد أهم أعمق الظواهر الاجتماعية التى يمكن ادراكها حسيا ، مؤكدا بذلك أن فكره كان يتجه دائما الى الواقع دون أن يحيد عنه لحظة . وكان دائما على أعلى درجات اليقظة النفسية ، سواء عند مد الثورة أو جذرها ، وقبل ثورة اكتوبر أو بعدها .

وان كان ما يفكر فيه الناس ويشعرون به هو الذى يكشف عن « سيكولوجية الجماهير » اذن لابد من دراسته . ويقول لينين فى عام ١٩٢٠ : « يجب علينا أن نتعلم **كيف نقترب من الجماهير فى اناة وصبر وحذر** حتى نتمكن من فهم السمات المميزة لكل فئة . وكل مهنة .. الخ ، من هذه الجماهير » (١) .. والظروف الاقتصادية والاجتماعية تولد فى كل طبقة ، وفئة ، ومهنة ، سمات نفسية خاصة . ولهذا السبب كان لينين يصر دائما على تضمين الجانب النفسى فى تعريف البروليتاريا . فتعريف مصطلح « العامل » — فى رايه — ينبغى أن يحدد « **بحيث لايشمل الا اولئك الذين اكتسبوا العقلية البروليتارية من واقع ظروف حياتهم نفسها . ولكن هذا محال مالم يعمل الأشخاص الذين اعنيهم فى مصنع ، ولعدة سنوات ، وليس لبواعث ثانوية أو خفية ، وانما نتيجة للظروف العامة لحياتهم الاقتصادية والاجتماعية**(٢) .

وكان لينين يبحث مشاعر الناس وسيكولوجيتهم وحالتهم الذهنية عند التصدى لأى قضية . وكثيرا مانجده يطالب قائلا : « أرجو أن تردوا علينا على وجه السرعة حتى نعرف ما هو الشعور السائد فى هذا الصدد » (٣) .

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣١ ، ص ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ٢٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٣٤ ، ص ١٥٣ .

اليكم مثال آخر : كان لينين يرى أن من واجب من يمثل العمال أن يتعلم من معايشته لاكثر العناصر العمالية بروزا ونفوذا « **كيف تجري الأمور** ، والى أين **انتهت** الأوضاع ، **وفيما يفكر** العمال ، وماهو**المزاج النفسى** البـــائد بين الجماهير »(١) . كما عدد مصادر المعلومات المتعلقة بالسيكولوجية الاجتماعية والتى لامناص من معرفتها من أجل قيادة أى حركة جماهيرية ، **وهو لا يستبعد أيضا حتى المصادر المعادية** ، « يجب بذل كل جهد من أجل جمع ، ودراسة، والتأكد من صحة كافة المعلومات الموضوعية المتعلقة بالسلوك والمــزاج النفسى . ولست أعنى بذلك سلوك الأفراد أو الجماعات ومزاجها ، وانمـــا أعنى سلوك **الجماهير** ومزاجها ، كما أعنى المعلومات التى يمكن **لكل من يعرف** القراءة أن **يتحقق من مدى صحتها** . فمن مثل هذه المعلومات وحدها نستطيع أن ندرس حركة طبقتنا »(٢) .

وتتجسد ملاحظات لينين الاجتماعية النفسية فى تعريفه للعلاقة بين الحزب والجماهير عندما يقول : « عيشوا **فى أعماق** الأشياء . تعرفوا على **مزاج** الناس . تعرفوا على **كل شىء** . تعلموا كيف تفهمون الجماهير . توصلوا الى الاسلوب الصحيح للاقتراب منها وفهمها . اكسبوا ثقتها المطلقة(٣) .

ولكل ذلك ، يصبح من واجب علم النفس الاجتماعى الماركسى اللينينى، وقبل التعرض لقوانينه وظواهره الخاصة ، أن يدرس ملاحظات لينين التى خرج بها على امتداد حقبة كاملة من الممارسة الثورية ، والتى تشكل جزءا من « علم الثورة » الخالد الذى أرسى دعائمه . ولتكن دراسة هذه الملاحظات هى نقطة البداية .

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ١٨ ، ص ٤٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٨٢ .
(٣) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، الطبعة الروسية الخامسة ، المجلد ٤٤ ، ص ٤٩٧ .

٢ — التلقائية والوعى

حاول جميـــع الماركسيين البـــارزين من أمثـــال انطونيو لابريولا ، وأوجست بيبل ، وروز لكسمبورج ، وج.ف. بليخانوف ، فى مجرى سعيهم لنشر مبادىء المادية التاريخية ، أن يتحققوا الى اكبر درجة ممكنة من الدقة من صحة آليات قانون « الوجود الاجتماعى يحدد الوعى » . وكان كل منهم يرقب سيكولوجية الجماهير عن كثب ، فهى عنصر لاغنى عنه فى تكوين هذه الآليات ، رغم كل ما يحيط بها من غموض ، ولأن وعى الجماهير لايتكون من الأيديولوجية وحدها ، وانما يدخل فى تكوينه العنصر السيكولوجى أيضا . ولا يمكن لاهمال الجانب السيكولوجى الا أن يؤدى الى فهم مبسط وساذج ، سواء للبنية الأساسية أو الفوقية . ومن المحال أن نستخلص من الوضع الاقتصادى وحده طبيعة الاتجاهات والتيارات الفلسفية والدينية والجمالية السائدة بين الناس . ولقد حاول بعض مورخى الثقافة ، ومنهم بريفير زيفة وفريتز ، وقدموا بالفعل ، تصورات مبسطة ساذجة تنقل الواقع نقل المرآة ، فنسبوا ، على سبيل المثال ، النمط المستخدم فى بناء كاتدرائية القديس بازل فى موسكو ، الى تنوع الألوان ووفرة الســـلع فى الميـــدان الأحمر . وأما الماركسيون الاكثر تعمقا فى نظرتهم فكانوا لا يعارضون دائما أى فهم مبسط ومبتسر للبنية الأساسية عندما تتجسد فى البنية الفوقية ، موضـــحين أن العلاقات الاجتماعية الاقتصادية أساسا ، هى التى تحدد المجالات المستترة والتى لا تخضع للترتيب المنهجى من الوعى الاجتماعى ، أكثر مما تحددها الايديولوجية .

وبليخانوف هو صـــاحب النظرية التى تـــذهب الى أن التغيرات فى سيكلولوجية الانسان ، والتى تتحقق نتيجة للتطور الاجتماعى الاقتصادى هى التى تسد الفجوة بين التقدم الاقتصادى وتاريخ الثقافة بالمعنى العام .

وليست الأفكار والثقافة بالنسبة لأنصار هذا المفهوم الا التجسيد المادى لسيكولوجية الجماهير . ويقسم بليخانوف المجتمع فى كتابه « **مقالات فى تاريخ المادية** » الى خمسة عناصر مترابطة : « المرحلة المعينة من تطور قوى الانتاج، والعلاقات بين الناس فى عملية الانتاج التى تحددها المرحلة المذكورة للتطور ، وشكل المجتمع الذى يجسد هذه العلاقات الانسانية ، والمزاج النفسى والعادات المقابلة لهذا الشكل من المجتمع ، والديانة والفلسفة والآداب التى تصور الاستعدادات والأذواق والميول المنبثقة عن كل هذه الظروف »(١).وكان بيلخانوف يصر على أن الحلقة التى يطلق عليها هنا تسمية « المزاج النفسى والعادات » (ويسميها فى مواقع أخرى الحالة العاطفية والاطار الذهنى السائد) . هى التى يمكن القول بشكل عام أنها هى السيكولوجية الاجتماعية التى لاغنى عنها لأى بحث علمى لتاريخ الأدب أو الفن أو الفلسفة .. الخ . يقول بليخانوف : « يتطلب فهم تاريخ الفكر العلمى لبلد معين ، أو تاريخ فئة، **ما هو اكثر من معرفة اقتصاده** ، ويجب علينا أن ننتقل من الاقتصاد الى الدراسة والفهم العميق للسيكولوجية الاجتماعية والتى لايمكن اذا اغفلناها أن نقدم أى تفسير مادى لتاريخ الأيديولوجيات » (٢) .

ويقدم بليخانوف فى موقع آخر ، صياغة اكثر احكاما لهذه الفكرة فيقول: « أن جميع الأيديولوجيات تنبثق من سيكولوجية مشتركة تضرب بجذورها فى العصر الذى تظهر فيه كل أيدلوجية » (٣) .

وكان هو والماركسيون الآخرون على حق : **فالأيديولوجية الجديدة لا تنبثق من التغيرات الاقتصادية ، وانما تنبثق من السيكولوجية السائدة فى المجتمع ، بصفتها التجسيد المادى التصورى لها** . ومن الناحية الأخرى

---

(١) ج.ف. بليخانوف ، المؤلفات الفلسفية المختارة ، المجلد الثانى ، موسكو ١٩٥٦ ، ص ١٧١ .

(٢) بليخانوف ، المؤلفات الفلسفية المختارة ، المجلد ٢ ، موسكو ١٩٥٦ ، ص ١٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

فالايديولوجية تمارس تأثيرا قويا على السيكولوجية العامة ، ويتفاعل الاثنان. واذا نحن اعتبرنا الأيديولوجية مجرد تجسيد مادى للسيكولوجية العامة ، فسوف نغمض أعيننا عن استمرارية تطور الأيديولوجية من مرحلة الى أخرى ، وما يحكم هذا التطور من منطق داخلى . **ومن الواضح أن الاكثر صوابا هو ان نسلم بأن لكل من جانبى الوعى الاجتماعى — الجانب النفسى والجانب التصورى — بنيته الخاصة ونمطه المميز (١) ، ولكن الظواهر الاجتماعية النفسية النابعة من هذه القاعدة الاجتماعية الاقتصادية أو تلك ، هى التى تدفع تطور الأفكار الى الامام أو تكبحه .**

والسيكولوجية تنتسب دائما الى مجال **السلوك** الانسانى (بما فى ذلك الكبت والقهر) ، بينما لاتعدو **الأيديولوجية** المجردة من السيكولوجية أن تكون **نظرة** الى العالم فحسب . والأيديولوجية تنتمى الى عالم الأفكـار والآراء والعادات والأعراف الاجتماعية ، وهى بدون سيكولوجية ، مجرد وصف علمى للثقافة يكتفى برصد ظواهرها مع اجتناب كل تأويل أو شرح أو تقويم . **وأما اذا اجتمعت الأيديولوجية والسيكولوجية ، فهما تشكلان ، معا ، تاريخ الثقافة ، وعندما تسيطر الأفكار على الجمـاهير ، فهى تتغلغل فى سيكولوجيتها ، أى الى مجال سلوكها العملى . وعلى نفس النحو ، فعندما تدفع فكرة من الأفكار فردا الى سلوك معين ، فهى الآن اكثر من مجرد فكرة ، انها دافع سيكولوجى** . والأيديولوجية لاتكتسب القوة الاجتماعية ، ايجابا أو سلبا ، الا من خلال السيكولوجية ، والتغير فيها لا يتحقق ، شأنه شأن أى عملية أخرى الا من خلال السيكولوجية ايضا ، انه تغير محكوم سيكولوجيا . والسيكولوجية ، من الناحية الأخرى ، تفرض حدودا على السلوك العملى (رغم أن بعض الأفعال أوتوماتيكية وانعكاسية) ، لأنه **لا سيكولوجية خارج مجال السلوك العملى** ، وقد ترتبط السيكولوجية أوثق الارتباط بالنظرة الى

---

(١) أنظر م. جاك : تعاليم عن الوعى الاجتماعى على ضوء نظـرية المعرفة ، موسكو ١٩٦٠ .

العالم ، ولكن قد يكون هذا الارتباط أحيانا على أقصى درجـــة من الهزال والضعف ، وهنا تصبح السيكولوجية مجرد حافز تلقائى بحت ، وغير واع للسلوك الاجتماعى . والواقع أن السيكولوجية الاجتماعية يتسرب اليهـا دائما شيء من الأيديولوجية ، مهما تستر وتخفى هذا التسرب .

وكان لينين يؤكد دائما أن المشاعر والأمزجة ، والغرائز ، أى الأحوال النفسية للطبقات المختلفة وللجماهير ، تنبثق من ظروفها الاقتصادية ، وأن المصالح الاقتصادية الجوهرية هى المصدر الاساسى للظواهر الاجتماعيـة النفسية ، ولن يولى الناس الا أذنا صـماء لأى دعاية تخلو مـن الرؤية الاقتصادية . يقول لينين : « أن الجماهير لا تنجذب الى الحركة ، ولاتشارك فيها بحماس ، ولاتكن لها التقدير ، ولاتبدى ألوان البطولة والتضحية وانكار الذات والثبات والاخلاص للقضية الكبرى ، الا اذا كانت هذه الحركة تعمل من أجل تحسين الظروف الاقتصادية لأولئك الذين يعملون »(١) . فتجاهل المطالب الاقتصادية لايمكن الا أن يعنى التخلى عن المصالح الاقتصادية التى تدفع جموع أولئك الذين تطأهم الأقدام ، وترتعد منهم الفرائص ، ويخيم عليهم الجهل الى أن يخوضوا النضال العظيم الذى لم يسبق له مثيل،والمجرد من الأنانية(٢) . فالثورة تنفجر ، لا لأن نفرا من الساسـة البورجوازيين يزمجرون ويتوعدون ، ولكن لأن الملايين من « بسطاء الناس » يدفع بهم الى اليأس ، ولأن الثورة تنضج فى هدوء فى الاعمـاق البعيدة للجماهـر البروليتارية(٣) . والظروف الاقتصادية هى التى تحتم كلا من السـلبية السياسية المؤقتة للطبقات المختلفة أو تعطشها للثورة والاشتراكية . وهكذا، « فالوضع الاقتصادى لجماهير البورجوازية الصغيرة هو الذى يجعلهـا ساذجة لدرجة مذهلة . . انها لاتزال نصف نائمة »(٤) بينما يجد الاشتراكيون

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٨٥ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١١ ، ص ٤٢٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٨٢ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٩٦ .

الديموقراطيون فى الجماهير البروليتارية « اندفاعا غـريزيا » ، وطبيعيا « نحو الاشتراكية »(١) .

ولينين لا يتجنب كلمات مثل « الغريزة الطبقية » أو « غريزة الطبقة الثورية » ، أو « الغريزة الثورية » ، أو « المشـاعر الطبقيـة » ، أو « المشاعر » الخ . ولكن المعنى الذى يفهمه من الغريزة يتعلق بالمجـال الاجتماعى النفسى وليس بالمجال البيولوجى . كما توصل الى عديد مـن التعبيرات الملائمة للدلالة على هذا المجال الذاتى شديد البدائية للحركـة الاجتماعية ، أو لتصور هذه الحركة من الناحيـة الأخرى . وهو يحلل الكراهية المكبوتة لدى العمال ازاء القاهرين ويخلص من تحليله الى النتيجة التالية : « ان هذه الكراهية ، التى يحملها ممثل الجماهير المقهورة والمستغلة، هى حقا بداية كل حكمة ، انها قاعدة أى حركة اشتراكية وشيوعية وهى أساس نجاحها (٢) . والمشاعر نصـف العمياء تتحول الى فعـل نصـف أعمى « ان الحشود غير المنظمة التى يكتظ بها الشارع ، هى التى تقيم أول المتاريس ، بكل تلقائية وتردد (٣) . وترنح الاحزاب البورجوازية وتذبذبها » يستنفر الجماهير ... ويدفعها نحو العصيان المسلح » (٤) .

ان المشاعر والعواطف وأنواع السلوك العملى التلقائية والغريزية ، والتى تتولد مباشرة من ضرورات الحياة ومصالحها ، هى ما يدخـل تحت عنوان السيكولوجية .

ويبين تحليل لينين لنظرة الاشتراكيين الديموقراطيين الروس الى العالم ، أو نظرة تولستوى اليه ، كيف تنفـذ السيكولوجية الاجتمـاعية الى الأيديولوجية وتتخللها .

---

(١) المرجع السابق المجلد ٩ ، ص ٣٨٨ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٨٠ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ١٧٢ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٦٠ .

وكان لينين يرى أن آراء بيلنسكي ، التي يعبر عنها في رسالته الى جوجول ، تنبع من المشاعر المنتشرة بين الأقنان ، بينما يعزوها خبراء الشئون العامة في القرن التاسع عشر الى الاستياء العام من بقايا الاقطاعية . ويشير لينين الى أن الفكر التقدمي الروسي في القرن التاسع عشر لا يجسد الاطار الفكري للمثقفين ، وانما يجسد تناقض الفلاحين مع الاقطاعية واحتجاج الشعب ضد « بقايا الاقطاعية المتفشية في كافة جوانب الحياة الروسية » (١) .

ويعزو لينين العناصر التقدمية في التولستوية الى نفس المصادر في نفس الوقت الذي يقتفي فيه أثر العناصر الرجعية في سيكولوجية فلاح ما بعد الاصلاح ويأسه وبلبلته في مواجهة « الحرية » الرأسمالية ، والتي لم تكن تعني بالنسبة له الا الافلاس ، والموت جوعا ، والضياع (٢) .

حقا ان لينين لا ينسب الجذور الاجتماعية النفسية للتولستوية الى الفلاحين وحدهم ، وانما يذكر أيضا المجتمع الروسي كله . » فالتناقضات في آراء تولستوى ليست تناقضات كامنة في آرائه الشخصية وحدها ، وانما هي تجسيد للظروف المتناقضة بالغة التعقيد ، والمؤثرات والتقاليد التاريخية التي حددت سيكولوجية مختلف طبقات وقطاعات المجتمع الروسي في عهد ما بعد الاصلاح **وما قبل** الثورة (٣) ومع ذلك ، **فتولستوى ، من وجهة نظر أكثر شمولية ، يصور اساسا مزاج الفلاح الروسي ، وطبيعته التي تجمع في آن واحد ، وبنفس الدرجة ، بين الثورية العمياء والمعاداة العمياء للثورة .**

ويقول لينين ان تولستوى عظيم لانه عبر عن مشاعر الملايين من الفلاحين الروس في عشية ثورة ١٩٠٥ البورجوازية . فلقد تراكمت قرون القنانة وعشرات السنين من الدمار الذي أعقب الاصلاح « لتشكل جبالا من

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٦ ، ص ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٣٣٥ .
(٣) المرجع السابق .

الكراهية ، والسخط ، والعزيمة اليائسة » . ويشير لينين الى أن المحتوى التصورى لكتابات تولستوى يتمشى أساسا مع تطلع الفلاحين الى القضاء على النظام القديم ، وكافة الاشكال والطرق القديمة لملكية الأرض ، من أجل مثل أعلى مبهم لمجتمع من صغار الفلاحين الأحرار ، المتساوين فى الحقوق والواجبات (١) وكان نقد تولستوى للنظام القائم قويا فى تجسيده للعواطف ، والانفعالات ، والتصميم ، والتوقد ، والاخلاص ، والجسارة ، وفى اصراره على « أن يصل الى الجذور » ، وأن يضع يده على الأسباب الحقيقية للبؤس ، ولأنه جسد مزاج الملايين من الفلاحين . (٢) ويلاحظ لينين أن تولستوى أدرك إدراكا عميقا مزاج الجماهير المقهورة « معبرا عن مشاعرها التلقائية الساخطة الغاضبة ، (٣) التى ظلت تتراكم على امتداد القرون . وهو يفضح المؤسسات التى تساعد الطبقات الحاكمة والمجتمع المعاصر على المحافظة على السلطة : وليس فقط الدولة ، والكنيسة ، ونظام ملكية الأرض ، وانما أيضا « المحاكم ، والطغمة العسكرية ، والزواج غير الشرعى (القانونى) ، والعلم البورجوازى » (٤) .

ومن الناحية الأخرى يوضح لينين أن الفلاح كان يتصور هذا المجتمع الذى يتوق اليه على نحو غامض وعلى ضوء العلاقات الأبوية ، فماضيه يغرس فيه حقدا دفينا على الطغمة الحاكمة وعلى البيروقراطية ، ولكن هذا الماضى لم يحدد له أين يبحث عن الاجابات على الأسئلة التى يطرحها الصراع الاجتماعى . يقول لينين : « وأفكار » تولستوى مرآة للضعف وأوجه القصور فى ثورتنا الفلاحية ، وتجسيد لترهل ورخاوة ريفنا الأبوى ، والجبن الذى لايفارق « الفلاح الروسى المغامر » (٥) ثم يدعم وجهة نظره فى موقع آخر

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٢٠٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٣٣٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٢٠٧ .

فيقــول : « ان تولستوى يصور مشاعرهم [أى الفــلاحين — المؤلف] بصدق ، والى الدرجة التي يدخل بها ضمن مذهبه الخاص ، كل ما يتميزون به من سذاجة ، وعزوف عن الحياة السياسية ، وايمان مبهم لا عقلانى ، ورغبة فى البقاء بمنأى عن العالم ، وعدم مقاومة الشر ، ولعنات عقيمــة يصبونها على الرأسمالية (وسلطة المــال) . ان تولستوى يمزج فى مذهبه بين احتجاج الفلاحين ويأسهم »(١) .

وهكذا يتضح لنا مفهوم لينين لكيفية انعكاس بعض سمات السيكولوجية العامة فى بعض الظــواهر الأيديولوجية المحددة . فالأيديولوجية مــرآة تعكس صورة لسيكولوجية الجماهير ، رغم أن هذه المرآة تعكس الصورة بطريقة غير مبــاشرة ، ومن خلال انكسار الأشــعة عبر الخواص المميزة والسمات الخاصة للمجال الأيديولوجى .

أما العملية العكسية — أى انعكاس الأيديولوجية فى السيكولوجية — فهى مغفلة فى المثال السابق ، رغم مالتولستوى والتولستوية من انصــار عديدين بين بعض فئات الفلاحين . واذا أردنا التعرف على أثر الأفــكار والنظريات والعلم على سيكولوجية الجماهير والطبقات ، فعلينا أن ننتقل الى مستوى مختلف كل الاختلاف .

وغالبا ما يتناول لينين العلاقة بين السيكولوجية والأيديولوجية فى كتاباته باعتبارها هى مسألة التلقائية والوعى . والتلقائية والوعى يختلفان الى حد ما ولكنهما يرتبطان ببعضهما البعض أوثق الارتبــاط . وبالرغم من أنهما نقيضان من وجهة نظر لينين ، الا أنهما يتفاعلان فى مجرى الحــركة الثورية ، بحيث **ينبثق الوعى من التلقائية ومن خلال الصراع ضــدها ، والفارق بين انتشار الوعى السياسى وتنامى ســخط الجماهــير ، وفقا لمــا يذهب اليه لينين ، هو ان انتشار الوعى السياسى يتحقق من الخارج**

---

(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٣٣٢ .

على يد الاشتراكية الديموقراطية ، اما تنامى سخط الجماهير فهو يتحقق تلقائيا (١) .

وكان لينين يبرز دائما هذا التأثير المتوازى والمتفاعل للفكر والتغيرات السيكولوجية المستترة على نضال العمال والحركة الاشتراكية الديموقراطية ، ويقول فى عــام ١٩٠٥ ، أثناء تناوله للمراحل الثلاث فى الحركة الاشتراكية الديموقراطية : « وقد تم الاعداد لكل تحول من هذه التحولات بواســطة الفكر الاشتراكى الذى يعمل أساسا فى اتجاه واحد ، من ناحية ، ومن خلال التغيرات العميقة التى تحققت فى ظروف حياة الطبقة العاملة وعقليتها كلها ، من الناحية الأخرى ، وكذلك نتيجة للتزايد المستمر فى حجم تلك الفئات من الطبقة العاملة التى ارتفعت الى مستوى من النضال اكثر وعيا وايجابية»(٢) كما يسود فهم لينين للوعى الاجتماعى الاهتمام فى نفس الوقت بما يجرى فى المخ ، وبالتكوين النفسى ، والأفكار ، والمشاعر .

ويختلف هذا عن هرم بليخانوف « المــدرج » الذى يخصص فيــه « المصطبتين » الثــالثة والرابعة للسيكولوجية والأيديولوجية . ولينين يبرز **التناقض ووحدة الأضداد فى الوعى العام ويؤكد عليهما : فالسيكولوجية والأيديولوجية نقيضان الى حد ما ، ولكن لا يمكن لاحــداهما أن توجــد بغير الأخرى . واذا أردنا الدقة ، فهذان النقيضان هما السلوك الأعمى غــير الواعى ، من ناحيــة ، والوعى العــلمى ، من الناحية الأخــرى .** ولينين لا يتجنب مصطلح « غير واعى » ، ويقول فى كتابه ، « من هم أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين الديموقراطيين » : لم يحدث أبــدا من قبل : » أن تصور أعضاء المجتمع أن مجموع العلاقات الاجتماعية التى يعيشون فى اطارها تمثل شيئا محددا ، متكاملا ، يتحكم فيه مبدأ من المبادىء ، بل وعلى العكس ، كانت جمهرة الناس تتكيف مع هذه العلاقات عن غــير

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٦ ، ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٢١١ .

وعى ، وكان فهمهم لها كعلاقات اجتماعية تاريخية من نوع خاص ضئيلا الى الحـد الذى لم يتم معه التوصل ، مثلا ، الى تفسير لعلاقات التبادل التى عاش الناس فى ظلها قرونا ، الا منذ وقت قريب جدا » (١) ولكن هناك بين التكيف غير الواعى مع الحياة الاجتماعية (وهما قطبان بعيدان عن التفكير المنطقى والمعرفة) ، والتفسير النظرى لهذه الحياة الاجتماعية ، مساحة ممتدة واسعة يمتزج فيها هذان العنصران المتناقضان ، واللذان يرتبط كل منهما بالآخر بأشكال شديدة التنوع ، فيشكلان السيكولوجية الاجتماعية والأيديولوجية ، **والسيكولوجية الاجتماعية اقرب الى « التكيف غير الواعى » ، ولكن من الجلى انها تتأثر بالوعى . وبنـاء على ذلك ، فالسيكولوجية الاجتماعية نقيض للأيديولوجية بمعيار نسبى للغاية ، ومع العديد من مراحل الانتقال** . وكان لينين يربط بين الجانبين ربطا وثيقـا فى بعض الأحيان ، والى الدرجة التى يكاد يتعذر معها التمييز بينهما ، فهـو يقول : « أن هذه السيكولوجية وهذه الايديولوجية ، ومهما بـدا الأمـر غامضا ، تضربان بجذورها بعمق عادة فى كل عامل وفلاح » (٢) .

وكان لينين يستخدم مصطلح « التلقائية » للتعبـير عن السـمات الاجتماعية النفسية المتحركة فى اتجاه الوعى ، وان كانت غير مرادفة للوعى . « فالتلقائية » تتضمن مجموعتين أساسيتين من الظواهر : (١) الاحبـاط الذى يصيب الناس ، واذعانهم للفقر والحرمان من الحقوق ، وتعـودهم على القهر ، (٢) الاحتجاج ، والسخط ، والتمرد الموجه ضد المصـدر الرئيسى للبؤس ، ولكن دون الاسترشاد او السـير على هدى نظـرية اجتماعية .

وكان لينين يرفض المجموعة الأولى رفضا قاطعا ، ويدعو المـاركسيين الثوريين الى سحق هذا الحاجز النفسى فى الجماهير ، ويرى أن الخضوع

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١ ، ص ١٣٩ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٩ .

الخانع الذليل يتعارض كل التعارض مع الفطـرة الثـورية والسـلوك الثورى ، ويقول فى مقال له تحت عنوان : « الذين يطاردون زمستفو ، وهانيبالات اللبرالية » (١٩٠٥) : « **وتماما كما أعتاد الفلاح فقره المزرى ، وأن يعيش حياته دون أن يفكر فى اسباب شقائه ، أو فى امكان القضـاء على هذا الشقاء ، نجد المواطن الروسى العادى أيضا وقد اعتاد معايشة القدرة الكلية التى لا راد لها للحكومة ، وأن يواصل حياته دون أن تـكون لديه أدنى فكرة عما اذا كانت الحكومة ستستطيع الاحتفـاظ بسلطتهـا التعسفية لوقت أطول ، أو ما اذا لم تكن هناك ، وجنبا الى جنب معهـا ، قوى اخرى تقوض أركان النظام السياسى الذى عفا عليه الدهر** » (١) . وكان يعنى بهذه القوى ، أولا وقبل كل شىء ، تقدم الطبقة العاملة ، رغم ادراكه للآثار المختلفة من الاحباط والاذعان بين العمال أيضا .

واجتذبت المجموعة الأخيرة من الظواهر التلقائية لينين كمنظر وثورى يمارس العمل الثورى بالفعل — ولم يكـن مذهبيا فقط فى نظـرته الى التلقائية . بل وعلى العكس ، هاهو يقول : « وليس هناك من شك فى أن تلقائية الحركة انما هى دليل على عمق هذه الحركة بين الجماهير ، وعلى أن جذورها راسخه ، فانها حركة حتمية (٢) ، والعنصر التلقائى لا يمثـل ، فى جوهره ، ما هو أكثر أو أقل من الوعى فى **شكل جنينى** . وحتى الثورات البدائية كانت تعبر عن يقظة الوعى لدرجة معينة . كان العمال يفقـدون ايمانهم الذى استمر دهرا بأبدية النظام الذى يقهرهم ... وبدأوا ... لن أقـول فى فهم ... وانما فى الاحساس ، بضرورة المقاومة الجماعية ، وأخذوا يتخلون بشـكل قاطع عن الاستسلام الذليل للسلطات . **ولكن ذلك كان ، رغم كل شىء ، أقرب الى طبيعة تفجرات اليأس والانتقام ، منه الى تفجـر النضـال** » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٣٥ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٦٠ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٣٧٤ .

ولهذا الشكل من التلقائية قيمته بالنسبة للماركسى الثورى ، ليس فقط لأنه يمكن أن يولد الوعى العلمى ، ولكن لأنه يمهد الطريق لنشر هذا الوعى وتمثله . والموقف السياسى للعمال ونضاليتهم التلقائية هما التربة الصالحة التى تترعزع فيها الاشتراكية الديموقراطية ، وتسهل الانتشار السريع للماركسية (١) . وعندما طرح الثوريون المتعلمون على لينين سؤالهم : « ما العمل ؟ » ، كانت اجابته هى أن المفكرين الثوريين « يكتسبون القدرة على التصدى بنجاح للمهام السياسية بالمعنى الحقيقى والعملى لأقصى حد للكلمة ، **عندما تحظى دعايتهم الملتهبة ، وبقدر ما تحظى ، بالاستجابة من جانب الجماهير التى تستيقظ تلقائيا** ، وعندما يكون الرد على نشاطهم المتقد هو التجاوب والمساندة من جانب الطبقة الثورية ونشاطها » (٢) . وكان على الشباب المسلح بالنظرية الثورية الماركسية أن يستفيد من تطبيق هذه النظرية على الجماهير عندما استيقظت تلقائيا . وسوف يقوم الاشتراكى الديموقراطى فى بادىء الأمر ، كما يقول لينين ، بالكشف عن جميع الشرور والنواقص أمام الناس « من أجل أن يستحث نشاطهم » ، قبل أن يقدم تقريره الى « المسئولين » (٣) . والماركسية تمكن المناضل من أن يفسر للعمال الأسباب العميقة لبؤسهم « وأن يفتح أمامهم أوسع الآفاق ، وتضع تحت تصرفه (ان جاز هذا التعبير) القوة العارمة لعدة ملايين من العمال الذين يهبون تلقائيا للنضال » (٤) .

والهجوع واليقظة ينشئان عند أحد الطرفين ، بينما تنشأ النظرية العلمية وتتحول الى ايديولوجية اجتماعية سياسية شاملة ودعاية عند الطرف الآخر . وكان لينين يؤمن بأنه لا يكفى مجرد تعريف العمال الروس بالمبادىء الأساسية للاقتصاد السياسى (التى تفسر طبيعة الاستغلال

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ١٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٣٩٢ .

الرأسمالى) ، وتزويدهم بالخطوط العامة للشيوعية العلمية ، فهذا لا يكفى لربط النظرية العلمية بالاحتجاج والسخط ، والعامل الروسى الذى ينحدر من أصل فلاحى أو ينتسب للفلاحين ، يعيش فى بلد فلاحى وتحيط به المؤسسات الاوتوقراطية والبيروقراطية شبه الاقطاعية من كل جانب . ويتعين على النظرية العلمية الا تشرح للعامل مصالحه الطبقية الضيقة فحسب ، وانما عليها أن تشرح له المجتمع المحيط به كله أيضا ، وعليها أن تبين له أنه مالم تتم الاطاحة بأعمدة الرجعية هذه ، وطالما حجب فقراء الفلاحين تأييدهم ، فلن يكون للطبقة العاملة أمل فى مواجهة البورجوازية . والطبقة العاملة « لن يتوقف اضطهادها وتهديدها وعجزها عن أن تفعل شيئا سوى اليأس الغاضب وليس الاحتجاج الذكى والنضال الدءوب » (١) ما لم تفهم النظام الاجتماعى وتشكل جبهة واسعة مع الجماهير الكادحة ، ويجب الا تقتصر النظرة العلمية للعمال على الصناعة والعمل الصناعى . ولقد أحسن الماركسيون صنعا عندما أزاحوا الستار عن الاوضاع فى الريف ، والتى حاول النارودنيكيين ابرازها فى أروع بهاء ، ووضعوا يد البروليتاريا على الاغلال التى تكبل الجماهير العاملة فى كل مكان ، حتى تتمكن من النهوض والتخلص منها « والانطلاق للحصول على الثمرة الحقيقية » (٢) ، الاشتراكية .

يقول لينين فى كتابه ما العمل ؟ : « من أجل أن يصبح العامل اشتراكيا ديموقراطيا يجب أن ترتسم فى ذهنه صورة واضحة للطبيعة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المميزة لمالك الأرض ، ورجل الدين ، وموظف الدولة الكبير ، والفلاح ، والطالب ، ويجب أن يعرف ماهى نقاط القوة ونقاط الضعف فى كل منهم ، وأن يدرك معنى كل عبارة منمقة ومغالطة تحاول بها كل طبقة وكل فئة أن تموه مساعيها الانانية وحقيقة « ما يعتمل فى

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١ ، ص ٢٩١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

داخلها » . (١) وباختصار ، فالحركة المضادة ينبغى أن تتكون من نظرية ، مع الدعاية لها على النحو الذى يتلاءم مع الرغبة المتصاعدة تلقائيا فى العمل الايجابي ، وبحيث يتمكن من قيادة هذا العمل ، وصولا — من خلال الوعى — الى دائرة الحواس . ومن اجل توضيح هـــذه النقطة يستشهد لينين بفقرة لفردريك انجلز: « فبدون حاسة نظرية بين العمال ، لما أمكن لهذه الاشتراكية العلمية أن يجرى مجرى الدم فى عروقهم »(٢) ، وهذه الحركة المضادة هى التي تستجيب للسخط المتفجر تلقائيا بين الجماهير ، كنظرية تسيطر على وعى هذه الجماهير ، والاكثر من ذلك ، كنظرية تجرى مجـــرى الدم فى عروقهم ، ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة هو أن نقول : أن النظرية تتحول الى قوة مادية فور أن تسيطر على الجماهير .

وفى عام ١٩١٢ كتب لينين يقول : « ونحن نقول أن العمال والفلاحين الذين ذاقوا القهر والاضطهاد اكثر من غيرهم ، بـــدأوا يهبون ثائرين . ومن هنا فالنتيجة البسيطة والواضحة هى أنه يتحتم علينا ان نشرح لهم كيف يستعدون للقيام بهبة ناجحة ، ولاى غرض » (٣) .

ولقد علم لينين الثوريين الروس كيف يحققون التلاحم بين الاشتراكية العلمية وحركة العمال .

ودائرة النشاط لا تقتصر على الطبقة العاملة وحدها . « فهناك كتلة ضخمة من الناس ، لأن الطبقة العاملة ، وفئات اجتماعية أخرى شـــديدة التنوع ، تخرج من بين صفوفها ، عاما بعد عـــام ، أعـــدادا متزايدة من الساخطين الراغبين فى الاحتجاج ، والذين يبدون استعدادهم لتقديم كل مساعدة يقدرون عليها فى النضال ضد الحكم الاستبدادي ، الذى يزداد الاحساس يوما بعد يوم باستحالة تحمله ، حتى وان كان هذا الاحساس

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٤١٣ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٣٧١ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ .

لا يشمل الجميع »(١) . وهنا ايضا يتحدث لينين مرة اخرى عن سلسلة ممتدة من المشاعر ابتداء من الاحساس غير الواعى ، وحتى الوعى العلمى . وعند تحليله للسخط غير الواعى ، نجده يشير الى ضرورة توجيه الدعاية والاثارة الى الطبقات الأخرى وليس الى البروليتاريا وحدها . وهو يتساءل : « هل هناك قاعدة للنشاط بين جميع طبقات السكان ؟ » ، ثم يجيب : « لايمكن لمن يشك فى ذلك الا أن يكون وعيه متخلفا وراء اليقظة التلقائية للجماهير ، فحركة الطبقة العاملة استيقظت ومازالت تثير السخط لدى البعض ، والأمل فى ان تكون سندا وعونا للمعارضة لدى البعض ، كما تدفع البعض أيضـا الى ادراك أن الأوتوقراطية لم تعد تحتمل وأنه لابد من أن تسقط حتما ... وهذا أمر يختلف كل الاختلاف عن أن يكون الملايين من العمال الزراعيين ، والعمال اليدويين ، وصغار الحرفيين ، الخ ، على استعداد دائم لأن يستمعوا فى شغف لخطاب يلقيه أى اشتراكى ديموقراطى يعرف كيف يخاطبهم . وهل هناك حقا طبقة اجتماعية واحدة لاتضم أفرادا ، أو مجموعات ، أو دوائـر ساخطة لحرمانها من الحقوق ولما ترزح تحته من نير واستبداد ، ومن ثم فهى على استعداد لتقبل دعاية الاشتراكيين الديموقراطيين .. ؟ (٢) .

ويمكننا أن نتبين رأى لينين فى التلقائية والوعى ، بكل وضوح ، مـن موقفه من التآخى فى ميدان القتال فى عام ١٩١٧ . يقول لينين : « أن التآخى بدأ واستمر تلقائيا ، والجنود المتآخوين لايتصرفون تحت تأثير فكرة سياسية واضحة محددة المعالم ، وانما بغريزة المقهورين الذين . استبد بهم الارهاق والانهاك ، وبداوا يفقدون الثقة فى الوعود الراسمالية . وهذه غـريزة طبقية صادقة ، وبدون هذه الغريزة لما كان هناك أى أمل لقضية الثورة . **وعلينا ان نحول هذه الغريزة الى وعى سياسى** »(٣) . وطالما أن التآخى

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٤٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٠ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٤ ، ص ٢٦٨ .

تلقائى ، اذن فمعناه الوحيد هو تحطيم الانضباط السائد فى الثكنات ، وتحطيم الطاعة العمياء من جانب الجنود للضباط والجنرالات والرأسماليين ، ولكن كل ذلك هو بالفعل مبادرة ثورية من الجماهير»(١). «لقد كان التآخى تلقائيا ، وانتشر بالتدريج من قطاع واحد على الجبهة الى كافة ميادين القتال ، ومن ثم فتح الباب ليدخل الوعى السياسى ، والانتقال الى التآخى الواعى»(٢).

وينتهى بنا الاهتمام العميق الذى تناول به لينين الشكل الثانى من التلقائية ، أى شكل الاحتجاج ، الى القول بأن سيكولوجية الاحتجاج تتعطش الى الوعى ، سواء كان هذا الوعى ايديولوجية بورجوازية أو العلم الحقيقى للاشتراكية البروليتارية . **ومهما يكن من أمر ، فسيكولوجية الاحتجاج هذه ، أو هذه التلقائية ، لاتقطع سلفا بتفضيل الوعى العلمى كوعى مميز عن الأيديولوجية غير العلمية . بل وعلى العكس من ذلك ، كان لينين يؤكد دائما ان التطور التلقائى لحركة الطبقة العاملة لايمكن ان يؤدى الا الى خضوعها للأيديولوجية البورجوازية ، ورغم أن النظرية الاشتراكية اكثر وضوحا وأقرب الى العمال ، الا أن الأيديولوجية البورجوازية هى الأقدم ، والاكثر دقة وبريقا فيما تبدو فيه من اثواب ، وهى تمتلك من وسائل الانتشار السريع مالا سبيل الى المقارنة به** . ولذلك ، « **فكل** تقديس لتلقائية حركة الطبقة العاملة ، وكل انتقاص من أهمية دور العنصر الواعى — أى دور الاشتراكية الديموقراطية — **لايعنى الا تدعيم وتعميق تأثير الأيديولوجية البورجوازية على العمال ، بصرف النظر عما اذا كان من ينتقص من اهمية هذا الدور يرغب فى ذلك أو لا يرغب))(٣) .**

هذه ، باختصار ، هى جدلية أفكار لينين عن السيكولوجية الاجتماعية للسخط والاحتجاج التلقائيين . وبالرغم من أنه يرى فى التلقائية تربة خصبة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

للوعى الاشتراكى ، الا أنه يهاجمها ويرفض أن يتخذ منها موقف التقديس ؛ لأن **التلقائية ، فى حد ذاتها ، لايمكن أن تفرخ الا ايديولوجية بورجوازيــة ، والتلقائية بالنسبة للثورة قد تكون قاعدة للأنطلاق ، أو قيدا يعوق هــذا الانطلاق** . يقول لينين : « كثيرا ما يقال أن الطبقة العاملة تنجذب **تلقائيا** نحو الاشتراكية ، وهذا سليم تماما ، بمعنى أن النظرية الاشتراكية تكشف عن أسباب بؤس وفاقة الطبقة العاملة على نحو اكثر عمقا واكثر صدقا من أى نظرية أخرى ، ولهذا السبب يستطيع العمال فهمها واستيعابها بسهولة ، ولكن **بشرط** ألا تستسلم هذه النظرية للتلقائية ، **وبشرط** أن تخضع لهــا التلقائية ... وأن كانت الطبقة العاملة تنجذب تلقائيا نحو الاشتراكية ، الا ان الأيديولوجية البورجوازية ، الأوسع انتشارا ، تفرض نفسها تلقائيا على الطبقة العاملة لدرجة اكبر »(١) .

وهكذا تتكشف لنا القطبية والتغلغل المتبــادل بين السيكولوجيــة الاجتماعية والأيديولوجية ، بين التلقائية والوعى ، بين عدم الوعى والعلم ، وكانت الأوضاع فى عام ١٩٠١ تتطلب التعرف على هذه الدائرة من الظواهر الاجتماعية النفسية التلقائيه غير الواعيه ، والتى تخضع مع ذلك للايديولوجية من أجل الأجابة على السؤال : ما العمل ؟ . وهى أيضا معرفة كان لينين فى حاجة اليها على امتداد نشاطه اللاحق .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٦ .

٢ — الجانب النفسي للعلاقة بين الطليعة والجماهير

تتركز ملاحظات لينين حول السيكولوجية الاجتماعية ، فى التحليل الاخير ، حول مهمة واحدة دون سواها ، وهى تقييم الظروف التى يمارس الحزب نشاطه الثورى فى اطارها ، وتقويم الخلفية الاجتماعية النفسية لشعارات الحزب ، ومن ثم تقويم كفاءة وجدوى ما يبذله من جهود . وكان لينين بصيرا دائما بما يتعرض له النشاط الثورى من مد وجذر ، بل ومن « احباط وسلبية » فى بعض الأحيان بين مختلف فئات البروليتاريا والفلاحين(١) ، وفقا للوضع السياسى العام . وكان يستعرض سلسلة الأوضاع وهى تمر أمام ناظريه : من « فترة من الانحسار الشديد فى نشاط الجماهير » (٢) بعد الهبة الثورية فى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ الى توقع الانتصار فى عام ١٩١٨ ، « وها قد تحقق التحول اللازم فى مزاج الجماهير . ان هذا التحول يشق طريقه الآن ، وربما تطلب الأمر وقتا طويلا ، ولكنه آت لا محالة ، عندما تكف الكتلة الكبرى من الشعب عن ترديد ما تردده الان » (٣) . وكان من الطبيعى ان ينوع الحزب فى أساليب عمله بحيث تتناسب مع التطورات الجارية .

هذا هو أحد جوانب تعاليم لينين حول العلاقة بين الحزب والجماهير والطبقات . وسوف نتناول هنا هذا الجانب السيكولوجى على وجه التحديد، رغم تداخله وامتزاجه بالعديد من العوامل الأخرى .

والعلاقة بين الطليعة المنظمة وبقية الجماهير تجسيد حى للجدل اللينينى .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٢٨٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ١٠٨ .

وبادىء ذى بدء ، كان لينين يؤكد دائما أن **اشد الطلائع براعة واكثرها ثورية ، واكثر احزاب الطبقة العاملة صلابة وتمرسا فى النضال ، لا تعدو ان تكون قطرة فى محيط الشعب** . والطليعة يصيبها العقم عندما يخيم السكون على هذا المحيط . يقول لينين ، « ان اشد الطلائع براعة تعبر عن الوعى الطبقى ، وارادة ، ومشاعر ، وخيال عشرات الالوف ، بينما تتحقق الثورات فى لحظات المد العام وتتفجر جميع القدرات والطاقات الانسانية ، بواسطة الوعى الطبقى ، وإرادة ، ومشاعر ، وخيال عشرات الملايين ، الذين يحفزهم ويحركهم اكثر أنواع الصراع الطبقى حدة »(١) .

ولم يتردد لينين فى أى وقت من الاوقات من أن يحذر الحزب من الذيلية وراء التغيرات فى السيكولوجية الثورية للجماهير الثورية فى فترات المد الثورى ، ويقول : « أن يوم ٩ يناير ١٩٠٥ يكشف كشفا كاملا عن الاحتياطى الهائل من الطاقة الثورية التى تملكها البروليتاريا ، وكذلك عن عدم ارتفاع التنظيم الاشتراكى الديموقراطى على الاطلاق ، الى مستوى الأحداث »(٢). وكانت الاستجابة العملية الفورية من جانب لينين للتزايد السريع فى أعداد البروليتاريا والفلاحين التى هبت للمشاركة فى الحياة الثورية والسياسية بعد احداث عام ١٩٠٥ (عندما أطلقت الشرطة النار على احدى المظاهرات السلمية للعمال) هى : « أن نعمل على زيادة عضوية جميع التنظيمات الحزبية والتنظيمات المرتبطة بالحزب ، بأعداد كبيرة ، حتى نتمكن ، الى حد ما من مجاراة تيار الطاقة الثورية الشعبية التى تضاعفت قوتها مائة مرة»(٣) . ويقول فى رسالة له فى تلك الفترة انه نظرا للاتساع الهائل للحركة « لم يكن فى مقدرة أى لجنة مركزية فى العالم ، فى ظل ظروف يحظر فيها نشاط الحزب بحكم القانون ، ان تلبى جزءا على الف من المطالب التى يتعين عليها تلبيتها »

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٩٥ — ٩٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ١٦٧ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٢١٧ .

ولذلك ، ولاسباب عديدة اخرى ، فهو يؤيد تأجيل الهبة حتى الربيع (١) . وكان ينادى ايضا بضرورة عقد مؤتمر للاعداد للهبة : « استنادا الى الخبرات العملية للأعضاء العاملين ، وانطلاقا من مزاج جماهير الطبقة العاملة»(٢)، وأكد أن الحزب متخلف وراء التحرك الحماسى الشديد للجماهير : « وتوضح الأحداث أننا لسنا بصدد هبة تقوم بها جماهير غير متحضرة ، وانما نحن بصدد هبة تقوم بها جماهير واعية سياسيا وقادرة على ممارسة النضال المنظم ... ويجب علينا أن نتأكد من حقيقة المزاج السائد بين البروليتاريا — وما اذا كان العمال يعتبرون أنفسهم على استعداد للنضال ، ولقيادة النضال » (٣) . وفى فترة لاحقة ، قال لينين أن أحداث موسكو تبين : « اننا مازلنا نميل الى التقليل من شأن النشاط الثورى للجماهير » (٤) . كما كان يقدر النشاط التلقائى فى الفترات التالية أيضا ، فى عام ١٩١٩ مثلا ، ويقول أن النظام السوفيتى فى الريف لم تقم له قائمة الا نتيجة للمساندة الحماسية من جانب أغلبية الشعب ، ويقول : « ونحن نحظى بهذه المساندة لأن عمال المدن يرتبطون بفقراء الريف بآلاف الطرق ، **والتى لم تكن لدينا أدنى فكرة عنها** » (٥) .

ولكن هذا جانب واحد فحسب من الجدل . ولم يكن لينين يحدد اتجاه نشاط الحزب فى فترات المد الثورى فحسب ، وانما أيضا فى فترات الهدوء النسبى ، عندما كان فى قدرة الاثارة السياسية أن توقظ قطاعات كبيرة من الناس (٦) . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أبدا أن الطليعة لاتصبح جديرة حقا بهذا الاسم الا لأنها تستطيع ان تثير حماس الجماهير وأن تقودهم . ويقول لينين « **وكثيرا ما يحدث فى اللحظات الحرجة من حياة الشعوب أن تتمكن**

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٦٠ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٣٦٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ٣٨٤ .
(٥) المرجع السابق المجلد ٢٩ ، ص ٧٦ .
(٦) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٥١٤ .

حتى الفصائل المتقدمة الصغيرة من الطبقات المتقدمة من تحريك الطبقات الأخرى معها على نفس الطريق ، والهاب الجماهير بالحماس الثورى ، وانجاز العديد من المآثر التاريخية الهائلة »(١) . وهذا الدور الطليعى لايعنى مجرد الدعاية للنظرية التقدمية ، وانما يعنى أيضا نشر الحماس واشعال المشاعر الثورية . وكما يقول لينين ، « فجميع التغييرات السياسية الكبرى لاتتحقق الا من خلال حماس الطليعة التى تتبعها الجماهير تلقائيا وليس عن وعي كامل » (٢) .

وعندما نادى الحزب فى عام ١٩٠٥ بتجاوز الاساليب البرلمانية فى النضال صعودا الى ما هو أرقى منها ، كان ذلك نداء رجال — كما يقول لينين — « يقفون حقا على رأس الجماهير ، على رأس الملايين من المقاتلين من العمال والفلاحين . وتثبت استجابة هذه الملايين للنداء ان الشعار كان صحيحا من الناحية الموضوعية ، وانه كان يعبر ، ليس فقط عما تؤمن به حفنة من الثوريين ، وانما كان يعبر ايضا عن حقيقة الوضع القائم ، وعن مزاج الجماهير ومبادئها » (٣) . وكما يقول لينين فى عام ١٩١٦ ، « لقد أحست الجماهير ، بغريزتها ، أننا على حق » (٤) . وبعبارة أخرى ، نزلت شعارات الحزب على تربة اجتماعية نفسية خصبة ، وعبرت عن المصالح الموضوعية للجماهير . وكان هذا هو مصدر قوة الحزب البلشفى . ويؤكد لينين فى عام ١٩١٧ ، « اننا نحن ، ونحن وحدنا ، الذين وضعنا التغير فى مزاج الجماهير فى اعتبارنا ، كما وضعنا فى اعتبارنا شيئا آخر ايضا ، شيئا أكثر اهمية وأشد عمقا من الأمزجة وتغير الأمزجة ، وهو المصالح الجوهرية للجماهير » . ويواصل لينين حديثه فيقول ان البلاشفة تبرأوا من الشوفينية من أجل أن يعبروا عن مصالح الجماهير ومن أجل حفزها الى العمل الثورى ، واستخدام

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٣٩٥ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ١٧٤ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٣٣٩ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٥١٤ .

« مزاجها الثورى ، ليس من أجل تأمل مزاج معين ومغازلته بطريقة غير مبدئية ، وانما من أجل شن النضال القائم على المبادىء من اجل قطع أى صلة أو علاقة بالشوفينية »(١) .

وكماثرى ، فلينين يرفض أن يكون ذيلا لسيكولوجية الجماهير ،ويوضح ذلك بشكل قاطع فيقول : « من الطبيعى انما ان نخضع لكل ما تقوله الجماهير، لان الجماهير ، ايضا ، تستسلم فى بعض الأحيان — وعلى وجه الخصوص فى اوقات الارهاق غير العادى والانهاك الناجم عن المعاناة والمشاق عندما تفوق الحد — لمشاعر لا يمكن أن تكون مشاعر متقدمة باى حال »(٢) .

هذه هى ، وفقا لمصطلحات علم النفس ، جدلية العلاقة بين الجماهر والطليعة ، أو كما يقول لينين فى « ما العمل ؟ » ، بين سواد الناس والثوريين المحترفين (٣) . فالحزب ينبغى أن يكون دائما مع الجماهير « ويجب أن يذهب حيثما ذهبت الجماهير ، وأن يحاول فى كل خطوة دفع وعى الجماهير فى اتجاه الاشتراكية » (٤) . والحزب ينجح فى فرض نفسه كقوة قيادية لانه يخلص دائما للجماهير ، ولأنه يلهمها ورشدها . ولكن ينبغى الا ننسى ، أولا وقبل أى شىء آخر ، أن الجماهير هى التى تصنع التاريخ ، ويقول لينين ، فى عام ١٩٠٥ ، أن الطبقة العاملة تتعطش الى العمل الثورى الصريح ، وأنه يتعين على الحزب أن يحدد هدفا للهبة **أى أن يقود البروليتاريا ولا يكتفى** بمجرد التسكع فى ذيل الاحداث (٥) . وفى عام ١٩١٧ ، أشار لينين الى ان القوة الحقيقية الوحيدة التى تفرض التغيير هى الطاقة الثورية للجماهير ، وأن هذه الطاقة تتجسد فى أعمال الدعاية والاثارة والتنظيم التى تقوم بها الاحزاب وهى تسير على رأس الثورة ، وليس وهى تترنح فى ذيل الاحداث(٦) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٧١ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ٣٩ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٤٦٥ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٣٥٤ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ١٩ .
(٦) انظر ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، الطبعة الروسية الخامسة، المجلد ٣٠ ، ص ٢٨٢ .

« فالاشتراكية لايمكن أن تفرض بمرسوم من أعلى . أن روحها ترفض الفهم البيروقراطى الميكانيكى ، فالاشتراكية الحيـة الخلاقة انمـا هى من نتـاج الجماهير نفسها » (١) .

ولم يتردد لينين فى الموافقة على أمانى الفلاحين فى التوزيع المتكافىء للأرض بعد أن وضعت ثورة أكتوبر المراكز الاقتصادية والسياسية الرئيسية بين أيدى البروليتاريا . « **فالتجربة هى خير معلم . ولندع الفلاحين يحلون هذه المشكلة عند احد طرفيها وسوف نحلها نحن عند الطرف الآخر . وسوف تجبرنا التجربة على أن نتقارب فى مجرى التيار العام للعمل الثورى الخلاق، واثناء صياغتنا للاشكال الجـديدة للدولة . وينبغى علينـا ان نسترشد بالتجربة ، وان نسمح بالحرية الكاملة للقدرات الخلاقة للجماهير** » (٢) .

وأخيرا ، فلنتذكر كيف الح لينين فى عام ١٩١٨ على ضرورة الحصول على فترة لالتقاط الانفاس : لقد تمكن البلاشفة من كسب الجماهير واقناعها بنزع ثقتها من الاغنياء ، ولكن الدمار الاقتصادى ، والجوع ، وآثار الحرب ، « كان لابد أن تؤدى حتما الى الانهاك الكامل لقطاعات واسعة من الجماهير العاملة ، بل والى استنفاد طاقتها تماما . وهؤلاء الناس يلحون فى المطالبة بفترة لالتقاط الانفاس ، ولا يمكن الا أن يطالبوا بها » (٣) .

وهكذا نرى أن لينين لم يكن يقيم الحزب بهدف التقييم فى حد ذاته ، وانما من أجل تحديد ما يجب أن تكون عليه العلاقة بينه وبين القوى الحاسمة فى التاريخ ، والصانعة لهذا التاريخ — الجماهير العاملة . وهذا حقا هو المعيار الوحيد الممكن ، سواء من وجهة نظر الممارسة السياسية العملية او التاريخ . يقول لينين : « **ان مجرد مسحة زيف فى موقف اى حزب .. لابد ان**

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٨٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦١ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٢٤٣ .

تهوى به على الفور الى حيث يستحق »(١). وانطلاقا من هذا الرأى عن العلاقة بين الحزب والجماهير لم يكرس لينين الجانب الاكبر من اهتمامه لسيكولوجية الجماهير فحسب ، وانما ايضا لسيكولوجية أعضاء الحزب ، بل وكان ينتقدها بكل قسوة فى بعض الأحيان .

وعندما كان لينين ينتقد اللجنة المركزية حول أوجه القصور فى الجانب السيكولوجى ، كان يؤكد أن لهذا القصور أثره المباشر على العمل السياسى، لان التردد فى العمل السياسى داء مميت (٢) .

ويصر لينين فى الرسائل التى كتبها فى تلك الفترة على انهاء كافة أنواع الشجار بين أعضاء الحزب فى الخارج ، حتى ماليس خطرا منها (٣) . وكان اكثر تشددا فى المطالبة بذلك بعد الثورة ايضا ، فيقول فى عام ١٩٢٢ : « والسلطة الأقتصادية فى أيدى دولة روسيا البروليتارية وسيلة ملائمة تماما لتأمين الانتقال الى الشيوعية . فماذا ينقصنا ؟ . . . من الواضح أن ما ينقصنا هو الثقافة بين تلك الفئة من الشيوعيين التى تمارس الوظائف الادارية » (٤) .

وكان لينين يستخدم كلمات تلهب الحماس اشتعالا عند حديثه عن المكانة الأيديولوجية والسيكولوجية للحزب بين الجماهير ، وبعد الانفصال عن المناشفة فى عام ١٩٠٧ كتب يقول : « كان لابد من اثارة الكراهية والمقت والاحتقار لدى الجماهير نحو أولئك الذين لم يعودوا أعضاء فى حزب موحد » (٥) . ويؤكد ذلك مدى الاهمية التى كان يوليها لمشاعر الجماهير نحو البلاشفة . وكانت دعاية الحزب واثارته دائما « مناشدة لمشاعر الناس » كما يقول لينين فى حديثه عن بيان الدولية الشيوعية الثالثة (٦) ، وكان ذلك ،

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٨ ، ص ٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٢٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ — ٣٣٢ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ٢٨٨ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ١٢ ، ص ٤٢٦ .
(٦) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ١٩٢ .

جنبا الى جنب مع موضوعية هذه الدعاية والاثارة واستنادها الى قاعدة علمية راسخة ، وبنفس الدرجة ، هو الذى أضفى القوة على نداءات الحزب وشعاراته ، ويصدق ذلك تماما على شعار تحويل السوفيتات الى جهاز للهبة ، أى الى جهاز للسلطة الثورية . يقول لينين : « أما اذا اعتبرنا السوفيتات جهازا لا علاقة له بهذه المهمة ، فنحن نحولها الى مجرد دمية ، وسوف ينتهى بها الحال حتما الى السلبية واللامبالاة ، وبالتالى الى سخط الجماهير وتذمرها بعد ان أصابها الضجر والملل لكثرة القرارات والاحتجاجات وتكرارها الى مالانهاية » (١) .

والحزب يستمد قوته من الاثارة التى يمكن للجماهير أن تفهمها ، ومن روعة الامثلة التى يضربها بنفسه ، يقول لينين : « ان ما تتوقعه الجماهير منا ، هو أن نقوم بالدعاية من خلال المثل الذى نضربه ، والجماهير غير الحزبية تحتاج دائما لان نضرب لها المثل » (٢) . كما كان يطالب ، فى عام ١٩١٨ ، بتكثيف الاثارة الجماهيرية بين العمال والفلاحين معا فى المناطق التى تواجه المجاعة .

واليكم مثالا آخر يؤكد مدى الأهمية التى كان لينين يوليها للسيكولوجية وللجوانب الاجتماعية النفسية فى عمل الحزب : فعندما تحدث عن انتصارات الجيش الأحمر فى منطقة الدون فى اجتماع عقد فى عام ١٩١٩ ، نجده يرجع هذه الانتصارات الى عامل واحد دون سواه ، هو تكثيف الحزب لنشاطه التثقيفى والتعليمى بين الجنود ، « فأدى ذلك الى تغير سيكولوجى ، ونتيجة لذلك حرر الجيش الاحمر منطقة الدون » (٣) .

ان تتبع التغيرات السيكولوجية ، بل والعمل على تحقيقها ، هو — من وجهة النظر الاجتماعية النفسية — المهمة المزدوجة للحزب فى مجرى قيادته للجماهير ، وانجاز واجباته الثورية وبناء الاشتراكية .

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات الطبعة الروسية الخامسة ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٤٣ .

(٢) ف.ا.لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣١ ، ص ٤٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٥١ .

٤ — محصلة المشاعر الثورية

يختلف اهتمام لينين بالعمليات والظواهر الاجتماعية النفسية بصدد ثورة اكتوبر عما كان عليه قبلها . فقبل الانتصار ، لم يكن علم النفس الإجتماعي اللينيني يعنى بأي حال بالتربية الشيوعية للجماهير ، وكان لينين يصف أي اتجاه أو نزعة من هذا النوع بأنه خداع للعمال من جانب احزاب وزعماء الدولية الثانية **فطالما ان الظروف الاجتماعية الاقتصادية كانت هي الظروف الراسمالية ، والبوارجوازية تقهر الطبقة العاملة (وبطرق غاية في البراعة والتهذيب والنعومة في بعض الأحيان) ، لم يكن القول بقدرة الإغلبية التي تئن تحت وطأة الاستغلال على التوصل الى الاقتناع الراسخ بالافكار الاشتراكية الا مخادعة واحتيالا** . فالواقع ، كما يقول لينين « أن جماهير الكادحين والمستغلين لايمكن تعليمها ، وتدريبها وتنظيمها حول البروليتاريا التي تستطيع تحت قيادتها أن تتخلص من الانانية ، والتفكك ، وكافة المثالب وأوجه الضعف التي تتولد عن الملكية الخاصة ، **الا في المجرى العملي للصراع الطبقي المحتدم ، والا بعد الاطاحة بالمستغلين** »،وعندئذ،وعندئذ فقط،سيمكن تحويل هذه الجماهير الى وحدة حرة لعمال أحرار »(١) .

وأما آراء لينين حول علم النفس الاجتماعي قبل ثورة اكتوبر ، فهي تهدف الى تحقيق مهمة جوهرية واحدة دون سواها . **ففي ظل النظام الأوتوقراطي الراسمالي ، كان الهدف هو تعبئة جميع المشاعر الثورية ودمجها في تيار واحد ، من اجل ضمان تصاعد الحركة الثورية والتغلب على كل المؤثرات المعاكسة** . وفي عام ١٩٢٠ ، قال لينين « كانت مهمة الجيل القديم هي الاطاحة بالبورجوازية ... واثارة الحقد على البورجوازية بين

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ١٨٧ .

الجماهير ، وترسيخ الوعى الطبقى لديها وقدرتها على توطيد قواها » (١).

وما كان من الممكن أن تشق هذه العملية مسارها فى خط مستقيم . فثورة ١٩٠٥ تثبت ، من جانب ، « ان الحكم الطويل وغير المتقطع للاوتوقراطية اختزن بين الناس قدرا هائلا من الطاقة الثورية بلغ حدا لم يسبق له مثيل من قبل فى التاريخ » (٢) ، **ولكن الشعب ، من الجانب الآخر ، كان جزءا من المجتمع الرأسمالى ، ومن ثم يكن بمنأى عن أوجه القصور والضعف فى هذا المجتمع** ، كان يحارب من أجل الاشتراكية ، ولكنه كان يحارب فى نفس الوقت ضد نقائصه الخاصة (٣) ، التى كان يستسلم لها فى بعض الأحيان . هكذا ، **ففى بداية الحرب العالمية الأولى « تغلبت البورجوازية على البروليتاريا فى كل مكان لبعض الوقت ، وجرفتها فى دوامة النزعات القومية والشوفينية** (٤) . ولكن التيار الرئيسى شق طريقه الى الأمام فى خاتمة المطاف .

وكان جوهر هذا التيار الرئيسى هو تنامى الادراك النفسى لأن المجتمع القائم ينقسم الى معسكرين متناقضين ، الى « نحن » و « هم » . ويشرح لينين ذلك بكل وضوح فى الفقرة التالية : « ولكن هذا العضو من أعضاء الطبقة المقهورة ، حتى وان كان ينتسب لفئة العمال التى تحصل على أجور عالية وتحظى بدرجة جيدة من الثقافة ، هذا العضو (يقبض على الثور من قرنيه) فى ببساطة وعزيمة تثير ان الدهشة ، وفى اصرار حازم ووضوح رؤية مذهلة ، وعلى نحو ما زلنا نحن المثقفين بعيدين عنه بعد السماء عن الأرض . ان العالم كله ينقسم الى معسكرين : « نحن » ، الجماهير العاملة ، و « هم » المستغلين ....

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٤٤٨ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٢٠٨ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٤١٨ .

« فأما كيف يفكر المثقف البورجوازى وكيف يشعر فيدور حول/قوله : ياله من شىء مؤلم « هذا الوضع المعقد الذى لم يسبق له مثيل » الذى نتج عن الثورة .

« وأما كيف يفكر العامل وكيف يشعر فنلمسه من قوله ، » لقد عصرناهم بعض الشىء ، « وهم » لن يجرؤوا على فرض استبدادهم علينا ، نحن ، كما كانوا يفعلون من قبل » (١) .

وسوف نعود فيما بعد الى دراسة الأثر النظرى لعلم النفس الاجتماعى كعلم يستند الى مفهوم لينين الخاص لمبدأ « نحن وهم » .

وهذا المبدأ ، بلا جدال ، مؤشر دقيق يؤكد النضج الكامل للروح الثورية للعمال . وما أن ينشأ مفهوم « نحن وهم » هذا ، حتى يصبح من المحتم حسم الاوضاع . يقول لينين : « ان عزم الطبقة العاملة ، وتمسكها الذى لا يلين بشعار الموت خير من الاستسلام ! ، ليس مجرد عامل تاريخى ، وانما هو العامل الحاسم الذى يحقق الفوز » (٢) ، أنه هو الذى يدفع البروليتاريا الى النضال المسلح والانتصار العسكرى . « **وان طبقة مستغلة لا تناضل من أجل أن تحصل على السلاح ، وأن تتعلم كيف تستخدمه وكيف تستوعب وتتقن الفن العسكرى ، ليست الا طبقة من الخدم والاتباع المتزلفين** » (٣) .

وبالرغم من أن لينين كان يرى أن التحرر الكامل لروح الجماهير من الميراث الراسمالى لا يمكن أن يتحقق الا بعد الثورة الاشتراكية ، الا أنه كان يدرك فى نفس الوقت أن النضال الثورى والثورة الحقيقية هى المعلم الفعال والمقنع للجماهير .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ١٣٠ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٠ ، ٤٥٤ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٣٥ ، ص ١٩٥ .

« ولا يمكن للتعليم الحقيقى للجماهير أن ينفصل بأى حال عن نضالها الثورى — **والنضال وحده هو الذى يعلم الجماهير المستغلة . والنضال وحده هو الذى يكشف لها عن حجم قوتها الذاتية ، ويوسع من أفقها ، ويضاعف من قدراتها ، ويهبها وضوح الرؤية ، ويشحذ ارادتها » (١).**

وعندما تجذب حرب ثورية — كما يقول لينين — اهتمام الجماهير المقهورة فهى تولد القوة والقدرة على تحقيق المعجزات (٢) . ولا ينطبق هذا القول على البرولتياريا وحدها ، وهى أكثر الطبقات ثورية ، وانما ينطبق أيضا على الفلاحين . يقول لينين فى تعليق له على ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ « **ومن بين جموع الفلاحين الذين يرزحون تحت نير العبودية الاقطاعية التى لا يحملون لها الا ابشع الذكريات ، خلقت هذه الثورة ، ولأول مرة فى روسيا ، شعبا بدأ يفهم حقوقه ، وبدأ فى ادراك قوته » (٣) .**

ولكن نظرا لأن الثورة لم تمارس أثرا عكسيا على سيكولوجية الجماهير فى الظروف « السلمية » السائدة قبل الثورة : تركزت جميع ملاحظات لينين المتعلقة بالسيكولوجية الاجتماعية حول التعرف ، بقدر الامكان ، عن **القوى المحتملة التى يمكن أن تساعد الثورة بشكل مباشر أو غير مباشر ، والعمل على توحيد هذه القوى** . كانت المهمة هى التجميع وتحقيق الاندماج التدريجى بين كافة الروافد ، وكافة الجداول المتفرقة ، وجميع القطرات المشتتة ، والتى تنم عن السخط والاحتجاج . وكانت نقطة البداية ، بالطبع ، هى الاعتماد أساسا على **الوحدة الموضوعية للمصالح المشتركة** ، ولكن الشاغل المباشر كان يتركز حول الجانب الذاتى ، الجانب السيكولوجى . واليكم كيف عبر لينين عن هذه القضية : « أن نحشد — اذا جاز هذا التعبير — وأن تركز ، كل تلك القطرات والروافد التى تعبر عن السخط الشعبى ،

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٢٤١ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٠ ، ص ١٥٢ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٧ ، ص ٨٩ .

والتى تتوالد يوما بعد يوم لمدى أوسع كثيرا مما نتصور نتيجة لظروف الحياة فى روسيا ، **وان نربط بينها لتشكل سيلا جارفا واحدا** » (١) .

ويتركز علم الثورة اللينينى حول **اكتشاف وتلمس كل بادرة للقلق ، مهما كانت واهية شاحبة ، يمكن التحامها بالمعسكر الثورى** . ويقول ، فى عام ١٩٠١ ، « ان القلق العام يتزايد بين الشعب الروسى كله ... ومن واجبنا كاشتراكيين ديموقراطيين ... أن نعلمهم [أى مثقفى الطبقة العاملة التقدميين — الناشر] كيف يستفيدون من كل ومضة للاحتجاج الاجتماعى تندلع من وقت لآخر ، هنا أو هناك » (٢) .

وكان أكثر الواجبات أهمية هو توحيد التفجرات المختلفة للسخط والاحتجاج التى تتوالى بين صفوف الطبقة العاملة . وبنظرة ثاقبة ، يصف لينين الآثار النفسية لأى عمل ايجابى تقوم به مجموعة من العمال على العمال الآخرين فيقول : « وبالرغم من كل هذه المعاناة التى نجمت عن الاضراب الا أن شجاعة عمال المصانع المجاورة تجددت وتفجرت مرة أخرى عندما رأوا رفاقهم وهم يخوضون النضال ... وكثيرا ما يكفى أن يضرب مصنع واحد ، حتى تبدأ الاضرابات على الفور فى عدد كبير من المصانع . وما اعظم الأثر المعنوى للاضرابات ، **وما أعمق تأثيرها على العمال الذين يرون رفاقا لهم وقد كفوا عن أن يكونوا عبيدا ، ولو الى حين ، وتحولوا الى اناس يقفون على قدم المساواة مع الأغنياء !** » (٣) .

ولكن هذه العدوى ليست مجرد انتشار لمزاج معين أو لشكل من اشكال السلوك ، وانما هى أيضا انتقال الى مستوى أعلى . يقول لينين « وعندما تكون الحركة فى مرحلتها المبكرة ، فغالبا ما يكون الأثر الناجم

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٤٢٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٤ ، ص ٣١٥ .

عن الاضراب الاقتصادى هو ايقاظ وتحريك كل ما هو متخلف ، وتحـويله الحركة الى حركة عامة ، والارتفاع بها الى مستوى أعلى » (١) .

ويبدى لينين الملاحظة التالية فيما يتعلق بتأثير الاضرابات العمـالية على الفلاحين : « ان موجات الاضرابات الجماهرية وحدها هى التى ايقظته جماهير الفلاحين وأخرجتهم من حالة اللامبالاة التى تسيطر عليهم واصبـح لكلمة (مضرب) معنى جديد تماما بين الفلاحين : فهى ترمز الآن لشخص ثورى متمرد ، بعد ان كانت مرادفة فيما مضى لكلمة (طالب) . ولكن (الطالب) ينتمى الى الطبقة الوسطى ، للمتعلمين ، (للصفوة) ، ومن ثـم فهـو غريب عن الشعب . أما (المضرب) ، من الناحية الأخرى ، فهو من الشعب ، وينتمى الى الطبقة الرازحة تحت الاستغلال » (٢) . ويجرى هـذا التـأثير جنبا الى جنب مع تبلور وظهور عقدة « نحن وهم » فى سيكولوجية الشعب . وتؤدى الجسور الدقيقة مثل التفضيل الواضح لكلمة « مضرب » عن كلمة « طالب » ، الى **تولد الاحساس النفسى بالمشاركة بين الفلاحين والعمـال ، وحماستهم المشتركة فى معارضة السادة ، رغم اختلاف الجذور الاجتماعية الاقتصادية للمشاعر الثورية لدى العمال ، بالضرورة ، عنها لدى الفلاحين .**

ولينين يتحدث عن السـبات العميق للفـلاحين ولامبالاتهم بالمعنى السياسى وحده ، ويقصد به بعدهم عن الحركة البروليتارية . ويقول ان الفلاحين استجابوا لأحداث ١٩٠٥ انطلاقا من مشاعرهم الثورية العمياء الخاصة . « ان الفلاح يـريد الأرض ، **ولا يمـكن** لمشـاعره الثـورية ، ولغريزته ، وحماسته البدائية ان تعبر عن نفسها فى أى شىء الا فى أن يضع يده على أرض المـالك » (٣) .

وكان لينين يربط بين هذه السمة النفسية وبين خصـائص **القـالب** الاقتصـادى ، ويقول : « هناك فى روسيا بقايا للقنانة بين جماهير الشعب ،

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٨٤ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٣ ، ص ٢٤٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٢٤٧ .

فى المناطق الريفية ، فى النظام الزراعى ، أكثر مما تلتقى به فى أى بلد آخر ، ولدرجة **لا مجال معها للمقارنة** — ومن هنا تنشأ المشاعر الاكثر بدائية ، والأكثر صراحة وفجاجة فى ثوريتها بين الفلاحين وفى صفوف الطبقة العاملة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالفلاحين » . ثم يشرح وجهة نظره ويعمقها فيقول : « ولا شك أن هذه المشاعر الثورية تعبر عن وعى طبقى بروليتارى أقل مما تعبر عن **الاحتجاج ، وهو مشترك** بين الفلاحين والعمال » (١) .

وكان المناشفة شأنهم شأن الإقتصاديين ، يتابعون الجوانب المتعلقة بالسيكولوجية الاجتماعية ، على الاقل بالأقوال . ولكن الفارق السيكولوجى بين العمال والفلاحين لديهم لا يستخدم الا كحجة يؤيدون بها موقفهم المذهبى المتجمد القائل باستحالة التحالف الثورى الثابت بين الطبقة العاملة والفلاحين . وكانوا يبنون سورا صينيا بين البروليتاريا والفلاحين ، ولذلك لم تتمكن أى نظرية من نظرياتهم من وضع مشاعر العمال أو الفلاحين فى موقعها المناسب من الاطار الثورى .

واثبت لينين أن هذه المفاهيم المذهبية الجامدة لا تتمشى مع الماركسية ولا يجمعها بها جامع . وكان من الواضح له أن الثورة فى روسيا ، كما هى الحال فى عديد من البلدان الأخرى ، لا يمكن أن تحقق النصر الا من خلال تحالف قوى الاحتجاج والسخط ، وأن تقسيم القوات لمجرد أن بعض دعاة الجمود المذهبى غير العمليين يرون ذلك ، موقف يرقى الى مستوى خيانة الثورة . **ولكن التحالف الفعال بين البروليتاريا والفلاحين فى النضال الثورى يتطلب معرفة السمات المشتركة جنبا الى جنب مع السمات الخاصة لسيكولوجيتهم الاجتماعية ، حتى يتمكن العمال من ممارسة تأثيرهم السيكولوجى على جماهير الفلاحين** .وكان وصف لينين لأوجه النقص والقصور فى سيكولوجية الفلاحين قاسيا وحقيقيا : « ان الفلاحين يتم استرضاؤهم

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٢ ، ص ٦٤ .

كما يسترضى الكبار الأطفال ... فكيف يتم خداعهم ؟ — بالوعود الزائفة والمعسولة » (١) ولقد سبق أن رأينا ، فى الصورة الوصفية التى قدمها لينين لفلاح تولستوى ، الجانب الرجعى غير الثورى فى سيكولوجية الفلاح . وحتى عندما كان لينين يتحدث عن السمات الثورية لهذه السيكولوجية ، كان يدرك فى نفس الوقت بأنها على مستوى أدنى من السيكولوجية البروليتارية . « فالتضامن والتنظيم والوعى الطبقى » ، كما يقول « على درجة أدنى كثيرا بين الفلاحين عنها بين العمال . وهكذا فما زالت هناك مجالات لم يطرقها أحد من العمل الجاد فى مجال التعليم السياسى » (٢) . ومن هنا نرى ان لينين لم يكن يعتبر المسألة مستعصية على الحل . ولكن الفلاحين ، بما فيهم فقراء الفلاحين ، « أثبتوا دائما ، وفى جميع البلدان ، أنهم أقل من العمال ثباتا فى نضالهم من أجل الحرية والاشتراكية » (٣) .

وتدور ملاحظات لينين جميعا حول هدف واحد دون سواه ، وهو اكتشاف كافة العوامل ، بما فى ذلك العوامل النفسية ، التى يمكن الاستفادة منها من أجل تعبئة وتلاحم العمال والفلاحين فى اعمال ثورية موحدة . واليكم ، على سبيل المثال ، احد المواقف التى واجهت لينين فى وقت كانت العلاقات فيه بين الحكومة البروليتارية السوفيتية والفلاحين متوترة الى حد ما (١٩٢١) : لاحظ لينين أن أحد الفلاحين العازفين عن التجاوب مع الحكومة السوفيتية أحس بالمهانة وازدراء الناس له « عندما وصفه الفلاحون الفقراء فى منطقته بأنه (بورجوازى) ، فشعر بالخزى ، ... انها كلمة مشينة ولكنها تعنى كل شىء : انها القاعدة التى تنطلق منها دعايتنا واثارتنا ، ويستند اليها التأثير الذى تمارسه الطبقه العاملة من

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٧ ، ص ٣٨٢ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١١ ، ص ٣٩٥ .

خلال الدولة (١) . وكان لينين يرى فى ذلك دليلا من بين الأدلة العديدة التى تثبت أن الطبقة العاملة تحظى بمساندة وتأييد اغلبية الفلاحين فيما عـدا الكولاك (الفلاحين الأغنياء) والعناصر التى تستغل الظروف لتحقيق الربح الفاحش ، ولا شك أن هذه النقطة ، ومن الواضح تماما انها نقطة سيكولوجية بحتة ، تمثل مرحلة محددة فى تبلور وتشكيل المجموعة « نحن » — الفلاحين والعمـال معا — فى مواجهة المجموعة « هم » — البورجوازية .

وكما نرى ، كانت عين لينين لا تغفل عن **تتبع أى بادرة ثورية مهمـا كانت واهية ، وأى سخط أو احتجاج مهمـا كان بدائيا وتلقائيا ، حتى فى سنوات الاشكال البدائية المتخلفة للنضال الثورى ، وفى أوقات الاحبـاط والردة وسيطرة الرجعية ، وهذا ، من اجل دمج كل هذه الارهاصات المبعثرة لتزداد قوة ، ولتنطلق فى سيل جارف موحد .**

وكان اهتمام لينين بالظواهر السيكولوجية المعاكسـة — التقاليد ، والعادات ، والرتابة — يستهـدف دائما التخلص من المعوقات التى تعرقل مسيرة الثورة .

يقول لينين : « ان قوة العادة فى الملايين وعشرات الملايين ، قوة هائله الى أقصى حد » (٢) . والتغلب على قوة العادة ليس بالامر الهين ، وليس فقط قبل الثـورة وانما بعدها أيضا ، **فالنضال ضد عادات تشـكلت على امتداد القرون ، وخاصة تلك التى تضرب بجذورها فى كل مالك صغير ، تتطلب سنوات متصلة من العمل التنظيمى الدءوب ، حتى بعد الاطاحـة الكاملة بالطبقات الاستغلالية** (٣) . وعلينا أن نتخيل اى عبء فادح كانت تمثل العادات فى فترة ما قبل الثورة بكل ظلامها . ويقول لينين فى معرض حديثه عن انتهاك الحكومة القيصرية لدستور فنلندا فى عام ١٩٠١ : « **اننـا**

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣٢ ، ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٤٤ .

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٥٤٣ .

لا نزال عبيدا الى الدرجة التى نستخدم نحن معها لفرض العبودية على شعوب اخـــرى » (١) .

ولكن هذه السمات السيكولوجية المرتبطة بالعـــادة والخضـــوع لم تحظ من جانب لينين بمثل ما حظيت به السمـــات المرتبطة بالسخط والنضال من اهتمام .

خروج الاحتجاج اقوى بمراحل من العادة والخضوع . وعندما انتشرت الاضرابات فى مصانع أبو كوف فى بطرسبرج فى عام ١٩٠١ كتب لينين يقول : « نعم ، نحن نبتهج لهذه النزاعات ونستمد منها التشجيع ، لأن الطبقـــة العاملة تثبت بمقاومتها أنها غير راضية عن وضعها ، وأنها ترفض أن تظل فى أسر العبودية أو أن تخضع فى خنوع للعنف والاستبداد » (٢) ، ثم يضيف **« ان الطبقة العاملة تفضل الموت وهى تقاتل ، عن ان تموت فى بطء كما يموت الفرس الذى يجلد بالسياط »** .

ويقول لينين انه من الواضح أن المواطنين العاديين ما زالوا يغطون فى سباتهم نائمين ، ولكن نومهم ليس عميقا ، وبحيث يمـــكن حتى لأصـــغر الاحداث أن توقظهم وأن تثيرهم . ويفسر هذه الوحدة بين الاضداد عند شرحه للأحداث التى سبقت ثورة ١٩٠٥ فيقول و « ولكن الجماهير الواسعة كانت لا تزال ساذجة الى أقصى حد ، ومزاجها سلبى الى أقصى حد ، ولينة العريكة الى أقصى حد ، ومسيحية الى أقصى حد . ولكنها تفجرت بالغضب على وجه السرعة ، وكان الممكن لأى اجراء ظالم ، أو تعسف زائد من جانب الضباط ، أو نقص فى الطعام ، الخ ، أن يؤدى الى التمرد » (٣) . وكان هذا الغضب السريع هو أول ما لفت نظر لينين عندما راقب أحداث عام ١٩٠٥ بشـــكل

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٣١٠ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٣ ، ص ٢٤٥ .

مباشر وعن كثب ، « ان الانتخابات الزائفة لن تثير الجماهير بأى حال . أما الاضراب ، أو المظاهرة ، أو التمرد فى صفوف القوات المسلحة ، أو الهبة الطلابية الجادة ، أو المجاعة أو التعبئة ، أو النزاع داخل الدولة ، الخ .. الخ ، فيمكنها حقا أن توقظ الجماهير وتثيرها ، بشكل دائم ، وفى أى ساعة » (١) .

ولم تكن كل هذه الا جزئيات تلاحمت واندمجت فى الوقت المناسب لتتحول الى هجوم واسع موحد من جانب جميع قوى الاحتجاج فى المجتمع ضد الملكية والنظام القائم .

وبالرغم من الثقة الساذجة فى القيصر والنظرة الاجتماعية البدائية ، كان لينين يؤكد الأهمية الفائقة « للغريزة الثورية التى تؤكد نفسها الآن بين البروليتاريا » ، و « احتجاج » هذه الطبقة و « طاقتها » التى تكتسح سدود الشرطة وتتجاوز عدم نضج وتخلف بعض القادة (٢) .

ويتحدث لينين عن اكتساح مماثل للعادات والتقاليد أثناء الحرب العالمية الاولى بين « الملايين من أشباه البروليتاريين وأبناء البورجوازية الصغيرة ، الذين تخدعهم الشوفينية الآن ، **ولكن ويلات الحرب لا ترعبهم وتحبطهم فحسب ، وانما تعمل أيضا على تثويرهم ، وتعليمهم ، وايقاظهم من سباتهم ، وتنظيمهم ، وتهبهم الصلابة ، وتعدهم للحرب ضد بورجوازية بلدهم وضد بورجوازية البلدان الاجنبية** » (٣) . وفى عام ١٩١٧ كان لينين على درجة أعمق من اليقين والثقة ، « ان الشعب الروسى — الذى طالما أريقت دماؤه دون أن يتذمر ، ونفذ ارادة الحكومة الاستبدادية فى وقت كان

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ٣٦٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٩٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٤٠ .

يجهل فيه أهدافها ومراميهــا كل الجهل — أن هذا الشعب ، وبلا أدنى شك ، سوف يقاتل من أجل الاشتراكيه ، وسوف يبدى فى هذا القتال شجاعة اكبر وحماسا أشد (١).

بقيت نقطتان :

فماذا يكمن وراء ثقة لينين فى أن الاحتجاج والسخط ، وهما طـــاقة المقاومة ، سيندمجان فى خاتمة المطاف ؟ أولا وقبـــل أى شىء آخـــر ، أن البروليتاريا هى الطبقة التى تتمثل رسالتها التاريخية موضوعيا ، ليس فقط فى أن تحرر نفسها ، وانما فى أن تحرر الجماهير العاملة كلها والمجتمع ، أيضا ، من الاستغلال والتناقض ، وثانيا ، كان لينين يؤمن بأن خبرة الطبقة العاملة تعتمد على خبرة الحركة الثورية العالمية . فالطبقة العاملة تحتاج الى خبرات ، « والبروليتاريون فى كل بلد من البلدان يحتاجون ، الى خبـــرات النضال العالمى للبروليتاريا . ونحن نحتاج الى خبرة منظرى الاشتراكية الديموقراطية العالمية حتى نتمكن من فهم برنامج حزبنا وتكتيكه على النحو السليم . ولكن هذه الخبرة لا علاقة لها — بالطبع — بالخبرات الرسمية للعلم البورجوازى ، أو السياسة البوليسية » (٢) .

وأخيرا ، يجب أن نوضح أن لينين لم يكن يضع سيكولوجية الطبقات الدنيا وحدها نصب عينيه ، وانما سيكولوجية الطبقات العليا أيضا . فتجمع كل جزئيات الاحتجاج والسخط عند أحد القطبين الاجتمـــاعيين ، كـــان يعنى فى نفس الوقت تنامى مشاعر مضادة عند القطب الآخر . ولنقرأ ماذا يقول فى هذا الصدد : « يجب أن نعترف ، بشكل عام ، بأن رجعيينا (بما فى ذلك الفئة البيروقراطية العليا كلها بالطبع) ينمون عن غريزة سياسية رائعة ، وبلغت بهم الخبرة فى محاربة المعارضة ، والهبات الشعبية ، والطـــوائف

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٣٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١١ ، ص ٤١٢ — ٤١٣ .

الدينية ، والعصاة ، والثوريين ، الحد الذى اصبحوا معه دائما على اعلى درجات اليقظة ، وهم يفهمون اكثر من اى ابله ساذج او محافظ شريف ، ان الاوتوقراطية لا يمكن باى حال ان تقنع بالاعتماد على النفس ، والشرف ، والقناعات المستقلة ، والاعتزاز بالمعرفة الحقة ايا كان نوعها . ولقد تشربوا تماما بروح الخضوع الذليل وعبادة المناصب السائدة فى الهـرم الوظيفى الروسى الى الدرجة التى اصبحوا يزدرون ويحتقرون معها اى شخص على غير شاكلة اكاكى اكاكيفتش كما يصوره جوجول فى كتاباته ، أو على شاكلة

غير شاكلة اكاكى اكاكيفتش كما يصوره جوجول فى كتاباته ، او على شاكلة

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

٥ — من الثورة الروسية الأولى الى الثورة الثانية

اذا رتبنا ملاحظات لينين حول السيكولوجية الاجتماعية وفقا لتسلسلها الزمنى لوجدنا أنها تتركز — من حيث الكم — حول فترتين هما ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، والفترة الممتدة من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٢ . وفى هاتين الفترتين تفحص لينين بكل دقه الجوانب الذاتية والجوهرية فى حياة الجماهير والطبقات. وكما سبق ان رأينا ، فبالرغم من أن لينين لم يكن من علماء النفس المحترفين ، الا أنه كان عالم نفس بحكم وضعه كسياسى وثورى . وكان من الطبيعى أن تصبح بصيرته السيكولوجية أكثر حدة فى الاوقات التى تتخذ فيها مهمة الثورة شكلا ماديا محددا .

والقضية هنا ليست مجرد تزايد اهتمام لينين بالجوانب السيكولوجية للثورة فى تلك الأوقات ، وانما هى ايمانه ، وهو ايمان أكدته الحقائق والأحداث ، بأن **الثورات تصاحبها دائما تغيرات مثيرة فى الحالة النفسية للأفراد ، والمجموعات ، وجماهير الشعب بأسرها** . وفى هذه الأوقات يتعين على الثورى الجدير حقا بهذا الاسم أن يولى اهتمامه للجوانب السيكولوجية أكثر من أى وقت . ويفسر لينين ذلك فيقول : « وكل ثورة تعنى تحولا حادا فى حياة عدد هائل من الناس ... وكما يتعلم الفرد من أى تحول فى حياته الشيء الكثير ، ويحصل على خبرات غنية وقدر كبير من النضج العاطفى ، فكذلك تعلم الثورة الشعب بأسره دروسا غنية عظيمة القيمة خلال فترة وجيزة من الزمن . ففى أثناء الثورة ، يتعلم الملايين وعشرات الملايين من الناس فى اسبوع واحد أكثر مما يتعلمون فى عام كامل من الحياة العادية الخاملة » (١) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ٢٢٥ .

كتب لينين ذلك فى عام ١٩١٧ ، ولكنه كتب نفس الشيء وكان يشعر به عندما بلغت ثورة ١٩٠٥ ذروتها : « فى تاريخ الثورات ، تخرج الى دائرة الضوء تناقضات ظلت تنضج على امتداد عشرات ومئات السنين . وتصبح الحياة مفعمة بالأحداث لدرجة غير عادية ، وتدخل الجماهير ، التى وقفت دائما فى الظل — ومن ثم كان كثيرا ما يتم تجاهلها بل وحتى ازدراؤها والاستخفاف بها من جانب المراقبين السطحيين — تدخل الساحة السياسية كمقاتل ايجابى نشط . أن هذه الجماهير تتعلم الآن فى مجرى الممارسة العمليه ، وهاهى تخطو خطواتها الأولى المترددة تحت بصر العالم كله ، وتتحسس طريقها ، وتحدد أهدافها ، وتختبر نفسها وتضع نظريات جميع الايديولوجيين فى محك التجربة . وها هى ذى هذه الجماهير تبذل جهودا بطولية من أجل أن ترتفع الى مستوى الأحداث ، ومن أجل التصدى للمهام الضخمة ذات المغزى العالمى التى يفرضها التاريخ عليها ، **ومهما كانت فداحة الهزائم الفردية ، ومهما أنهكتنا أنهار الدم وآلاف الضحايا ، فلن يكون هناك ابدا ما يمكن مقارنته فى أهميته بهذا التدريب المباشر الذى تحصل عليه الجماهير والطبقات فى مجرى النضال الثورى نفسه » (١)** .

واليكم فقرة أخرى من تقرير كتبه لينين فى عام ١٩١٧ حول ثورة ١٩٠٥ ، يكشف عن الطاقة الكامنه فى البروليتاريا : « فى الحقبة الثورية ... **يمكن** للبروليتاريا أن تولد من الطاقة القتالية **ما يزيد مائة مرة** عما تولده فى **الأوقات** العادية السلمية . وتبين لنا هذه الحقبة أن البشرية ، حتى عام ١٩٠٥ ، لم تكن تعرف بعد مدى ما عليه البروليتاريا من قدرة فائقة على البذل والعطاء ، وانها سوف تتمكن من القتال من أجل أهداف عظيمة حقا ، وانها ستخوض هذا القتال بطريقة ثورية حقا » (٢) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٣ ، ص ٢٤٠ .

هذه هى بعض آراء لينين حول السيكولوجية الاجتماعية فى الفترة الممتدة من ١٩٠٥ حتى ١٩٠٧ ، وانها لتشهد على مدى التزايد الحاد لاهتمامه بهذا الجانب من حياة المجتمع .

ولكن فلننتقل الآن الى عرض بعض الملاحظات الاضافية المتعلقة بانهيار الثقة فى القيصر . كان لينين يؤمن ، بأن ما تبقى من ثقة طفولية فى القيصر سوف يتبدد فى نفس اللحظة التى تتفجر فيها الطاقة الثورية للطبقة العاملة لتعصف بمكائد الشرطة وحيلها (١) . « ان جيلا بعد جيل من الحياة البعيدة عن الحضارة فى الريف ، تحت نير الاضطهاد ، وفى عزلة كاملة عن العالم ، ظلت تعمل على تدعيم هذه الثقة ، أما الآن ، فكل شهر من الحياة فى روسيا الجديدة ، روسيا المدنية ، روسيا الصناعية التى تعرف القراءة والكتابة ، يعمل على تقويض وتدمير هذه الثقة » (٢) .

ونتيجة لذلك « انتجت السنوات العشر التى سبقت الثورة عدة آلاف من الاشتراكيين الديموقراطيين الذين تخلوا عن هذه الثقة عن وعى .

وعلمت عشرات الآلاف من العمال الذين مزقت غريزتهم الطبقية — التى تدعمت فى مجرى حركة الاضرابات وزادتها الاثارة السياسية عمقا — كيف تقتلع هذه الثقة من جذورها»(٣).ومن هنا تنبع التوقعات والتنبؤات المضادة : « فجماهير العمال والفلاحين التى لا تزال تحتفظ ببعض آثار الثقة فى القيصرية ، لم تكن على استعداد للهبة الثورية ، كما قلنا . أما بعد ٩ يناير فلنا الحق فى أن نقول الآن انها على استعداد للهبة ، وانها سوف تنهض » (٤) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ١٠٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٢ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق ، ص ١١٣ .

ويقول لينين فى عام ١٩٠٥ : « وليس البارومتر وحده هو الذى ينبىء بمقدم العاصفة ، أن كل شىء يترنح الآن ويغير موقعه تحت لفح العاصفة التى يثيرها الهجوم البروليتارى المحكم » (١) . ويالها من تغيرات شديدة العمق تلك التى تحققت فى هذه الفترة القصيرة من العاصفة ، وما أكثر ما تبدد من أوهام ، وما أوفر السمات النفسية الجديدة التى تبلورت وعبرت عن نفسها بوضوح : « فالبورجوازية وكبار ملاك الأرض يتحولون الى وحوش ضارية ، والضجر والارهاق يخيم على رجل الشارع . والمثقف الروسى يترنح بين براثن الجزع واليأس . وحزب المتبجحين والخونة اللبراليين ، حرب الكاديت ، يطل برأسه يحدوه الامل فى استثمار ما أفضت اليه الثورة من انهاك . . . **ولكن هناك فى القاع ، فى أعماق الجماهير البروليتارية ، وبين جماهير الكتلة الفلاحية المعدمة التى تواجه الموت جوعا ، تشق الثورة طريقها ، فى هدوء وأناة ، وهى تقوض الاساس خطوة خطوة ، وعلى نحو قد لا تدركه احاسيسنا على الفور ، لتوقظ اكثر الناس استسلاما ، للنوم على هزيم رعود الحرب الاهلية » (٢) .**

ثم كانت اليد العليا للثورة المضادة . وجاءت سنوات الردة وسيطرة الرجعية . ويتقلص عدد ملاحظات لينين حول السيكولوجية الاجتماعية . ولكن ها هو يكتب فى عام ١٩٠٨ ، وبالتفصيل ، ولاول مرة ، عن البورجوازية الصغيرة ، وعن تلك العناصر التى تحاول استثمار الظرف الجديد تحقيقا لمآربها الخاصة : « واليوم ، فى ظل الثورة المضادة وما تمارسه من قهر بشع ، **تتكيف العناصر التى تستغل الظروف تحقيقا لمآربها الخاصة مع الأوضاع فى جبن وخزى ، وتسوى أمورها مع السادة الجدد ، وتتودد للخلفاء الجدد ، وتعلن تخليها عن الماضى الذى تحاول ان تنساه » (٣) .**

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٦ ، ص ٣٩٢ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٢ ، ص ١١٤ — ١١٥ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٥٠ — ٥١ .

ولكن لينين يدرك أن هذه الظواهر ظواهر سطحية ، لانه لا يمكن لشيء على الأرض ان يبدل مسار التغيرات الروحية الناجمة عن الثورة . انهـا تغيرات لا سبيل الى الغائها ، وهى فى قلب وفى عقول الملايين من الناس ، وسوف تتفجر معلنة عن نفسها عاجلا أو آجلا ، تماما كما تشق الأرض بذور الشتاء .

وتعميقا لرايه وتفسيرا له ، يتحدث لينين عن التغيرات النفسية المشابهة التى نتجت عن تجربة كوميون باريس فى عام ١٨٧١ : « ان ملحمة حياتها وموتها ، ورؤية الحكومة العمالية رؤى العين وقد تجسدت حقيقة واقعة تسيطر على عاصمة العالم ، وتحافظ على سلطتها لمدة تزيد عن شهرين ، ومشهد النضال البطولى للبروليتاريا وما حاق بها من أهوال بعد هزيمتها — أن كل ذلك لم يتخمض الا عن رفع معنويات الملايين من العمال ، واحياء آمالهم ، وضمان تعاطفهم مع قضية الاشتراكية . **وعلى دوى طلقات المدافع فى باريس ، استيقظت اكثر قطاعات البروليتاريا تخلفا من سباتها العميق ، وأخذت تساهم فى كل مكان فى انتشار الدعاية الاشتراكية الثورية . »** (١)

وكان لأحداث ديسمبر ١٩٠٥ أيضا من الآثار ما يستحيل لأى ردة أو حكم رجعى أن تقتلعه تماما . وكما يقول لينين ، كانت مأثرة عمال موسكو مثالا لا ينسى بالنسبة للجماهير ، « وبها بدأ التخمر العميق بين الجماهير العاملة فى المدينة والريف ، وهو تخمر لم تذبل آثاره فى أى وقت من الأوقات رغم كل أنواع المطاردة والقهر والاضطهاد . **وبعد أحداث ديسمبر لم يعد الشعب هو نفس الشعب . انه الآن شعب ولد من جديد »** (٢) .

واستنادا الى كل ذلك ، ابدى لينين بعض الملاحظات ، فى بداية المرحلة الثانية عن المد الثورى ، حول عدد من السمات السيكولوجية بين العمال ، رغم ما كانت عليه من غموض فى ذلك الحين . فمنذ عام ١٩١٠ ، بدأت بوادر النشاط مع تعاقب الاضرابات الاقتصادية والسياسية ، وتشابك وتلاحم

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٧ ، ص ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٨ ، ص ٣٧٣ .

صفوف البروليتاريا . « ها هي البروليتاريا بدأت . وما زال الشباب الديموقراطي يواصل . والشعب الروسي يهب للنضال الجديد ، متقدما نحو ثورة جديدة . وان البداية الأولى للنضال لتؤكد لنا أن القوى التي هزت النظام القيصري في عام ١٩٠٥ ، ما زالت حية » (١) .

وحقا « كم كانت هذه الفترة غريبة في جوانبها السيكولوجية » ففي غيبة النضال السافر ، أبدت الجماهير رغبتها في المعرفة النظرية العامة (٢) .

وجنبا الى جنب مع تزايد نشاطه الثوري ، نجد اهتمام لينين يتزايد أيضا بالعمليات السيكولوجية الجارية في مختلف فئات الطبقة العاملة ، وبين الفلاحين وغيرهم من المجموعات الاجتماعية ، وفي خاتمة المطاف ، فهذا التصاعد في المشاعر الثورية هو الذي أفضى الى ثورة أكتوبر .

ويتنبأ لينين بمقدم الثورة الثانية التي كشفت منذ عام ١٩١٣ عن رصيد من القدرات الثورية الكامنة للبروليتاريا أكبر مما كشفت عنه الثورة الأولى . ولكن هذا الانبعاث لم يتحقق من أعلى ، رغم تنامي الوعي الطبقي للطبقة العاملة وطليعتها الحزب ، وتعمق تجربتها واكتسابها المزيد من العزيمة والصلابة . يقول لينين : « في بلادنا ، يتحقق هذا البعث تلقائيا ، لان عشرات الملايين من السكان من أشباه البروليتاريا والفلاحين ، ينقلون الى طليعتهم — ان جاز هذا التعبير — احساسا بالسخط المركز ، والذي يتكثف يوما بعد يوم وتتلاطم أمواجه » (٢) . ولنتصور مشهد عمال مضربين خرجوا في مظاهرة في عام ١٩١٢ ، والعلم الأحمر يرفرف خفاقا في شوارع العاصمة ، والخطب والشعارات الثورية تهدر بين الجموع الحاشدة . **ان مثل هذا الاضراب — كما يقول لينين — لا يمكن ان يكون من تحريض أحد ، ولا يمكن**

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٦ ، ص ٣٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٧ ، ص ٣٥ .

وقفه عندما يجتذب مئات ومئات الآلاف من الناس ، ولكن مثل هذا الاضراب ليس الا مجرد وسيلة لاثارة وجذب مشاعر الاحتجاج والسخط فى جميع انحاء الريف المترامى الأطراف . يقول لينين : « ومن الجوانب الجوهرية ، ان يجد الاستياء الكامن والتذمر المكبوت فى الريف ، جنبا الى جنب مع السخط فى تكتلات الجنود ، **مركزا للجذب** فى الاضرابات الثورية للعمال »(١) .

وننتقل الآن الى التغيرات التى طرأت على سيكولوجية الجماهير نتيجة الحرب العالمية الاولى فى روسيا وفى الخارج . وأول ما نسجله هــو أن البروليتاريا همدت الى حين تحت تأثير الشوفينية البورجوازية ، ولكن الحرب — على وجه العموم — تكبح انبثاق المشاعر الثورية وتدفقها .

ثم جاء عام ١٩١٧ ، عندما **بلغ المد الثورى الحد الذى تحول معه الى ازمة ثورية** . ومرة أخرى نجد اللوحة السيكولوجية بين يدى لينين تمتلىء بفيض من الألوان . وكان من اهم الحقائق التى شدت انتباهه هى انتقال « كتلة كبيرة متقلبة ومترددة » (٢) تتكون من الفلاحين لدرجة أو اخرى ، من معسكر الى معسكر ، انها تنجذب تارة نحو اليمين ، وتــارة اخــرى نحو اليسار . وفى أوائل عام ١٩١٧ ، كان مسلك هذه الكتلة ممثلة فى الجنــود هو « التحول **بعيدا عن** الرأسماليين **فى اتجاه** العمال الثوريين . وكان تحول هذه الــكتلة أو حركتها ، والتى بلغت من القوة ماجعل منها عنصرا **حاسما** ، هو السبب فى نشوب **الأزمة** (٢) .

و « الازمة الثورية » أو « الوضع الثورى » مفهوم على درجة قصوى من الأهمية فى التراث الذى خلفه لينين فى مجال علم النفس الاجتماعى . وقد انتج تعاليمه عن الوضع الثورى — كجزء من « علم الثورة » — فى الفترة

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٨ ، ص ٤٧٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧٧ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٤ ، ص ٣١٤ .

الممتدة بين الثورتين . ورغم ورود اغلب الافكار الاولية فى المقالات التى يرجع تاريخها الى الفترة من ١٩٠٥ حتى ١٩٠٧ ، الا انه اعاد صياغتها على نحو اكثر احكاما وبراعة فى عام ١٩١٣ فى « ماذا قدمت البروليتاريا الثورية فى يوم مايو » وفى « الدوما تنفض والليبراليون يصيبهم الارتباك » ، ثم فى « انهيار الدولية الثانية » فى عام ١٩١٥ ، ثم فى « الشيوعية اليسارية — عبث اطفال » فيما بعد (١٩٢٠) .

ولكن مايعنينا هنا هو ذلك الجانب من مفهوم الوضع الثورى الذى يضع يدنا على دور لينين فيمايتعلق بسيكولوجية الجماهيرومزاجها وسلوكها العملى. وكان لينين يرى ان **تحول الجماهير من حالة السلبية الى حالة السخط النشط والتمرد،هو احد العوامل الاكثر اهمية التى تساهم فى تشكيل الوضع الثورى.** ويأتى هذا التحول فى كتاباته فى عام ١٩١٥ فى المرتبة الثانية والثالثة من سمات الوضع الثورى »(٢) ، عندما تبلغ معاناة الطبقات المقهورة وعوزها درجة حادة اكثر من المعتاد ، (٢) وعندما تتحقق ، نتيجة للاسباب المذكورة فيما سبق ، زيادة ملموسة فى نشاط الجماهير ، التى تستكين للنهب والحرمان من الحقوق فى وقت السلم ، دون ان تشكو ، ولكن ملابسات الأزمة ، والطبقات العليا نفسها ، تجذبها جذبا الى العمل التاريخى المستقل فى اوقات الاضطراب والهياج » (١) .

وترتبط ازمة « الطبقات العليا » بالسيكولوجية الاجتماعية لأنها تحدث شرخا « لينفذ من خلاله سخط الطبقات المتهورة وتذمرها » (٢) . ويلخص لينين فى خاتمة مقاله « اول مايو والحرب » (١٩١٥) جوهر الوضع الثورى على النحو الآتى :

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٢١٣ .

« (أ) الطبقات الدنيا لاتريد ، والطبقات العليا لا تستطيع

(ب) تفاقم المعاناة .

(جـ) نشاط غير عادي » (١) .

وكما سبق أن قلنا ، فالتعاليم الأخيرة التى صاغها لينين حول الوضع الثورى تستمد أصولها من كتاباته منذ عام ١٩٠٤ ، كما نلمس من الفقرة المركزية الآتية : يتعين على حزب البروليتاريا « أن يبدأ الهبة فى اللحظة التى **تكون فيها الحكومة فى أقصى درجات التوتر اليائس ، وعندما يكون السخط الشعبى فى ذروته** (٢) . وهكذا يتبدى لنا الجانب السيكولوجى بكل وضوح وجلاء . وفى عام ١٩٠٥ يقول لينين ان الشعارات التى تدعو الى الهبة تظل سابقة لأوانها اذا لم تتوفر أى دلائل تشير الى وجود الأزمة و « الى ان تبدى الجماهير بشكل قاطع ما يؤكد انها استيقظت وانها على استعداد للعمل (٣) .

وبعد ذلك بوقت طويل ، وبعد أن أتم صياغته لتعاليمه عن الأوضاع الثورية ، يقدم لينين الصورة التالية لذلك الجانب من نشأة الوضع الثورى بعد احداث يناير ١٩٠٥ :

« وفى خلال بضعة أشهر ... تغيرت الصورة تماما . وتحول المئات من الاشتراكيين الديموقراطيين ، **فجأة** ، الى آلاف ، وأصبح الآلاف قادة لما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين من البروليتاريين ، وأدى النضال البروليتارى الى تخمر واسع النطاق ، بل والى حركات ثورية بين الفلاحين ، شارك فيها ما يتراوح بين خمسين ومائة مليون فلاح . ووجدت الحركة الفلاحية أصداء لها فى الجيش ، وافضت الى انفجارات ثورية للجنود ، والى وقوع الصدامات المسلحة بين بعض الفرق . وعلى هذا النحو دخلت بلاد

---

(١) ف.ا. لينين ، الطبعة الروسية الخامسة ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٧٩ .

(٢) ف. ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٨ ، ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ٣٦٩ .

متراميه الأطراف ، يبلغ تعدادها ۱۳۰٫۰۰۰٫۰۰۰ ، معترك الثورة . وعلى هذا النحو تحولت روسيا التي تغط في سباتها العميق الى روسيا البروليتاريا الثورية والشعب الثوري »(١) .

وفي عام ١٩١٥ ، درس لينين نشأة الوضع الثوري الجديد فأشار الى العوامل الاجتماعية النفسية التالية : « ان السخط المكبوت لدى الجماهير ، والتطلع الغامض لدى الفئات المقهورة والجاهلة الى سلام (ديموقراطي) يخلصها مما تعانيه من ويلات ، وبداية الاستياء بين الطبقات الدنيا » — ان كل هذه عوامل . فتجربة الحرب ، شأنها شأن أي أزمة في التاريخ ، أو أي كارثة كبرى ، أو أي تحول مباغت في الحياة الانسانية ، تصدم بعض الناس وتحطمهم ، **ولكنها تهب البعض الآخر الاستنارة والصلابة والاقدام** » (٢) .

ونأتي الآن الى عام ١٩١٧ ، بكل ماله من أهمية ومغزى بالنسبة للعالم كله . يقول لينين : « والوضع الثوري في أوروبا أمر واقع ، والسخط الذي بلغ أقصاه وقلق الجماهير وغضبها أمر واقع أيضا . ويجب على الاشتراكيين الديموقراطيين أن يركزوا كل جهودهم على تقوية **هذا** السيل المتدفق » (٣) . ويلخص لينين في « رسالة الى الرفاق » ما يعرفه عن مشاعر الجماهير فيقول : « ان **الجميع** يذكرون في تقاريرهم أن مزاج الجماهير متوتر ومترقب ، **ويجمعون** على أن العمال ساخطين اشد السخط نتيجة لتردد المراكز فيما يتعلق **بالنضال الحاسم الأخير** .. كما يجمعون على وصف مزاج الجماهير الواسعة بأنه أقرب الى اليأس » ، (٤) ثم يلخص الموقف كله في كلمتين : « **كفى ترددا** » (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٣ ، ص ٢٣٨ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ٢١٥ — ٢١٦ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٣ ، ص ٢٧٠ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٠٩ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ١١٠ .

هذا هو الجانب السيكولوجى للعملية السياسية التى تجرى فى ظل تنامى السريع للجماهير النشطة ، واتساع دائرة نشاطها . واليكم ما يقوله نين فى هذا الصدد : « ومن السمات المميزة لأى ثورة حقيقية ، تلك الزيادة لسريعة ، بمعدل عشر مرات أو ربما مائة مرة ، فى حجم الجماهير العاملة المقهورة ، والتى كانت لا تزال تغط فى سلبياتها حتى الآن ، والتى تستطيع ن تخوض النضال السياسى » (١) . ويقول فى موضع آخر : « **ان الثورة لا تتحقق بأمر يصدر ، وانما تنتج من تفجر سخط الجماهير** » (٢)

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ، المجلد ٢٦ ، ص ٣٢٥ .

٦ ـ الظواهر السيكولوجية فى أعقاب الثورة ، وما تطرحه من مهام

يحق لنا ان نقول اننا نرى عالم النفس فى لينين على نحو أكثر وضوحا فى المرحلة التى أعقبت الثورة ، فهاهى التوجهات الأساسية تتغير : قبل الثورة ، لم يكن هناك أى جدوى من التفكير فى التحويل الشامل للانسان وكان اقصى ما يمكن أن نتوقعه من النضال الثورى هو أن يعيد تعليم الانسان وأن يغير شكله الخارجى . أما بعد الثورة ، فتتوفر الظروف بالفعل لأن يتحول القضاء على الميراث الراسمالى المترسب فى التركيب النفسى للجماهير الى مسألة عملية ، مهما كانت عسيرة ، ومهما تطلبت من وقت .

قبل ثورة أكتوبر ببضعة ايام ، طرح لينين فكرة كان من المتعذر تصور ورودها فى كتاباته السابقة : « ان الحزب لا يمكن أن ينقاد لمزاج الجماهير ؛ لأنه مزاج متقلب ولا يمكن التنبؤ به ، وانما يتعين على الحزب أن يسترشد بالتحليل والتقييم الموضوعى للثورة . ان الجماهير تولى ثقتها للبلاشفة ، وتريد منهم افعالا لا أقوالا » (١) . نعم ، ان لينين يحدد ، عشية الاستيلاء على السلطة ، العنصر الهام الوحيد ، والذى تتلاشى الى جانبه كافة العناصر الأخرى ، وهو أن الشعب وضع ثقته فى البلاشفة . وكان من المحتم ان تتحقق الثورة الاشتراكية . **وفى اليوم التالى للثورة ، كان لابد ان تختلف جميع** المهام السيكولوجية اختلافا جوهريا عما كانت عليه قبل الثورة ، بل وأن تكون على نقيض **ما كانت عليه ، بمعنى معين** . ولا شك أن لينين كان يدرك أن هذا « التحول من الهجوم التاريخى الى الابداع التاريخى الجديد » (٢) ، هذا التحول من الحماس الذى يتركز حول المهام الثورية الى الحماس الخلاق الذى يتركز حول بناء الحياة الجديدة ، لن يكون بالتحول السريع . ولكن مهما يكن من امر ، فهو يفتح فصلا جديدا فى علم النفس الاجتماعى اللينينى .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
(٢) المرجع السابق المجلد ٢٧ ، ص ٢١٠ .

والمهمة الاساسية من الآن فصاعدا هي المحافظة على السلطة . وقبل الثورة ، كان الاستيلاء على السلطة هو حجر الزاوية في السيكولوجية الثورية للجماهير ، اما الآن فالشعار اللينيني هو المحافظة على هذه السلطة ، يقول لينين في عام ١٩٢٠ : « لقد عانى » العمال والفلاحين وجنود الجيش الأحمر « في هذه السنوات الثلاث اكثر مما عانى العمال في السنوات الأولى للعبودية الرأسمالية ، تحملوا الصقيع والجوع والمعاناة ، وكل ذلك من اجل المحافظة على السلطة » (١) . وتنبأ لينين بأن الجماهير سوف تبدى في المرحلة المبكرة من الثورة الوانا رائعة من البذل والتضحية ونكران الذات دفاعا عن الثورة : وفي مواجهة المصاعب المحدقة بالنظام السوفيتي . وكان من المحتم ان تختلف المجموعتان « نحن » و « هم » : فالمجموعة الأولى ترمز الآن لجميع الثوريين ولنظامهم الاجتماعي الجديد ، الذي يضاعف الثورة المعنوية للمجموعة ويثير فيها أعمق المشـــاعر . يقول لينين : « وسوف يكون الانتصـــار الى جانب المستغلين ، لأن الى جانبهم الحياة ، والقوة العددية ، قوة الجماهير ، قوة الينابيع التي لا تنضب لكل ما هو متجرد من الأنانية ، ومخلص ، وشريف ، وكل ما يحث الخطى الى الأمام ويهب لبناء الجـــديد ، وكل الاحتياطيات الهائلة من القدرات والطاقات الكامنة فيما يسمى « عامة الشعب » ، اى العمال والفلاحين ، ان الانتصار سيكون ملكا لهم » (٢) . حقا ان الثورة تصاعد من نشاطها هي الأخرى . ولكن ، كما يقول لينين : « مهما كان السخط والغضب عظيمين في بعض الدوائر . . . فهناك عملية بنائية تجرى في الأعماق بين الناس ، . تتراكم فيها الطاقة ويتأصل الانضباط ، وهي التي ستهبنا القدرة على الصمود في مواجهة اى ضربات » (٣) .

ويبدأ الميلاد السيكولوجي للانسان الجديد بالقتال دفاعا عن المواقع التي تم الاستيلاء عليها في الثورة ،يبدأ اولا « بالشجاعة والثبات اللذين يحققان

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٤٠١ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٤٠٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ١٦٧ .

المعجزات » من جانب العمال والفلاحين المسلحين فى الحرب الأهلية ، والتى تضاعف منها البطوله ، وما هو اكثر من البطولة ، من جانب الجماهير على الجبهة الداخلية ، والتى يتحقق فى اعقابها التحول العميق فى الوعى . ويقول لينين فى عام ١٩١٩ فى كتابه الخالد « بداية عظيمة » : « **ان بدء الثــورة هو الخطوة الاكثر صعوبة ، والاكثر واقعية ، والاكثر جذرية ، والاكثر حسما من الاطاحة بالبورجوازية ، لانها هى الانتصار على ما فينا نحن من نزعات محافظة ، وعدم انضباط ، واتجاهات بورجوازية صغيرة ذاتية انانية ، لانها الانتصار على العادات التى خلفتها الراسمالية اللعينة كميراث للعامل والفــلاح** » (١) « ولن تستطيع الجمــاهير ، أى الكادحــين والمستغلين ، ككل ، أن تعبر ، لأول مرة فى التاريخ ، عن كل مالدى عشرات المــلايين من الناس الذين كانت الراسمالية تسحقهم من مبادرة وطاقة » (٢) ، الا بعد لاحاطة بالبورجوازية .

وكان الاحتفاظ بالسلطة يعنى التصدى للدمار الاقتصادى والمجاعة ، واستئناف الانتاج ، ودحر العــدو على أرض المعركة . ويشــير لينين فى « بداية عظيمة » الى ما يصفه بالحلقة المفرغة : فمن أجل التغلب عــلى المجاعة لابد من زيادة انتاجية العمل ، ويقول : « ونحن نعلم أن مثل هذه التناقضات لا تحل فى الممارسة العملية الا بتحطيم الحلقة المفرغة ، وبتحقيق تحول جذرى فى مزاج الشعب ، ومن خلال المبادرة البطولية لكل مجموعة على حدة من المجموعات التى كثيرا ما لعبت أدوارا حاسمة استنادا الى واقع مشابه لمثل هذا التحول الجذرى . وكان هذا على وجه التحديد هو نوع المبادرة التى تلم بها من شاركوا فى أيام السبت الشيوعية « بالرغم ممــا أصابهم به سوء التغذية من ارهاق ، وعذاب ، واستنفاد للطاقة » (٣) . وكان من الطبيعى ان ترفع حركة أيام السبت الشيوعية من مكانة العمال فى

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٤١١ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ١٨٨ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .

أعين الفلاحين ومن مكانة أعضاء الحزب بين الجماهير غير الحزبية (١) -. وقبل كتابة « بداية عظيمة » بوقت طويل ، تنبأ لينين بما سيتحقق من تحول فى سيكولوجية العمل ، وذلك أثناء تحليله للعقلية التى ورثها العامل المستغل من الماضى ، يقول لينين « من الطبيعى ان يتركز كل اهتمامه ، وأن تتركز كل أفكاره ، وكل قوته الروحية ، لفترة معينة ، على ان يلتقط أنفاسه ، وأن يكف عن الانحناء ، وأن يرفع رأسه ، **وان يغترف من طيبات الحياة التى أصبحت متاحة له ، والتى طالما حرمه منها المستغلون الذين تمت الاطاحة بهم** . وسوف يتطلب الأمر ، بالطبع ، شيئا من الوقت من أجل تمكين العامل العادى ، ليس فقط من أن يقتنع ، وانما أيضا من أن يشعر ، بأن موقفه لا يمكن أن يكون مجرد أخذ الأشياء ، أو انتزاعها واقتناصها ، وأن هذا الموقف لا يمكن أن يؤدى الا الى المزيد من التمزق ، والدمار ، والى عودة طغمة كورنيلوف . وأما التغير المقابل فى ظروف حياة العامل العادى (وبالتالى فى سيكولوجيته) فلم يبدأ الا لتوه » (٢) .

وبعبارة أخرى ، فالتغير السيكولوجى لن يتحقق الا مقترنا ببعض من الجهود البطولية التى تبذل من أجل منع الردة الى النظام الراسمالى البيروقراطى السابق ، وتعميق الادراك بأن الموقف الجديد من العمل هو المخرج الوحيد من المصاعب الاقتصادية . ويمضى لينين فى شرح وجهة نظره فيقول : « انضباط العمل ، والحماس أثناء أدائه ، والاستعداد للتضحية ونكران الذات والتحالف الوثيق بين الفلاحين والعمال : هذا هو ما سينقذ الجماهير العاملة من قهر كبار الملاك والراسماليين الى الأبد » (٣) . ويقول فى مقاله « المهام الفورية للحكومة السوفيتية » ، الذى يطرح فيه العديد من الأفكار الخصبة حول سيكولوجية الجماهير : « فى بلد أغلبيته من صغار

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٢٧٠ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٢٥١ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٣٠ ، ص ٢٠٢ .

الفلاحين ، ولم يطح بالعنصرية الا منذ عام واحد فقط ، ولم يتحرر من طغمة كيرنسكى الا منذ ما يقل عن سبعة اشهر فحسب ، من الطبيعى أن يظل هناك قدر غير قليل من الفوضوية التلقائية ، والتى تزداد حدة نتيجة لما يصاحب اى حرب رجعية طويلة من اهوال ووحشية ، وأن ينشأ قدر كبير من اليأس والمرارة التى لا تعرف اين الطريق » . ومن هنا تنبع ضرورة الجهود الدورية والمتصلة من جانب العمال والفلاحين المتقدمين سياسيا ، من أجل تحقيق التغيير الكامل فى مزاج الجماهير ودفعها الى الطريق الصحيح للعمل المستقر والمنضبط » (١) . ثم يواصل شرحه فيقول : « يجب ان نتعلم كيف نربط بين ديموقراطية الاجتماع العام للجماهير العاملة ، بكل ضجيجه وصخبه وأمواجه المتلاطمة التى تصفق ضفافه كالفيضان الهادر ، وبين الانضباط الحديدى اثناء العمل ، مع **الطاعة التى لاجدال حولها** لارادة الفرد الواحد ، القائد السوفيتى ، اثناء العمل » (٢) .

وهناك المزيد من الأفكار المتعلقة بتغير سيكولوجية العمل نلتقى بها فى النسخة الأصلية من « المهام الفورية للحكومة السوفيتية » . فاولا ، يتحدث لينين عن سيكولوجية العمل فى ظل القهر الراسمالى فيقول : « ان هذا يخلق حتما بين الجماهير العاملة سيكولوجية لا تؤدى الى عدم الامتعاض امام مظاهر التسيب والى التهرب فحسب ، بل وتؤدى على العكس من ذلك ، الى أن ترى الجماهير العاملة أن هذا السلوك هو الاحتجاج المحتوم والمشروع وأنه وسيلة لمقاومة الاعباء الباهظة التى يفرضها المستغلون » (٣) . والاكتئاب والاحباط وما يتبعهما من تحلل تنظيمى ، من الحقائق المفهومة والحتمية بين أناس مزقتهم الحرب واستنفدت كل طاقتهم . ثم يضيف ان عقد الآمال على تحقيق تغير سريع فى الروح المعنوية استنادا الى عدة مراسيم

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٢٤٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٤٢ ، ص ٨٣ .

تصدرها الحكومة « سيعادل فى سخفه اللجوء الى توجيه النداءات من اجل اعادة البهجة والحماس لرجل يضرب حتى اوشك على الموت » . وفى نفس الوقت ، يرى لينين أن الحكومة السوفيتية ، التى أقامتها الجماهير العاملة ، والتى تضع فى اعتبارها « اى بادرة لعودة الروح الى الجماهير » سوف تتمكن من تغيير سيكولوجيتها تغييرا جذريا » (١) . ويضيف لينين ان عقلية المالك الصغير التى تتمثل فى موقف « انتزاع اقصى ما يمكنك أن تنتزعه وفى موقف الويل لمن يقف منتظرا فى آخر الصف » ، لا زالت على درجة كبيرة من الحيوية، ومن ثم كان يلح على ضرورة « رفع هؤلاء الناس الى مستوى النشاط التاريخى » (٢) ، واعادة تشكيل عقليتهم بعد تخليصها من روح الملكية الخاصة .

وكان يؤكد دائما : « ان الجماهير ينبغى الا تدرك فحسب ، بل وان تشعر ايضا ، ان اختزال فترة الجوع والبرد والفقر يتوقف كلية على مدى سرعة انجازها لخططنا الاقتصادية » (٣) . كما كان يؤكد أيضا على ضرورة الربط بين الحماس (السياسى وأثناء العمل) وبين مبادىء الادارة والانضباط القائمة على المصلحة الشخصية . ويقول « اننا توقعنا ، فى بادىء الأمر ، ان يبدأ الانتاج اعتمادا على موجات الحماس الشعبى ، ولكننا أدركنا ان الحافز الشخصى أيضا يمكن أن يساعد على زيادة الانتاج » (٤) . فالحماس ، والدأب ، والبطولة ، ستظل آثارا باقية الى الابد ، ولقد لعبت دورها العظيم بالفعل ، وستظل الحركة العمالية العالمية تذكرها لاعوام قادمة ، ولكن حان الوقت الآن لمبادىء الادارة والتجارة (٥) . وعندما تكون القضية هى قيادة عشرات الملايين نحو الشيوعية ، فالسياسة السليمة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٣ — ٨٤ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٢٦٨ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٥١١ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ٣٨ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ١٠٤ و ١٧٢ — ١٧٣ .

هى ان نبنى الاقتصاد « ليس بالاعتماد على الحماس مباشرة ، وانما بالاستعانة بالحماس الذى فجرته الثورة الكبرى ، واستنادا الى المصلحة الشخصية ، والدافع الذاتى ، ومبادىء الادارة (١) .

ومهما يكن من أمر ، فليست البواعث الكامنة وراء الانتاجية وتكثيف العمل هى التى تعنينا وحدها هنا ، وانما يعنينا ايضا ما يجرى من تغير فى عقول الناس . يقول لينين : « وها نحن نصل الى لحظة الذروة فى ثورتنا ، لقد رفعنا الجماهير البروليتارية وجماهير الفلاحين الفقراء فى المناطق الريفية الى المستوى الذى تستطيع معه ان تتقدم لنا مساندتها عن وعى، ولم يحدث لثورة ان حققت ذلك من قبل » (٢) .

وتتجسد سيكولوجية « نحن » الجديدة جذريا ، والتى تولدت عن الثورة الشعبية الظافرة ، فى عديد من الأشكال . ففى عام ١٩١٩ ، يقول لينين ان الجماهير « لم تضرب المثل فى انجازها لواجبها فحسب ، وانما ضربت أيضا امثلة من البطولة الرائعة ، والحماس الثورى والتفانى والعطاء لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل » (٣) .

وفى عام ١٩١٧ كتب لينين وهو يتطلع الى المستقبل « والآن فقط توفرت الفرصة لكى تتبدى الجسارة ، والمنافسة ، والمبادرة الجريئة والجماهيرية حقا » (٤) . والمهام الجديدة تتطلب نوعية جديدة من الرجال . « ان ما نحن فى حاجة اليه هو عشرات الالوف من العمال المنتقين ، المتقدمين سياسيا ، المخلصين لقضية الاشتراكية ، والقادرين على اقامة سد حديدى ضد الكولاك والمرتزقة الذين ينتهزون الفرص للاثراء ومن يبتزون أموال الناس بالتهديد ، وضد الذين يقبلون الرشوة ، ودعاة التسيب والتحلل التنظيمى » (٥) . كما تنبأ لينين أيضا بالأهمية المتزايدة للاشكال المختلفة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٢ ، ص ٥٨ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٣٠ ، ص ٦٨ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٤٠٧ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٣٩٠ .

للمباراة فى ظل النظام الجديد للعلاقات الاجتماعية ، وخاصة علاقات العمل . وكان يرى ان المباراة تمثل فى وقت واحد شكلا من أشكال المبادرة ، ووسيلة لتطوير وتنمية انضباط العمل الجديد .

وكان يرى أن أهمية المباراة بالنسبة للسيكولوجية الاجتماعية تتمثل فيما تتيحه من فرصة أمام قوة المثال لتحقيق مالها من اثر ، وبعبارة أخرى ، فالقضية التى تعنينا هنا هى النمط السلوكى المتمثل فى احتذاء حذو المثل الطيب وادانة المثل الردىء . ويؤكد لينين فى « المهام الفورية للحكومة السوفيتية » أن الاشتراكية تفتح الطريق لأول مرة أمام المباراة على النطاق الجماهيرى حقا » ، ويوضح كيف ستحول المسئولية والعلنية التقارير البيروقراطية الميتة « الى أمثلة حية بعضها تنفر منه وبعضها يجذبنا اليه جذبا . والمثال لا يلعب الا دورا محدودا فى الحياة الاجتماعية فى ظل الرأسمالية ، أما عندما تستولى البروليتاريا على السلطة السياسية ، فيتغير هذا الوضع جذريا ، لأن « قوة المثال تتمكن لأول مرة من أن تؤثر على الناس » (٢) . وهذا جانب من أكثر الجوانب أهمية فى مولد السيكولوجية الجديدة .

يقول لينين : « من الطبيعى أن ينتشر بين الجماهير التى لم تتخلص الا لتوها مما رزحت تحته من نير وحشى لم يسبق له مثيل ، قلق واضطراب عميق . فتتبلور المبادىء الجديدة لانضباط العمل وصياغتها ، عملية طويلة وممتدة للغاية ، ولا يمكن لها أن تبدأ الا بعد أن يتحقق الانتصار الكامل على كبار الملاك والبورجوازيين » (٣) . واما فى ظل الاشتراكية ، وكما يقول لينين فى رسالة بعث بها الى كوزيرا لنوفسكى فى عام ١٩٢٠ ، فحتى كهربة البلاد تتطلب « مباراة ومبادرة بين الجماهير » (٤) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٣٥ ، ص ٤٦٧ .

وكم هي قيمة ، ايضا ، آراء لينين حول الجوانب السيكولوجية للحرب الأهلية والقتال ضد التدخل الأجنبي . فهو يرقب عن كثب استعداد الجماهير أو عدم استعدادها ، سيكولوجيا ، للحرب ، ويقول — في فبراير ١٩١٨ — : ان الجماهير لم تكن على استعداد لخوض الحرب ، ولكنه يتنبأ ، بكل ثقة ، بأن وقت الشدة سرعان ما سينقضي ، وان الشعب سيستجمع قواه ويسترد قدرته على المقاومة (١) . ولكنه لم ينتظر مكتوف اليدين الى أن يتحقق ذلك ، وانما اخذ في الاعداد له . وفيما يلي شرحه للقرار الخاص بدعوة فلاحي بسكوف ، العائدين لتوهم من الجبهة ، لحضور مؤتمر السوفيتات ، « وسوف نأتي بهم الى المؤتمر ليروا كيف يعامل الالمـان الناس ، حتى يتمكنوا من تغيير مزاج الجندي الذي استبد به الذعر فيبدأ في استعادة رباطة جأشه والتخلص من ذعره ، ويقول ، هذه ليست قطعا هي الحرب التي وعد البلاشفة بوضع حد لها ، وانما هي حرب جديدة يشنها الالمـان ضد السلطة السوفيتية . وعندئذ سترتفع الروح المعنوية من جديد » (٢) . وبعد ذلك بوقت قصير يسجل لينين أن « الأشهر انقضت ، وجاء التحول . وانقضى الوقت الذي كان الشلل فيه يسيطر علينا . . . لقد خلق انضباط جديد ، وهاهم أناس جدد ينضمون الى الجيش ويجودون بأرواحهم بالآلاف » (٣) .

وفي اثناء الحرب الأهلية ، تركز انتباه لينين على السيكولوجية السائدة على الجبهة وفي المؤخرة . ولم يغفل ، من ناحية ، حتى اثر برد الخريف على الروح المعنوية : « فأنتم تعرفون أن برد الخريف يؤثر على رجال الجيش

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ١١٢ — ١١٣ .

ليس من قبيل الصدفة ان يستخدم لينين التعبير « مزاج الجندي الذي استبد به الذعر » ، فهو تعبير يرتبط تماما بالمجال الخاص لسيكولوجية الحرب ، قارن ذلك بما كتبه لينين في عام ١٩١٢ : « لقد تحول تقهقر الاتراك الى هروب غير منظم لجموع جائعة ، مرهقة ، استبد بها الذهول والجنون »

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٨ ، ص ١٢٥ .

الاحمر ، ويصيبهم بالاحباط ، ويخلق المزيد من الصعوبات ، » (١) ولكنه من الناحية الأخرى ، يعول على العامل السيكولوجي في التصدي للعديد من المصاعب المرتبطة بالحرب : « ان الموقف بالغ الخطورة ، ولكننا لا نيأس ، لأننا نعرف أنه كلما واجهت الجمهورية السوفيتية موقفا صعبا ، يحقق العمال المعجزات ، شجاعة واقداما ، ويلهمون القوات المسلحة ويقودونها نحو المزيد من الانتصارات ، بما يضربونه من مثال » (٢) .

وكان لينين يبدى اهتماما عميقا بالعمليات السيكولوجية بين الفلاحين ، ويضع يده على **الفارق الصارخ بين الحالة الاجتماعية النفسية للعمال والفلاحين** . فالعمال في جميع انحاء العالم منظمون بدرجة أو اخرى — كما يقول — ثم يضيف أن إعادة صياغة سيكولوجية الفلاح جانب هام في النضال من اجل الاشتراكية . . . » نادرا ما حدث في أى مكان في العالم ، أن بذلت محاولات دؤوبة ومنظمة ومنزهة عن الغرض لتنظيم اولئك الذين يعملون في الانتاج الزراعي الصغير ، ونظرا لانهم يعيشون في مواقع نائية وغير مطروقة ، ويخيم عليهم الجهل ، فقد ادت ظروف حياتهم الى اعاقة نموهم » (٣) . وسوف يتطلب ذلك وقتا طويلا . ومن المؤكد أن هذه المهمة لم تكن قد انجزت حتى عام ١٩٢١ ، عندما كانت السمات السيكولوجية الخاصة للفلاح واضحة كل الوضوح ، وتدق ناقوس الخطر منذرة بضرورة تغيير السياسة الاقتصادية السوفيتية . يقول لينين « كانت هذه هي المرة الاولى ، وارجو ان تكون الأخيرة ، في تاريخ روسيا السوفيتية ، التي سرى فيها شعور معاد لنا بين جماهير كبيرة من الفلاحين ، ليس عن وعي ، وانما استجابة لغريزتهم . . **ويرجع السبب في ذلك الى اننا خطونا خطوات أوسع مما يجب في هجومنا الاقتصادى . . . وللدرجة التي احست الجماهير معها اننا نحن انفسنا غير**

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٣١٢ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٠ ، ص ٦٦ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٤٣٦ .

قادرين على تحديد هذه الخطوات بطريقة واعية » (١) .

وهكذا نجد أن الاتجاه السائد فى ملاحظات لينين حول السيكولوجية الاجتماعية بعد أكتوبر يختلف اختلافا جوهريا عن ملاحظاته قبلها . فقبل الثورة ، كان اهتمامه يتركز حول توحيد القوى الثورية وسحق النظام القديم . ومن هنا ، كانت كل الجهود توجه من اجل أن تدرك الجماهير الخط الفاصل بين « نحن » الكادحين و « هم » المستغلين ، ومعهم دولتهم وكنيستهم . أما بعد الثورة فكانت كل الجهود مركزة حول غرس وترسيخ مفهوم مختلف تماما لمعنى « نحن » .

واهتم لينين اهتماما كبيرا ، ضمن اشياء أخرى ، بالسمات السيكولوجية الجديدة فى العلاقة بين الجماهير والدولة ، ويقول : « خلفت لنا الدولة ، التى ظلت طوال قرون أداة لقهر الشعب ونهبه ، تراثا من كراهية الشعب وتشككه فى أى شىء يرتبط بالدولة » (٢) . وكان لهذا التراث بعض الأثر على مسألة المحاسبة والرقابة . ومع ذلك ، يجب علينا أن نقضى بالتدريج على التناقض مع قادة الدولة وتنظيماتها — الجماعة « هم » فى مواجهة الجماعة « نحن » ، الجماهير . وعندما تعتبر الجماهير ، بشكل عام ، أن أخطاء الحكومة السوفيتية والحزب ، أيضا ، وليس فقط انجازات الحكومة والحزب ، ملكية خاصة لها ، فهذه ، فى رأى لينين ، حقيقة لها مغزاها التقدمى الكبير . **« لقد تصدوا لهذه المهمة الفادحة بأيديهم وبجهودهم الخاصة . وارتكبوا الآلاف من الأخطاء الفاضحة والوان التخبط التى عانوا منها هم انفسهم . ولكنهم تدربوا وازدادوا صلابة مع كل خطأ » (٣) .**

وكان اهتمام لينين بالسيكولوجية الاجتماعية محدد الهدف دائما ، سواء قبل ثورة أكتوبر أو بعدها : وكان يرى فيها عرضا من الأعراض التى

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ٤٢١ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٢٥٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٨ ، ص ١٤٠ .

تتم عن وضع القوى الثورية ، واحد المهدات الجيوية اللازمة للدفاع عن قضية الثورة والسير بها الى الأمام . وقبل الثـورة ، لم يكن « عـلم الثورة » يعنى الا بعدد ضئيل فحسب من العادات والتقاليد الثابتة ، وهى التي تنزع بشكل عام الى محاربة العرف الاجتماعى القائم . أما بعد الثورة ، فكان الغرض الأساسى هو خلق وتدعيم تكوين نفسى جـديد ، وشخصية جديدة . وبينما كان لينين من أعداء التقاليد المتحجرة قبل الثورة ، نجده يتحول بعدها الى داعية لتحويل المفاهيم الجديدة الى عادات ، فيقول : **« ولا يمكن ان نعتبر ان شيئا ما تم انجازه ، الا اذا اصبح جزءا لا يتجزأ من ثقافتنا ، من حياتنا الاجتماعية ، من عاداتنا » (١) .**

وهكذا يتضح أن الفارق بين التغيرات النفسية والتـركيب النفسى لا يمكن الا أن يكون نسبيا من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى المـاركسى اللينينى ، وان أهمية أى من الجانبين تتوقف كلية على الظروف التاريخية المحـددة .

٧ — عـلم النفس والثورة

أهتم لينين بعلم النفس كثورى ، وبقدر ما بين هذا العلم ومهام الثورة من علاقة . ولهذا السبب ، تركز اهتمامه كله تقريبا حول الظواهر الاجتماعية النفسية المتغيرة والتى تسمى « المزاج » عادة ، بينما لم تحظ باهتمامه الظواهر الثابتة نسبيا مثل التركيب النفسى ، أو طبيعة طبقة او جماعة مهنية او عرقية معينة ، وان كانت هاتان المجموعتان من الظواهر لا تمثلان قطبين متباعدين فى علم النفس الاجتماعى ، الا انهما — رغم ذلك — مختلفتان .

ونحن نلتقى بكلمة « مزاج » عشرات المرات فى كتابات لينين ، وسبق له أن استخدمها حتى فى عام ١٨٩٥ : « والشعب ينقسم انقساما بالغ الحدة

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣٣ ، ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

الى عمال وبورجوازيين ، ومن هنا نجد ان مزاج العمال معارضا فى الواقع » (١) . ولينين يستخدم الكلمة كثيرا جدا ، بل وهى احد المفاهيم الأساسية فى علم النفس الاجتماعى كما يتصوره . وكان من المناسب تماما ان يكون عنوان الرسالة التى تقدم بها ب. د. باريجين للحصول على درجة المرشح : هو « ف.أ. لينين — حول تكوين أمزجة الجماهير » (٢) .

ولكن من الخطأ أن نبالغ فى تقدير قيمة هذا المصطلح او ذاك . فلينين يستخدم العديد من المصطلحات الأخرى ، منها « الغريزة » على سبيل المثال (الغريزة الطبقية ، الغريزة الثورية) ، ويرتبط معناها ارتباطا وثيقا بمعنى « التلقائية » ، وهو ايضا مصطلح يكثر لينين من استخدامه . وهناك الى جانب ذلك مفاهيم مثل « الميل »، و « المشاعر » ، و « الطاقة »، و «الرغبة»، و « الحماس » ، و « الملل » ، و « الغضب » ، و « الكراهية » ، و « اللامبالاة » ، الخ .

وفيما يلى بعض الأمثلة التى توضح كيفية استخدام لينين لهذه المصطلحات : « أن الطبقة العاملة اشتراكية ديموقراطية غريزيا وتلقائيا »(٣)، «مرحلة تتراكم فيها الطاقة الثورية »(٤) ، موجة من « الغليان العام » (٥) « بانتفاضة مئات الألوف من العمال الذين لم ينسوا يوم ٩ يناير (السلمى) ، ويتوقون الى ٩ يناير مسلح » (٦) ، « والعمال أنفسهم يخوضون هذا النضال

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٣٤ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) ب. د. باريجين ، « ف. ا. لينين — حول الأمزجة الاجتماعية » (مطبوعات جامعة الدولة بلينجراد) ، ١٩٥٩ ، رقم ١٧ . سلسلة الاقتصاد والفلسفة والقانون . الجزء الثالث ، انظر ايضا ورقة(بحث)ب. د. باريجين من (مشكلات علم النفس الاجتماعى) ، موسكو ، ١٩٦٥ .

(٣) ف. أ. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ١٠ ، ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٥) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٤٣ .

(٦) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ٢٨٥ .

على وجه التحديد تلقائيا . وكم كان حماسهم متوقعا اثناء النضال الكبير في اكتوبر وديسمبر » (١) . « والأمر هام للملكية التى يعضدها الفلاحون » غالبا ما تشل نشاطهم ، « وتؤدى الى أحلام اليقظة التى ترنو الى أرض تهبط عليهم من السماء » (٢) ، « ومن المستحيل تحقيق اى تغيير الى الأفضل بجماهير غير واعية سياسيا ، وهاجعة ، ومترددة ... وما لم تكن الجماهير بواعثها الخاصة ، وما لم تكن واعية سياسيا ، وعلى درجة كبيرة من اليقظة ، وما لم تكن ايجابية ، مستقلة ، عاقدة العزم ، فلا يمكن على الاطلاق انجاز أى شىء في أى من المجالين » (٣) . وهناك ايضا « ان روح الخنوع والسعى لتحقيق المصالح المادية الخاصة ، والتى كثيرا ما سيطرت على بعض روابط العمال السويسريين فيما مضى ، تختفى الآن ليحل محلها مزاج قتالى ، ان العمال يقفون وقفة رجل واحد » (٤) ، « والظاهرة الشائعة ... هى السخط الجماهيرى الذى يتجاوز كافة الحدود ، وسخط الجماهير على البورجوازيين وحكومة البورجوازيين » (٥) ، « ونظرا لاستئناف حرب السلب والنهب ، من الطبيعى أن تتزايد المرارة بين الناس على نحو اكثر سرعة وعمقا » (٦) ، « وليس في مقدوركم ان تسوقوا الشعب الى حرب السلب والنهب تنفيذا لمعاهدات سرية ثم تتوقعون منهم الحماس . ومن المستحيل استنفار روح البطولة الشعبية بدون معاداة الامبريالية » (٧) ، « ان الشعب لا يمكنه أن ينتظر ، وسوف لا ينتظر ، في صبر وسلبية » (٨) ، « وهناك من الدلائل ما يشير الى تنامى السلبية واللامبالاة . هذا مفهوم . وهو لا يعنى انحسار

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٧ ، ص ١٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٨ ، ص ١٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .
(٥) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ١٧٠ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٣٦٣ .
(٨) المرجع السابق ، ص ٧١ .

مد الثورة كما يتصايح الكاديت واتباعهم ، وانما يعنى انحسار الثقة فى القرارات والانتخابات . فالجماهير ، فى الثورة ، تريد افعالا لا اقـوالا من الأحزاب القائدة ، تريد انتصارات فى النضال وليس كلاما » (١) ، « ان السـخط ، والتذمر ، والغضب تتزايد داخل صفوف الجيش ، وبين الفلاحين ، وبين العمال » (٢) .

ويقول لينين أن حل المسألة القومية والمسألة الزراعية سـوف يؤدى « إلى تفجر حقيقى للحماس الثورى بين الناس » (٣) ، واخيرا وليس آخرا يلاحظ قائلا : « وانا اعرف ان هناك تغيرا فى الروح المعنوية لفلاحى مقاطعات سراتوف ، وسمارا وسمبريسك ، حيث كان الاعياء أشد منه فى أى مكان آخر وحيث كان الاستعداد للعمل العسكرى أقل منه فى كافة المقاطعات » (٤) .

تكشف هذه الفقرات التى اخترناها عن مدى حساسية لينين وحـدة ذهنه فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية النفسية ، ولا يمكن لأى صورة للينين الخبير فى الشئون العامة ، والثورى ، أن تكتمل بدونها . وها نحن نرى أن اهتمامه ينصب فى الأغلب على الحركة النفسية فى الطبقات والجماهير ، وعلى ديناميكية الحالة النفسية . أما اهتمامه بالسمات النفسية الاكثر ثباتا للطبقـة العاملة والجماعات الاجتماعية والمهنية المختلفة ، فهو أقل عمقا ولا نلتقى به الا لماما . وملاحظاته فى هذا المجال اقل اكتمالا من ملاحظاته حول الحـركات والتغيرات الاجتماعية النفسية . ومع ذلك ، فهى غالبا ذات قيمة لا تقـدر بثمن ، لأن الأشكال السيكولوجية الثابتة التى يشير اليها هى تلك الاشكال التى يتعين على الحركة الثورية أن تدمرها ، رغم أن هذه الحركة قد تستخدمها

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ١٨٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٨ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٨ ، ص ٣٣ .

فى بعض الأحيان ، بكل تأكيد ، لدعم صفوفها ، وكما نرى ، فالهدف الذى يسعى اليه لينين بعد الثورة الاشتراكية هو أن تسرى هذه الثورة فى دماء الجماهير وان تتجسد فى عادات سيكولوجية راسخة .

ونحن لم نركز اهتمامنا حتى الآن الا حــول تقييم لينين لسيكولوجيــة الجماهير . ولكن ملاحظاته حول سيكولوجية البورجوازية لا تقل اهمية بالنسبة للمؤرخين . فهو يضع يده على سبيل المثال ، وكما فعل ماركس من قبل ، على تردد البورجوازية الصغيرة بين النزعات الثورية المتطرفة وبين الرجعية ، كمــا يحلل الســمات النفسية للبورجوازية الكبيرة والصغــيرة ، فيقول : « والبورجوازيون رجال اعمال ، أناس يعقدون صفقات تجارية كبيرة والفوا الخوض حتى فى المسائل السياسية بطريقة عملية صارمة ، انهم يقبضون على الثور من قرنيه ولا يضعون ثقتهم فى الأقوال » (١) . كما تنطبق الملاحظات التى ابداها فى عام ١٩٠٥ على العديد من الفترات التاريخية الأخرى : **« ان اعتراف البورجوازية بالثورة لا يمكن ان يكون مخلصا ، بصرف النظــر عن الأمانة الشخصية لهذا المفكر البورجوازى او ذاك . فالبورجوازية لا تستطيع ان تولد الا الأنانية والتقلب ، وروح عدم الجدية والمراوغات الرجعية التافهة ، حتى عندما تكون الحركة فى أعلى مراحلها » (٢) .**

وعندما يزيح لينين النقاب عن النزعة اللبرالية البورجوازية ، فهو يكشفة لنا عن العوامل النفسية الكامنة وراءها . ففى نفس الوقت الذى تقــدم فيه البورجوازية التنازلات لطبقة النبلاء فى المجال السياسى ، نجدها ميالة أيضا الى التنصل ، سيكولوجيا ، من آثامها ، اعتقادا منها أن موقفها الوسطى انما هو نوع خاص من التنقية للروح اللبرالية . يقول لينين : « وهــذا المنطق اللبرالى حتمى من الناحية النفسية ، فطبقة النبلاء لدينا ينبغى أن تصور بانها

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٥ ، ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ١٢٦ .

طبقة ضئيلة الشأن ، ليصبح ما تحصل عليه من امتيازات مجرد تخل ضئيل الشأن عن الديموقراطية ، ونظرا لأن البورجوازية تشغل مركزا وسطا بين المطرقة والسندان ، فالشعارات المثالية ، هى الاخرى ، حتمية من الناحيـة النفسية ، تلك الشعارات التى يتشدق بها لبراليونا عموما ، وفلاسـفتهم المدللون على وجه الخصـوص ، فى الوقت الراهن ، على هـذا النحـو الكريه » (١) .

واذا كان نضال البورجوازية من اجل الحرية ، فى رأى لينين ، فاترا ومترددا ، فمن الطبيعى أن يكون الحال كذلك مع التيارين اللذين ظهرا على السطح بين المثقفين الروس قبل الثورة : ولكن بالرغم من أن هذين التيارين يستمدان جذورهما فى الأغلب من جذور بورجوازية ، الا أن « فئة المثقفين الثوريين ، التى تنبثق اساسا من هذه الطبقات ، ناضلت ببطولة من اجل الحرية » (٢) ، هذا من ناحية ، **ولكنها كانت ، من الناحية الاخرى ، الخادم المطيع ورهن الاشارة فى اى وقت للبيروقراطية والبورجوازية** . يقول لينين : « وهكذا تضعون يدكم على سيكولوجية المثقف الروسى . **انه راديكالى متطرف بالأقوال ، اما بالأفعال فهو موظف حكومى صغير وضيع** » (٣) . ولكن لينين لا يكف عن لفت الأنظار مرارا وتكرارا الى النزاعات الطبيعية والحتمية بين المثقفين البورجوازيين والبورجوازية ، ولنتأمل هذه الفقرة على سبيل المثال : **« ان رفض المثقفين ان يعاملوا معاملة الرجال المأجورين من النوع المعتاد ، كباعة لقوة العمل ، يؤدى من وقت لآخر الى نزاعات بين الأقطاب الكبار فى جهات الحكم وبين الدكاترة الذين قد يضطرون الى الاستقالة الجماعية ، او الى نزاعات مع التكنيكيين ، الخ »(٤)** .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٨ ، ص ٤٢٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥١١ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١١ ، ص ٤٦١ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٨٥ .

وتنصب العديد من ملاحظات لينين السيكولوجية على الموظفين « التنفيذيين » ، والعسكريين ، ورجال الدين .

وتعقد ملاحظاته الخاصة بالعسكريين مقارنات مثيرة بين الروح المعنوية للجيش القيصرى والجيش السوفيتى ، وتلمح — قبل الثورة بوقت طويل — الى التمايز الاجتماعى السياسى الحتمى فى القوات المسلحة ، **فكلما اكثرت الحكومة القيصرية من ارسال القوات المسلحة ضد السكان ، كلما انجذب الجنود حتما الى معترك الحياة السياسية** . ويقول لينين ان هذا التطور يؤدى داخل الجيش المعادى للثورة ، وبلا جدال ، اولا ، الى نشأة نواة من المقاتلين من اجل الثورة ، وثانيا ، الى نشأة كتلة من المحايدين ، وبعبارة اخرى ، يلاحظ لينين انه **عندما ترسل الحكومة الجنود ضد الثورة « فهى تدفع الى التحرك اكثر الناس تخلفا ، واكثرهم جهلا ، واكثرهم تعرضا لنير الاضطهاد ، واكثرهم عقما من الناحية السياسية — وسوف يؤدى النضال الى تنوير هؤلاء الناس واستثارتهم ، ودفع دماء الحيوية فى عروقهم »** (١) . ولنتذكر سمة نفسية اخرى يعرفها الجميع الآن من خلال الأدب والمسرح والفن : لقد كان لينين يستشف دائما تغير المشاعر نحو الجنود ، « ونحن نعرف أن ثمة صوتا آخر يتعالى الآن من بين صفوف الناس ، وها هم يقولون لأنفسهم : **لم يعد هناك الآن ما يدعونا الى الخوف من الرجل الذى يحمل البندقية** » (٢) .

ولا شك ان تحليل لينين للسمات النفسية الثابتة للهرم الوظيفى الروسى قبل الثورة ، وتردده السياسى فى عام ١٩١٧ ، تحليل رائع وعميق فى تجسيده للحقائق .

ولنمعن النظر فى جانب واحد مما يذكره لينين عند حديثه عن رجال الدين ، والمتمثل فى تصويره لقس القرية الذى قدمه لنا فى عام ١٩٠٨ : « لماذا

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٩ ، ص ٣٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٤٦٣ .

اثبت قس القرية — وهو الشرطى الذى يعمل تحت امرة الكنيسة الارثوذكسية الرسمية — أنه **يقف الى جانب الفلاح اكثر مما يقف اللبرالى البورجوازى ؛** لان قس القرية يتعين عليه أن **يعيش مع الفلاح جنبا الى جنب** ، وان **يعتمد عليه** بألف طريقة وطريقة ، كما هى الحال عندما يمارس هذا القس الزراعة الفلاحية الصغيرة فى أرض الكنيسة ، وهكذا يتمخض الموقف عن ان يجد اكثر القساوسة رجعية أنه من اشق الأمور عليه ، واكثر مما هى الحال مع المحامى المستنير أو الأستاذ ، أن يخون الفلاح لمصلحة المالك الكبير » (١) .

وكثيرا ما يتحدث لينين عن وضع المرأة فى روسيا قبل الثورة ، وعن الدور الذى تلعبه فى الحركة البروليتارية وفى بناء الاشتراكية . ولا شك ان لبعض ملاحظاته فى هذا المجال اهميتها بالنسبة لعالم النفس : يقول لينين فى عام ١٩١٦ : « والنساء البروليتاريات لن يقفن مكتوفات الأيدى عندما يرين العمال العزل من السلاح أو الذين لا يحملون الا أوهى السلاح ، يضربون بالرصاص من جانب قوات البورجوازية المدججة بالسلاح » (٢) . ويقول فى عام ١٩١٢ ، وهو يتحدث عن تحرير المرأة من عبودية العمل المنزلى : « وهذا الانتقال شاق عسير ، لأنه يتضمن اعادة بناء أكثر النظم عمقا ، وتأصلا ، وتحجرا ، وصلابة » (٣) .

ولن نورد هنا التحليل الكامل الذى يقدمه لينين للسمات الخاصة لسيكولوجية الجماعات والفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة ، وانما يقتصر دورنا على تركيز الأضواء على المبدأ الأساسى الذى يسترشد به ، وهو : « التعرف على الخصائص السيكولوجية المميزة لكل فئة وكل مهنة ، ووضعها فى الاعتبار ، وكذلك لكل طبقة بالطبع » (٤) . وفى هذا الصدد كان لينين يلاحظ

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢٣ ، ص ٨٢ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٣٢ ، ص ١٦٢ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ١٩٢ .

ان « هناك الآن ، وسيظل هناك دائما ، بعض الاستثناءات الفردية من النمط السائد للجماعة او الطبقة . ومع ذلك تظل الأنماط الاجتماعية على ما هى عليه » (١) .

ومن المناسب عند هذه النقطة ان نلقى نظرة على ذلك الجزء من السيكولوجية الاجتماعية المرتبط بالمسألة القومية .

فتعليقا على ادعاء لازاى بأن الاشتراكيين الايطاليين « يعرفون عقلية الشعب الايطالى » يقول لينين ساخرا : « أما من ناحيتى ، فأنا لا اجرؤ على أن أزعم ذلك فيما يتعلق بالشعب الروسى » (٢) . ان لينين ، الثائر الروسى العظيم ، لا يزعم أنه يعرف سيكولوجية الشعب الروسى !! ويالها من حقيقة بالغة الدلالة .

وبادىء ذى بدء ، فما يعنيه لينين هو ان كل ثقافة قومية تحتوى على ثقافتين متناقضتين ، **بمعنى انه لا يمكن أن توجد سيكولوجية مشتركة فى جماعة عرقية مثل الأمة** » (٣) . كما يعنى ايضا « **ان ابراز سمة مشتركة للأمة ككل لا يقصد به الا غرس النزعات الوطنية والقومية البورجوازية ، وعرقلة اليقظة الثورية للجماهير** » (٤) . **وربما كانت أهم النقاط التى يعنيها هى ان الخصائص القومية عندما يتجاوز التأكيد عليها الحد الملائم ، تقسم صفوف الحركة الثورية العالمية بدلا من أن توحدها** .

ويتجلى فهم لينين للمشاعر القومية على احسن وجه فى كتابه « حول الكبرياء القومية للروس الكبار » والذى يقول فيه : « تتلاقى مصالح الكبرياء القومية للروس الكبار (على ألا تفهم بالمعنى العبودى) مع المصالح الاشتراكية

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٧ ، ص ٢٧٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣٢ ، ص ٤٦٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٠ ، ص ٢٤ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٢٢ .

البروليتاريين الروس الكبار (وجميع البروليتاريين الآخرين) » (١) . « ونحن مفعمون بالاحساس بالكبرياء القومية ، ولهذا السبب **على وجه التحديد** نمقت ماضينا العبودي ... وحاضرنا العبودي ... **ولا يمكن ان يلام احد لانه ولد عبدا ، ولكن عبدا يتحاشى السعي الى التحرر ، ويبرر عبوديتــه ويمتدحها** (مثل الدعاوى التي تتعالى مطالبة بالسيطرة على بولندا واوكرانيا ، الخ ، دفاعا عن وطن الروس الكبار) ، **أن عبدا من هذا النوع لا يمكن الا ان يكون ذليلا ، منافقا ، سانجا ، ولا يستحق الا الازدراء والاحتقار والاشمئزاز** »(٢) .

وكان من راى لينين ان **عمليات الاستيعاب والتمثل تحت تاثير الراسمالية خطوة تقدمية تاريخية كبيرة** (٣) . وكان يرحب بحركات التحرر الوطنى طالما اتجهت ضد سيطرة امة على امة أخرى . ولكنه ، مع ذلك ، **لم يفصل باى حال بين الحركة الوطنية والطبقات المشاركة فيها** . « فالسمات المميزة للمرحلة الأولى هي انبعاث الحركات الوطنية وانجذاب الفلاحين ، وهم أكثر قطاعات السكان عددا وتبلدا ، الى هذه الحركات ، وفى ارتباط بالنضال من أجل الحرية السياسية بشكل عام ، ومن أجل حقوق الشعب على وجه الخصوص » (٤) . وكان يعترض على دفع الشعوب الى معاداة بعضها البعض ، ويرى فى ذلك تسميما « لعقول الجماهير الجاهلة المقهورة » (٥) .

وكان اهتمام لينين بالجوانب السيكولوجية فى حركات التحرر الوطنى يتركز ، ضمن أشياء أخرى ، على الكبرياء الوطنية الجريحة ، وعلى ســخط الأمة المقهورة ، وعلى الاحساس بالشك والريبة تجاه القاهرين (٦) .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ١٠٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٠ ، ص ٢٧ .
(٤) المرجع السابق ، المجلد ٢٠ ، ص ٢٧ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
(٦) انظر ف. ا. لينين ، « حول مسألة الحكم الذاتى » (بالروسية) ، ١٩٥٦ ، و ف. ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، الطبعة الروسية الخامسة ، المجلد ٤٣ ، ص ١٢٨ .

ولكن ليس هناك فى كتاباته ألا القليل ، أو ليس هناك على الاطلاق ، ما يمكن أن يتعلق بالسيكولوجية « العرقية » ، اى السمات السيكولوجية القومية الخاصة أو التركيب النفسى المميز لهذا الشعب او ذاك او لهذه الأمة او تلك ، وانما نلتقى فى هذه الكتابات ببعض الملاحظات العارضة هنا أو هناك حول استعداد الشعب الروسى للتضحية ، أو تفضيل الألمان للتفكير النظرى . ولكن مثل هذه الجوانب ليست هى التى تشغل لينين بشكل عام ، وانما هو يسترشد بالبديهية التى تقول : **« عند مواجهة اى مسالة سياسية خطيرة وعميقة حقا ، فالمواقف تتحدد وفقا للطبقات ، وليس وفقا للأمم والشعوب »(١) .**

وباختصار ، يمكننا أن نقول أن اهتمام لينين كان يتركز على التغيرات الاجتماعية النفسية ، ولم تكن السيكولوجية الاجتماعية بالنسبة له هى القاعدة الأولية أو الأبدية للظواهر الاجتماعية . فالسيكولوجية الاجتماعية يمكن أن تتغير ، بل ولابد أن تتغير . وينبغى علينا الا نجعل من الظواهر والغرائز والنزعات التلقائية للجماهير هدفا فى حد ذاتها ، أو أن نتعامل معها كقوانين لا تقبل التغيير . ويجب ألا يغرب عن بالنا ان المخربين الذين كانوا يعملون لحساب القيصر بذلوا جهودا فائقة « من أجل غرس المشاعر الوضيعة والزائفة بين الجماهير الجاهلة » (٢) . وكان ما يعنى لينين ، هو ذلك العنصر فى سيكولوجية الجماهير الذى يعمل من اجل الثورة ، أو يمكن تحويله بواسطة الثورة ، وهو يقول : « ان انصار لافروف وميخائيلوفسكى يضطرون الى الاعتماد على سيكولوجية الجماهير المقهورة ، وليس على الظروف الموضوعية التى **تحول** سيكولوجية الجماهير **المناضلة** » (٣) .

وفيما يلى مايقوله لينين عن ديناميكية السيكولوجية الاجتماعية فى مقاله « قبل العاصفة » فى عام ١٩٠٦ : « ان المزيد والمزيد من العمال والفلاحين

---

(١) ف . ا . لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٦ .
(٢) المرجع السابق ، المجلد ١٠ ، ص ٧٣ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١١ ، ص ٢٠٥ .

والجنود ، الذين كانوا يتخذون حتى الأمس نقط موقف اللامبالاة بل وينضمون الى جانب المئات السود ، ينتقلون الآن الى جانب الثورة . ان الأوهام والوان التعصب المختلفة التى جعلت من الشعب الروسى شعبا سريع الثقة ، صبورا، ساذجا ، مطيعا ، شديد التحمل ، ومستعدا دائما للصفح والغفران ، تتهاوى الآن الواحدة تلو الأخرى » (١) . ثم يواصل تعميقه لوجهة نظره فى نفس العام فيقول : « ان حزب العمال يعلق كل آماله على الجماهير ، على الجماهير التى لم تعد تخاف ، والتى لا تذعن فى سلبية ، ولا تتحمل النير فى مذلة واستكانة ، على الجماهير الواعية سياسيا ، التى تطالب ، وتناضل »(٢) .

وتساعدنا هذه الأمثلة على فهم لينين : فهو ليس ممن يقدسون مزاج الجماهير تقديسا أعمى ، ولا هو ممن يمتدحون الجماهير بلا تبصر ، وعلى طول الخط ، ويقول عن الحزب الشيوعى : « **ولكننا حزب يقود الجماهير الى الاشتراكية ، ولسنا باى حال الذين ننساق وراء اى مزاج او احباط فى روح الجماهير . ولقد كان على جميع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ان تتصدى فى بعض الأحيان لسلبية الجماهير ولا مبالاتها ، او لبعض التقاليع (الشوفينية، معاداة السامية ، الفوضوية ، البولانجية ، الخ) ، ولكن لم يحدث ابدا ان خضع الاشتراكيون الديموقراطيون لكل تغير فى مزاج الجماهير** » (٣) .

وكان لينين يحث الثوريين على الاستفادة من سيكولوجية الجماهير من أجل اقتلاع جذور العلاقات الاجتماعية السابقة ونمط الحياة القديم ، ولكنه كان يحثهم فى نفس الوقت على ان ينتزعوا من عقول الجماهير كل ما يمكن ان يعرقل المسيرة السريعة للتاريخ . وكان يشير الى ان الفلاحين ، كطبقة ، لها سيكولوجيتها الخاصة ، فهم كادحون ومالكون فى نفس الوقت ، انهم قوم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٦ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ١٥ ، ص ٢٩٥ .

متعقلون ، اذكياء ، وعمليون (١) . ويجب أن نتعلم كيف نكسبهم ، وكيف نعيد صياغة نفسيتهم ، شأنهم شأن اى جمـــاهير اخرى . ثم يحذر لينين قائلا : **« وإياكم واصدار الأوامر ! »** (٢) .

وكان لينين كعالم نفسى نافذ البصيرة ، يعرف العديد من الســـمات الخاصة للسيكولوجية الاجتماعية ، ويؤكد على **الانتشار السريع لعـــدوى** الأعمال التخريبية (٣) .

ومهما يكن من أمر ، وبالرغم من أن علم الثورة الذى وضع لينين اسسه ودعائمه يساعد علم النفس الاجتماعى على التعرف على مهامه الحيـــوية وامكاناته ، الا أنه ينبغى علينا ألا نقع فى خطأ تطبيق ملاحظاته تطبيقا آليا على ظروف تاريخية مختلفة . ولكن لينين لم يكن من علماء النفس المحترفين . وليس لمحاولتنا هذه من هدف الا مجرد أن نبين للمؤرخين مدى الفوائد التى يمكنهم أن يحصلوا عليها من علم النفس .

وسوف تتناول الفصول التالية العناصر والمفاهيم الاساسية لهذا الفرع من علم النفس المعروف باسم علم النفس الاجتماعى .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد ٢٩ ، ص ٣٧٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١١ .
(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢٦ ، ص ٧٧ .

الفصل الثالث

نحن وهم

١ — هل يمكن تصور وجود سيكولوجية جماعية ؟

منذ وقت طويل والجدل يدور حول ما اذا كان من المتصـور ، منطقيا ، وجود « سيكولوجية جماعية » (عرقية مثلا ، أو اجتماعيـة ، أو لسواد الناس) .

وهناك ثروة من المواد المستمدة من الواقع ما زالت فى حاجة الى دراسة عميقة ، وخاصة فى مجال السيكولوجية العرقية . ومن الحقائق التى لا خلاف عليها ان أى شعبين سواء بعدت بينهما المسافات أو تجاورا ، يختلفان اختلافا واضحا فى السمات المميزة لطبيعة كل منهما أو لبنيته العاطفية . واما على المستوى الفردى بين أبناء الشعب الواحد فتدفعنا الفوارق الخاصة والبارزة بين من ينتمون لحرف أو مهن مختلفة الى أن نقول : « حسن ، ان جميـع الحدادين متشابهون » ، أو « ان جميع الفنانين على شاكلة واحدة » ، أو « هذا هو السلوك النمطى لعلماء الرياضيات » . ومن هنا تنبثق الرغبـة الطبيعية فى تطبيق مبادىء علم النفس المقارن ، أو النظرة المقارنة ، عند تفسير طبيعة النمط العلمى الموضوعى المميز لسيكولوجية الجماعات أو الأفراد .

وعلى أى الأحوال ، فما زال خصوم علم النفس الاجتماعى يحاولون منذ عشرات السنين أن يثبتوا أن علم النفس لا يختص الا بدارسة العمليات الذهنية

والروحية فى الأفراد والشخصيات البارزة ، وأن المفاهيم الخاصة بالروح الجماعية غيبية ، ومن ثم فهى مفاهيم غير علمية . ثم يطل هذا الراى برأسه من جديد عندما توصل العلم الى معلومات جديدة عن بنية المخ وطرق ادائه لوظائفه ، أى بعد اكتشاف وبحث الأساس الفسيولوجى الذى تستند اليه العمليات النفسية الذاتية ، وما انتهى اليه ذلك من اثبات أنه **لا وجود لأى مخ جماعى خارج جمجمة الفرد** ، وبناء على ذلك تنتهى هذه النظرة بأصحابها الى المناداة بأن القول بوجود سيكولوجية جماعية ، لمجموعة من الناس أو للمجتمع بشكل عام ، يتناقض مع علم النفس المادى ، ولا يستفيد منه الا علم النفس المثالى الذى يتجاهل وجود المخ نفسه فى بعض الأحيان ، ولما كان المخ فرديا ، فلا يمكن لعلم النفس الا أن يكون فرديا .

ويرجع تاريخ هذا النزاع الى عام ١٨٥٩ عندما أعلن لازاروس وستينيتال ، المحرران فى مجلة « علم النفس العرقى وعلم اللغات » فى أول عدد لها مولد علم يدرس الروح القومية « ولا يطبق الا على عدد كبير من الناس يعيشون ويعملون معا ككيان موحد » (١) .

ولسنا فى حاجة الى اعادة تلخيص القصة الطويلة للشجار ، فعلى أحد الطرفين كان هناك من لم يروا أى خطأ فى تقبل فكرة الروح العامة ، مثل روح شعب من الشعوب ، كموضوع جدير بالبحث ، وكانوا ينادون بأن السيكولوجية الجماعية لها من أسسها المنطقية ما يجعلها لا تقل مشروعية عن سيكولوجية الفرد . وانقسم هذا التيار الى فرعين اساسيين همـا علم النفس العرقى (ويبحث فى سيكولوجية الشعوب والأمم) ، وعلم النفس الاجتماعى (ويبحث فى سيكولوجية الجماعات الاجتماعية ، منظمة كانت أم غير منظمة) . وكان لكلا الفرعين ممثلون مشهورون برزوا بما قدموه من ملاحظات تجريبية رائعة ، ابتداء من ولهلم وندت حتى معاصرينا من أمثال مارجريت ميد فى مجال علم

---

(١) من اعلان عن صدور هذه المجلة الدورية يورده ج . شبيت فى كتابه « المدخل لعلم النفس العرقى » ، موسكو ، ١٩٢٧ ، ص ١٩ — ٢٠ .

النفس العرقى ، ومن أميل دورهايم حتى جبرائيل تريد فى مجال علم النفس الاجتمــاعى .

ومهما كانت أهميــة ما انتهوا اليــه من آراء وتعميمات ، بــل وعمقها وخصوبتها فى بعض الأحيان ، الا ان ثمة حقيقتين تدحضان نظرتهما المثالية : الاولى ، أنهم يرون أن الروح الجماعية (وجوهرها — وفقا لتعريفهم — لا يقر بأى مفهوم تجريبى) هى موضوع الدراسة السيكولوجية ، والثانية ، انهم يضطرون — وعلى نحو يدعو الى الدهشة — الى وضع دراساتهم فى مواجهة علم النفس الفردى . ومهما يكن من أمر ، فليس هناك أى عالم نفس ، حتى وان انتمى الى المدرسة المثالية ، ينكر تأثير البيئة الاجتماعية والقومية على شخصية الفرد ، كما يجمع علماء النفس على أن جانبا كبيرا من العالم الروحى للانسان يتحدد سلفا وفقا لنشأته ، وتعليمه ، والبيئة التى تحيط به ، واختياره لأصدقائه ، ونوعية رؤسائه ومدرسيه وزملائه فى العمــل ، ووفقا للاسرة والجيران ، وحتى الصداقات العابرة فى بعض الأحيان ، وأيضا تحت تأثير الكتب التى يقراها ، وما يسمعه ويشاهده فى الاذاعة والتليفزيون . ورغم كل ذلك ، فهم ينتهون الى أن كل هذه الجوانب انما تدخل تحت عنوان « علم النفس الاجتماعى » ، وهى عمليات ، كما نرى ، لا تجرى الا داخل مخ الفرد ، بينما العمليات الأخرى — مثل تفاعل الافراد مع بعضهم البعض وتركيبهم النفسى الذى يتشكل وفقا للظروف الاجتماعية والخــواص الجوهرية لكل منهم — عمليات مشتقة وثانوية .

وما زال النزاع فى ذروته . أما الذين يعتبرون علم النفس الجمــاعى علما بكل معنى الكلمة ، فيذهبون الى انه يدرس مادة حقيقية جنبا الى جنب مع الجوانب النظرية والفلسفية الملازمة لهذه المادة . وقد طرح هذا الرأى فى عديد من الكتب والمقالات . وليس كل ما ورد فى هذه الكتب والمقالات مجرد حدس وتخمين ، وانما حقائق ، حقائق ينبغى أن يتصدى لها العلم بالدراسة ، لأن جميع أشكال العلاقات الاجتماعية هى بالضرورة حقائق موضوعية .

ورغم ذلك ، يذهب خصومهم ، فى المقام الأول ، الى ان **مجموعة الحقائق المتعلقة بتطابق السلوك ، أو ان شئت بتزامن السلوك أو السلوك المشترك ، والتى لا صلة لها بالتفاعل النفسى للأفراد ، ينبغى رفضها تماما ، والتسليم بأنها ليست موضوعا لعلم قائم بذاته (علم النفس الاجتماعى)** . وتأكيـدا لقولهم هذا يقدمون المثال الآتى : هل عدد حالات الانتحار بين الطلبة من سن ٢٣ سنة أو أقل ، موضوع مناسب للدراسات الاجتماعيـة النفسية ؟ كلا بالطبع : لأن الطريق النفسى الذى سلكه كل منتحر لم يتقابل مع الطرق التى سلكها الآخرون ، انهم يشكلون مجموعة **بالمعنى الاحصائى فقط** ، وسـوف يتوصل عالم النفس الى طريقة لتحليل المجموعة ليستنبط ، ضمن معلومات أخرى ، السمات المشتركة بين سيكولوجية هؤلاء المنتحرين . وينطبق نفس الشىء على وجهة النظر التى تذهب الى أن الظروف الاجتماعية الاقتصـادية المتشابهة تولد سمات وافكارا متشابهة . ومن الواضح أننا ، على هذا النحو ، ما زلنا فى اطار علم النفس الفردى طالما أننا نتناول أسبابا وآثارا متطابقة ؛ وليس مما يعنينا فى شىء ما اذا كان هؤلاء الناس قد اتصلوا ببعضهم البعض بشكل مباشر وما اذا كان لهذا الاتصال من تأثير على حالتهم النفسية ، وانما الذى يعنينا هو تلك السلاسل المتوازية من السيكولوجيات الفردية وما تمثله من أنماط متميزة .

وليس بالضرورة أن تكون النتيجة المتماثلة أو العمل المشترك لعديد من الأشخاص موضوعا للبحث من جانب أى علم آخر غير علم النفس الفردى ، وكان جورج سيميل محقا بالفعل عندما قال : « اذا نهبت عصابة أحد المنازل أو نفذت جريمة قتل ، أو اندفعت مجموعة من الناس فى صخب عنيف فى احد مدرجات الملاعب ، تتجمع أعمال العديد من الأفراد لتشكل حدثا نصفه بأنه اكتمال أو تجسيد لفكرة واحدة . ومن هنا تنشأ البلبلة كلها : لأن النتـائج الخارجية المتزامنة لعديد من العمليات الذهنية والروحية الذاتية تفسر بأنهـا أثر لعملية مشتركة لروح جماعية ، ويفسر تطابق الظواهر الناتجة بأنه تجسيد

للتطابق المفترض لستبها التنفسي »(١) . ويذهب سيميل الى ان الفرد البشري هو الحامل الوحيد للحالات الذهنية والروحية ، ومن ثم فليس لعلم النفس الاجتماعي مبرر للوجود كعلم مستقل . ولا شك أن سيميل يبدأ في التنصل من هذا الرأي عندما يقر بضرورة تخصيص بعض فروع علم النفس العام لدراسة تأثير البيئة الاجتماعية على العمليات الذهنية للأفراد ، وهنا ، الا يحق لنا أن نتساءل : الا يمثل ذلك حقا الا « جزءا من العلم الذي يتناول سيكولوجية الأفراد » ؟ . ولكن سيميل يفضل التهرب من مواجهة هذه القضية ، ويحصر الجانب الاجتماعي لعلم النفس أساسا في دراسة الأنماط النفسية ، أي في بعض السمات الشائعة للشخصية ونمط السلوك ، الخ ، والتي تنتج عن ظروف اجتماعية متماثلة .

وثانيا ، يقدم خصوم علم النفس الجماعي أو الاجتماعي اعتراضا مدويا آخر أقرب ما يكون الى هزيم الرعد .

فانصار علم النفس الجماعي أو الاجتماعي من امثال تريدي ، ولبيون ، وسيميل ، الذين درسوا « سيكولوجية الجماعات البشرية » يؤكدون أن ردود فعل الأفراد ، متمثلة في رد فعل جماعي في بيئة انسانية متجانسة ، تصبح في العادة أكثر كثافة ، أي أكثر سرعة وأشد قوة ، وسوف نتناول أمثال هـذه النظريات وجوهر هذه الظواهر فيما بعـد . ولكن فلنبحث أولا ما يقـدمه خصومهم من رد في هذا المجال : انهم يقولون ضمنا أن التكثيف لا يحدث الا لبعض جوانب النشاط الذهني والروحي للأفراد ، ومن ثم فدراسة هـذه الظواهر انما هو من اختصاص علم النفس الفردي ، بل ويذهبون الى ما هو أبعد من ذلك فيقولون أن تحديد بعض الظواهر مثل سرعة رد الفعل ، تقتضي ضمنا وجود المفهوم السيكولوجي الفردي ، ويقولون أنه ، في نهاية الأمر ، فليس هناك ما يسمى سرعة أو كثافة رد الفعل لجماعة أو جمهرة من الناس ،

---

(١) ج . سيميل ، علم النفس ، ليبزيج ، ١٩٠٨ ، ص ٥٥٩ — ٥٦٠ .

وانما كل ما فى الأمر هو مجرد المجموع الرقمى لعدد من ردود الفعل الفردية . حقا ان ردود الفعل الفردية تزداد تكثفا تحت تأثير البيئة ، ولكن ماذا فى ذلك ؟ ان ردود الفعل لا تتأثر بالأسباب الاجتماعية وحدها ، وانما تتأثر ايضا بالبيئة الطبيعية ، ولنأخذ درجة حرارة الهواء على سبيل المثال . فاذا كانت بعض الآليات مثل العدوى النفسية أو المحاكاة أو الايحاء تستحق الدراسة اصلا ، فهى لا يمكن أن تدرس الا كعوامل خارجية تؤثر على الحالة النفسية للأفراد . وهم يشددون التأكيد على كلمة « الأفراد » ، ولكن هنا على وجه التحديد ينزاح الستار عما فى موقفهم من تهافت . فطالما وجدت هذه المجموعة من العوامل (العدوى النفسية والمحاكاة والايحاء) فهى تؤكد وجود جانب خاص فى سيكولوجية الناس ككل . وليس الأفراد ، فلماذا نركز على الشخص الذى يخضع للايحاء وليس ايضا على الشخص الذى يقوم بالايحاء ؟ الا ينشأ فراغ اذا درسناهما منفصلين ؟

ولننتقل الآن الى آخر مما يوجهه خصوم علم النفس الاجتماعى من اعتراضات ، انهم يسلمون بأن بعض التجارب النفسية يمكن أن تكون ثنائية ، أى لا تكتمل الا باشتراك فردين ، منها على سبيل المثال المحاكاة ، والايحاء ، والتعاطف ، والفهم ، .. الخ . وزيادة على ذلك ، فعلماء اللغة يعترفون باشتمال الظاهرة اللغوية على شخصين على الأقل ، هما المتكلم والمستمع ، أو من يروى ومن يتلقى الرواية ، ولا يمكن بدون ذلك تصور أى حديث ، أو لغة ، أو فهم . وهكذا نرى ان بعض الظواهر النفسية الجوهرية ، وبعضها من أكثر الظواهر عمقا ، لا تنشأ او توجد فى مخ واحد وانما فى مخين .

وعند هذه النقطة نلمح التردد على خصوم علم النفس الاجتماعى . فاليس من واجبنا ، حقا ، أن نقر بأن الظواهر الثنائية تصلح موضوعا لعلم خاص ؟ ولكن لحسن الحظ أن الثنائى يظل ثنائيا ، وفى مقدورهم أن يتخطوا بسهولة الفارق بين روبنسون بمفرده ، وروبنسون ومعه خادمه فرايداى ، فليس ثمة ما يتطلب تغييرا فى موقفهم ، والجماعة المركبة يمكن أن تصور ،

بعد كل شيء ، بأنها مركب معقد من ثنائيات متعددة ، ويظل الثنائي (روبنسون وفرايداي) هو العنصر الأولي .

وهكذا يظل الأمل قائما في الاستغناء عن علم النفس الجماعي وعدم الاعتراف به ، رغم وجود « التجربة الثنائية » كحقيقة لا سبيل الى انكارها .

٢ — من « أنا وانت » الى « هم ونحن » :

ولنبتعد الآن لحظة عن علم النفس وننتقل الى عالم الفلسفة . فعلى خلاف ما كانت تنادي به الفلسفة المثالية الكلاسيكية الألمانية ، كانت من أكثر الأفكار التي طرحها لودفيج فيورباخ خصوبة هي **احلاله المقولة « أنا وأنت » محل المقولة السابقة « أنا » بصفتها الذات المدركة** ، ثم فسر بليخانوف فكرة فيورباخ على النحو الآتي : « الواقع ان **أنا** لا وجود لها الا من حيث كونها أنا التي تواجه **أنت** ، والتي تصبح بدورها **أنت** ، أي موضوعا **لأنا** أخرى ، فأنا بالنسبة لنفسها **ذات** ، أما بالنسبة لغيرها فهي موضوع » (١) . **وبعبارة أخرى فيورباخ يرفض أن يعتبر ادراك الذات منفصلا عن العلاقات مع الناس** ، فلا يمكن تصور أي « أنا » ذاتا مدركة الى أن تنشأ علاقة بين شخصين ، وبحيث لا يصبح كل منهما ذاتا الا نتيجة لما بينهما من علاقة متبادلة ، فالمادية الفلسفية عند فيورباخ لا تعني « **بذات** » واحدة في مواجهة « الموضوع » (العالم الخارجي) ، لا تعني « بأنا » و « حواسها » وغير ذلك من خواصها ، **وانما تعني بالضرورة « بذاتين » وما بينهما من علاقات** . ويقدم فيورباخ مثلا لذلك فيقول أن الأخلاق تتضمن وتعني علاقات بين الناس ، بين « أنا » و « أنت » ، ثم يعمق هذه الفكرة فيقول : « أنا لا تصبح **أنا** الا من خلال أنت وجنبا الى جنب مع انت . وأنا لا أدرك نفسي الا لأن انت في مواجهة ادراكي

---

(١) ج . ف . بليخانوف ، « من المثالية الى المادية » ، موسكو ، ١٩٢٤ ، ص ٣٨ .

كلنا مرئية ومتجسدة ماديا وملموسة ، كشخص آخر » (١) .

وكم كان عميقا اثر هذه البصيرة الزائدة لفيورباخ على الفلسفة . ويكفي ان نذكر انه منذ ذلك الحين ، لم يعد هناك ، بالنسبة للفكر التقدمي ، أي وجود للذات الفردية المجردة والمنعزلة التي سادت الفلسفة منذ كانت حتى مستيرنر .

ثم يأتي كارل ماركس ليحيي فكرة فيورباخ من جديد في رأس المال عندما يقارن مازحا بين الانسان والسلعة فيقول : « ولما كان الانســـان يأتي الى العالم وليس في يده نظارة طبية ، ولا هو يأتي اليه كفيلسوف خيالي يكفيه القول بأن « أنا أكون أنا » ، فهو يرى نفسه أولا ويتعرف عليها في الآخرين . فبطرس لا يكتسب هويته كانسان الا بأن يقارن بين نفسه وبين بولس بصفتهما من نوع واحـــد » (٢) .

ولكن الماركسية تمضي قدما الى ما يتجاوز حدس فيورباخ حول « أنا وانت » . **فلماذا نقف عند الثنائي فحسب ؟** لقد بدأ الانتقـــال من « الفرد الفردي » الى الثنائي في عديد من المفاهيم الجديدة التي كانت العلاقات بين الناس فيها أكثر جوهرية وأهمية من الانسان ، نتاج هذه العلاقات . وبناء على ذلك أصبح الثنائي ، أيضا ، تجريدا . وكانت الخطوة التالية والحتمية هي التعاليم الماركسية عن المجتمع . فروبنسون وفرايداي ، وبطرس وبولس ، ليسا مجتمعا . وعلى نفس النحو ، **ففي النظام المتطور للانتاج السلعي لم تعد كل سلعة تقارن بسلعة واحـــدة أخرى ، حتى وان كانت الذهب ، وانمـــا أصبحت تقارن من خلال الذهب بكافة السلع المطروحة في السوق في اي لحظة من اللحظات** ، وبطرس لا يتعرف على طبيعة ذاته من خلال بولس الا لأن الأخير لديه مجتمع من ورائه ، لديه حشد من الناس يشكلون **كلا متكاملا من**

---

(١) ج . ف . بليخانوف ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) كارل ماركس ، رأس المال ، المجلد ١ ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٥٢ .

نتاج نظام معقد للعلاقات ، ويقسم ماركس وانجلز هذه العلاقات الى علاقات اساسية وعلاقات مشتقة او فرعية ، مع التركيز على العلاقات الاقتصادية بصفتها القاعدة التى تنبثق منها البنية الاجتماعية ، وهكذا يمكننا القول ، مجازيا ، ان سماء رحبة مرصعة بالنجوم حلت محل النجم المزدوج ، ولم تعد « انا وانت » هى الخلية الانسانية الأولية ، لان فيضا متدفقا من مجموعات « نحن » و « انتم » و « هم » اتخذ مكانه الآن على المسرح .

ورغم ان العلوم الاجتماعية ككل مازالت تواصل مسيرتها على هـذا الطريق ، ومنذ وقت طويل ، الا انه مازال على علم النفس الاجتماعى أن يحث الخطى حتى يلحق بالفروع الأخرى من العلوم التى تدرس الانسان الاجتماعى والمجتمع الانسانى . وان كان خصوم علم النفس الاجتماعى يقفزون من فوق عتبة مفهوم التجربة النفسية « الثنائية » وكأن هذه التجربة تفضى من المخ الفردى ، بالفعل ، الى سيكولوجية مبهمة « داخـل الذات » ، الا انهم لم يستطيعوا اتخاذ قرارهم الحاسم الذى لا رجعـة فيه الا بقدر ما يمكن للاقتصاديين البورجوازيين ان يتخلوا عن اعتمادهم على مثال روبنسـون وفرايداى وتصوير المجتمع بأنه حشد من العلاقات الأولية ، أو حشـد من الثنائيات ، اى من العديد من أمثال روبنسون ، والعديد من أمثال فرايداى .

ولا يمكن استعارة منهج علم النفس الاجتماعى بأكمله من الاقتصـاد السياسى الماركسى أو من أى فرع آخر من العلوم الاجتماعية ، فلهذا المنهج خصائصه المميزة ، وان كانت القوة الموجهة مشتركة فيها جميعـا ، وهى الانتقال من التجـارب النفسية « الثنائيـة » ، الى التجـارب النفسـية « الاجتماعيـة » .

ولنترك الجانب الفسيولوجى الى حين ، ونعنى به الكلام ، تلك الآلية المتوارثة فى النشاط العصبى الأعلى والتى تدمج بين عقول الملايين من الناس بنفس الدرجة من الفعالية التى يندمج بها نصفا كرة المخ داخل الجمجمة ، ولنركز حديثنا الآن على الجانب السيكولوجى على وجه الخصوص .

واذا اردنا أن نرى ما اذا كان من المتصور وجود سيكولوجية اجتماعية من ناحية المبدأ ، علينا أن نحل « نحن » و « أنتم » و « هم » كمفاهيم أساسية محل « أنا » و « أنت » و « هو » .

وتؤكد قواعد اللغات جميعا الحقيقة السيكولوجية التى تقول بأن الكلمات متحدة الاشتقاق ، وأنها تصرف ، فى بعض اللغات على الأقل ، مع ثلاثة ضمائر (نحن نذهب ، أنتم تذهبون ، هم يذهبون) وليس مع ضميرين . وبالاضافة الى ذلك هناك لغات (مثل اللغات السامية) تصرف فيها الاسماء مع ضمائر الملكية : ملكنا نحن ، ملككم أنتم ، ملكهم هم (أو فعلنا نحن ، وفعلكم أنتم ، وفعلهم هم) . ويصنف جميع الاشخاص والعلاقات التي يمكن تصورها الى هذه الفئات الثلاث ، أولا وقبل أى شىء . **والاكثر من ذلك ، ان بعض الشعوب البدائية لديها صيغة الجمع وحدها وليس لديها صيغة المفرد** ، ويحلل انجلز هذه الحقيقة فى عبارة محددة فيقــول : « ظلت **القبيلة** هى الحــدود التى لا يتجاوزها الإنسان سواء فى علاقته بنفسه أو بالآخرين . ومهما كان اعجابنا بهذه الشعوب ، الا أنها لم تختلف عن بعضها البعض من اى وجه من الوجوه ، ومازالت ، كما يقول ماركس ، مقيدة بالحبل السرى للجماعة البدائية » (١) .

واذن ، فلنرجع الى اقدم علاقة تم التعبير عنها بصيغة الجمع . عند فيورباخ ، لابد أن الشكل الأول كان « نحن وأنتم » . واما عندما نحلل المسألة تحليلا أعمق فسوف نصل الى نتيجة غير متوقعة : وهى أن **« أنتم (وانت) » مقولة مشتقة تطابق مرحلة تالية من « نحن » و « هم »** .

وعلم النفس الاجتماعى لا يصبح علما الا أن تصبح « نحن وهم » (أو « هم ونحن ») هى الظاهرة النفســية الأولى بدلا من « انا وانت » ، **والا عندما تحل العلاقة بين جماعتين محل العــلاقة بين فردين** . والشــخص الثانى « أنتم » (أو أنت) يتولد بالضرورة من هذه العلاقة الأولى ، وبالتالى

---

(١) ك . ماركس ، و ف . انجلز ، « المؤلفات المختارة » المجلد ٢ ، موسكو ١٩٦٢ ، ص ٢٥٥ .

يمضي بهذه العلاقة خطوة أخرى الى الامام . **انه ينبثق من الاتصال بين « نحن » و « هم » وهو نتاج لجدلية العلاقة بينهما .**

ولكن كيف تتغلغل الجماعة في وعي الأفراد ؟ فلنأخذ جماعتين بدائيتين — أسرتين أو قبيلتين . فلو لم يحدث أي **لقاء** على الاطلاق بين الجماعتين ، **فلن يحدث لأي فرد من الجماعة « ١ » أن يعي بانتمائه الى جماعة** . ولما كان الأفراد لا يختلفون في شيء عن بعضهم البعض داخل الجمـاعة ، فلذلك لن يمكنهم التمييز بين أشباههم وبين أي آخرين . وكانت تلك مجرد جماعة موضوعية . وقبل أن يصبح في الامكان ظهور « نحن » ذاتية ، كان لابد للأفراد الذين تتكون منهم « نحن » هذه أن يتقابلوا « هم » من نوع ما ، وأن يقيموا حدا فاصلا بين الجانبين . ان « هم » ، ذاتيا وسيكولوجيا ، لا تزال أكثر أولية من « نحن » . ولذلك ، **ينبغي أن نعتبر ظهور مفهوم « هم » في المخ البشري هو الفعل الأول للسيكولوجية الاجتماعية .**

ويوضح تاريخ المجتمع البدائي وغيره من الأحقاب أن مفهوم « نحن » يتم التعبير عنه بشكل شاحب في بعض الأحيان ، بل وقد لا يكون له وجود على الاطلاق ، بينما مفهوم « هم » يتم التعبير عنه دائما بشكل واضح وقاطع . ان « هم » ليست هي « ليس نحن » ، وبتعبير أدق ان « نحن » هي « ليس هم » . **ان معنى « هم » يولد الرغبة في تأكيد الذات ، أي في الانفصال عن « هم » على شكل « نحن » .**

و **« هم »** في بادىء الأمر أكثر خصوصية وواقعية ، وترتبط بأفكار محددة مثل البؤس الناتج من غزوهم **« هم »** ، وعدم قدرتهم **« هم »** على فهم الكلام « الانساني » .. الخ ، ان مفهوم « هم » ليس في حاجة الى تشخيص في صورة رئيس أو مجموعة من كبار السن أو تنظيم . والواقع أن « هم » كانت تمثل **تعددا** وليس جماعة بالمعنى الخاص للكلمة .

وتوضح الحالات النفسية التي تنتاب الطفل مدى قدم هـذه التجربة وراثيا . فالأطفال لديهم القدرة على تمييز جميع « الغرباء » ، رغم أن هـذا التمييز يحدث اتفاقا بالطبع ، لأنهم لا يميزون بين الغريب الضار والغريب غير

الضار ، الخ . فالاطفال لديهم آلية نفسية بالغة القوة ، تستجيب على الفور لأي محاولة للاتصال من جانب اي « غريب » ، فتثير مجموعة معقدة من ردود الفعل الخاصة ، بما في ذلك الدموع والبكاء والصراخ ، او بعبــارة أخرى « تدعو » الطفل الى « السيطرة على حواسه المدركة سيطرة كاملة » .

أما « نحن » ، فهي اكثر تعقيدا ، واكثر تجريدا ايضا بمعنى معين . فلقد كان الجميع يدركون وجود الجماعة التى عاشت فى العصور البدائية ، وما بين افراد هذه الجماعة من روابط ، من خــلال التشخيص (واضفاء الصفات البشرية على شيء ما او على مفهوم تجريدى) ، او من خلال الطقوس والعادات التى تؤكد انتماءهم لجماعة متميزة عن « هم » .

ومن الجدير بالملاحظة فى هذا الصدد أن « نحن » فى المجتمع البدائى كانت تعنى الناس دائما ، وبالمعنى المباشر ، اى الناس عموما ، بينما كانت « هم » تعنى « شيئا آخر ليس كالناس تماما » . وأما ما كانت القبائل والناس يطلقونه على أنفسهم فهو ما يمكن أن يترجم الى « الناس » . ومن هنا يتبين لنا أن « نحن » ، سيكولوجيا ، ليست بالمقولة البسيطة ، وليســت مجرد ادراك لروابط حقيقية ، وليست مزاملة عادية بين عدد من الأفراد . والأمر قد يبدو على هذا النحو لأول وهلة . ولكن الواقع أن هذا الادراك لا يتحقق الا من خلال الانتقال الى المرحلة الثانية من مراحل عملية جدلية : حيث « نحن » تمثل الذين ليسوا « هم » ، وحيث يمثل أولئك الذين ليسوا « هم » البشر الحقيقيين .

ومما لا شك فيه ان المسالة لم تتخذ هذا الشكل الا فى فجر التــاريخ السحيق ، وفى أزمنة تخرج عن نطاق رؤيتنا . أما ما يدخل فى نطاق رؤيتنا حقا فهو فى الاساس من نتاج التاريخ : انه الانواع المختلفة من « نحن » ، وادراك الانسان لانتمائه لجماعة ما . وكلما ابتعدنا عن العصر البدائى ، كلما تبادلت « هم » و « نحن » الادوار : فالانسان يكتسب وعيه السيكولوجى بالجماعات المختلفة بالتمييز بين نفسه ، ليس وبين اى « هم » محددة ، وانما بالتمييز بين نفسه وبين كل أولئك الذين ليسوا « نحن » .

وربما كان الأفضل ان نفترض أن الجماعة الأصلية هى تلك الجماعة التى يمكننا التسليم بوجودها انتهل من غيرها ، أى مجموعة من الناس يرتبطون ببعضهم البعض ، مجموعة من أصل واحد ، يعرف افرادها بعضهم بعضا ، وتجمع بينهم الحياة المشتركة والصيد المشترك . **ولكن غالبا ما يحدث أن يكون الامر الذى يسهل التسليم به أكثر من سواه ، ليس هو الصحيح موضوعيا فى جميع الأحوال** ، واذا سلمنا بأن أبسط الجماعات الانسانية كانت ترتبط بعلاقة الدم ، وهى علاقة لا توجد فى المخ ، فكيف نفسر أن علاقة الدم ، فى حالة القبائل والناس فى المراحل المبكرة من تطورها ، كانت فى أغلب الأحيان من نسج الخيال ، اى علاقة وهمية يقصد بها تبرير اتحاد الناس فى القبيلة . ولقد كان الناس يدعون انهم أسلاف حيوان معين ، أو حيوان من فصيلة خاصة ، او اسلاف جد خيالى ، أو قد ينتسبون الى شخص ينتمى لقبيلة أخرى بعد القيام بطقوس خاصة يقال بعدها أن هذا الشخص — ذكرا كان أم أنثى — اصبح هو التشخيص لجد قديم ، ومفهوم علاقة الدم ، حتى فى أدنى مراحل الطوطمية (١) ، ليس بالعلاقة الطبيعية على النحو الذى يتبدى به لأول وهلة . وان كانت فكرة « جماعة العمل البدائية » فكرة يسهل فهمها ، ولكن : ترى من هو الشخص الذى كان يسمح له بالانتساب اليها ، ومن الذى كان يرفض انتسابه ؟ ومرة أخرى نصل الى الحلقة المفرغة حتى نسلم بوجود « هم » كمقولة أولية سيكولوجية .

واذا توغلنا الى الوراء ، الى ما هو أبعد من ذلك ، فربما أصبح من المحتم ان نسلم أيضا بأن هذا الانفصال الأول ، أو ان جاز القول هذا الانفصال الأولى السيكولوجى عن « هم » من نوع ما ، انما **يعبر عن وجود الانسان على الارض جنبا الى جنب مع اسلافه البيولوجيين ، انسان العصر الحجرى القديم** (انسان نياندرتال) . كما يمكننا القول أيضا بأن هؤلاء الأسلاف كانوا يمثلون

---

(١) الطوطمية = الايمان بوجود صلة خفية بين جماعة أو شخص وبين الوطم ما .

الطوطم = شىء (حيوان او نبات) يتخذ رمزا للأسرة أو العشيرة .

نفايات منبوذة خطيرة « غير انسانية » أو « شبه انسانية » . وتحاول هذه الفرضية ان تثبت ان **العلاقة السيكولوجية الانسانية الأولى لم تكن هى الادراك الذاتى لوجود جماعة قبلية بدائية ، وانما كانت هى الموقف الذى اتخذه الناس من اسلافهم الأقربين اشباه الحيوانات ، وهو الموقف الذى دفعهم الى اعتبار أنفسهم بشرا ، وليس اعضاء فى الجماعة التى تضمهم** . ولم يحدث الا بعد انقراض انسان العصر الحجرى القديم ان انتشر هذا المثال السيكولوجى الى العلاقة بين المجموعات ، والجماعات ، والقبائل ، ومن ثم الى كافة التكوينات المتماثلة فى اطار النوع البيولوجى للانسان المعاصر .

ومن المرجح أن هذا العامل — اى العلاقة مع انسان النياندرتال — تغير دوره كثيرا فى مجرى التاريخ الانسانى ، فأعقبت فترات الابادة المتبادلة فترات من التشتت ، وفترات من التكافل واللقاءات عند الحدود (فى العصرين الحجرى الحديث والقديم على الأرجح) ، اعقبتها مرة اخرى فترات من الانفصال (١) . ومن الجائز ان هذه الفترات تقابل ما تحقق من تطور فى التاريخ الثقافى للبشرية . ولكن من الثابت أيضا ، ويتأكد ذلك كلما مضينا قدما مع مسيرة التاريخ ، ان انسان العصر الحجرى انقرض وبالتالى أخذ دور هذا العامل فى الشحوب ، الى أن انتهى فى خاتمة المطاف بالتلاشى تماما . ولكن عندئذ ، نطرح هـــذه الفرضية بصفتها مجرد الدفعة الأولى ، لنبين أن **مركز الثقل كان ينتقل اكثر فاكثر من « هم » الى « نحن »** .

لقد أصبحت « نحن » هى الشكل السيكولوجى العام للاحساس بالذات لكل من يحمل هوية الانسان ، ورغم ذلك ، تفترض « نحن » دائما التمايز عن « هم » ، سواء كانت « هم » هذه محددة أم غير محددة .

ومرت آلاف السنين قبل ان يخطر على بال الانسان أن « نحن » يمكن أن تعنى البشرية كلها ، **ومن ثم فهى لا تقف فى مواجهة اى « هم »** .

---

(١) انظر ب . ف . بور شنيف ، الوضع المعاصر لمسالة موسكو ، ١٩٦٣ .

٣ — الجماعات

سبق أن أوضحنا أن علم النفس الاجتماعى يستخدم مفاهيم مثل « الجماعة » أو « العشيرة » أو « المجموعة » ، دون أن يؤدى به ذلك الى الخروج من حظيرة علم النفس .

ويستمد علم النفس الاجتماعى أصوله من تجريد التعدد اللانهائى لأشكال الوحدة البسيطة أو الخلية الفردية ، أى من الجماعة . والواقع أن النظرية العامة لعلم النفس الاجتماعى ليست الا تحليلا سيكولوجيا شاملا لهذا المفهوم الخاص بالجماعة المركزية .

وقبل أن نتصدى للجانب الذاتى ، ينبغى أن يكون واضحا أن هناك أشكالا لا حصر لها من الجماعات التى تتفاوت فى محتواها الاجتماعى الموضوعى ، وطبيعتها ، ونمطها . وقد يتراوح حجم الجماعة من شخصين الى أمم كبيرة ، وشعوب ، وطبقات ، بل والى اتحادات تجمع بين عدة شعوب أو طبقات . وقد تكون الجماعة دائمة (مثل الجماعة التى تستند الى أسس اقتصادية وتاريخية ثابتة) ، أو قصيرة الأجل ، مع العديد من المراحل الانتقالية بين هذا النوع وذاك ، وربما غطت الجماعات مساحة ضئيلة أو كبيرة من الأرض ، أو ربما كانت غير مرتبطة بأرض محددة . كما قد تكون الجماعة كثيفة أو مشتتة يتوزع أعضاؤها فى ثنايا شعوب أخرى .. أما العلاقات بين الجماعات فهى شديدة التنوع ، وتتفاوت من العلاقات القائمة على التناقض والعداء السافر ، الى المباراة الودية كشكل من أشكال العون المتبادل .

وقد ينتمى الفرد الواحد الى أكثر من جماعة واحدة فى نفس الوقت ، كأن يكون ، مثلا ، مواطنا من مواطنى الاتحاد السوفيتى ، ومنتميا لأحد شعوبه ، وعضوا فى الطبقة العاملة ، ومنضما للحزب وللنقابة ، وعضوا فى أسرة أو ناد أو حلقة أو جمعية ، ويشارك فى حركة دولية ، وينخرط ضمن مجموعة من الأصدقاء ، ويشترك مع المستمعين فى قاعة الموسيقى ، ويساهم

فى رحلة قصيرة ، او جولة للسير على الإقدام ، الخ . ولكنه لا يمكن ، مهما كانت الحال ، أن ينتمى فى وقت واحد لطبقتين متناقضتين أو لنظامين اجتماعيين متعارضين ، الخ .

ويوضح هذا التعداد المقتضب ان الجماعات الانسانية لا حصر لها ، وانها متعددة الاشكال ، منها الثابت ، ومنها قصير الأجل ، الأمر الذى يحير ويربك علم الاجتماع وعلم النفس البورجوازيين . والجماعات جميعا متشابهة من وجهة نظر علماء الاجتماع البورجوازيين . ويضع **« علم قياس العلاقات الاجتماعية »** الحديث (١) اسرع الجماعات زوالا فى المقدمة : وهى الجماعات التى تتكون من شخصين أو ثلاثة ، والتى يجمع بين اطرافها التعاطف المتبادل أو التجانب . وفى مواجهة هذا المنحى ، يفتح « علم اجتمـــاع الجمـــاعات الصغيرة » آفاقا مبشرة لاجراء الاستطلاعات الاحصائية الواسعة والخروج منها بنتائج تستند الى المنطق . ولكن النتائج ما زالت ضئيلة فى هذا المجال .

وعلم النفس الاجتماعى الخاص بالمجموعات الصغيرة ليس علم اجتماع بالمعنى الكامل للكلمة ، لأنه لا يتناول الجمـــاعة الا كمجرد مجموع عـــددى لسيكولوجية الأفراد . وهو يذهب الى أن كل شخص ، ولأسباب لا يمـــكن تفسيرها علميا ، أو انطلاقا من تطوره الواعى أو غير الواعى ، يميل لبعض الأشخاص الآخرين وينفر من البعض الآخر . ويقول ج . مورينو امام المؤتمر الثامن عشر لعلماء النفس الذى انعقد فى موسكو فى عام ١٩٦٦ انه نجح ، استنادا الى هذا المفهوم ، فى اكتشاف حقيقة « المجتمع » ، بل ويكاد يعترف بأن علم الاجتماع اصبح علما بالفعل ، بينما لم يكن « المجتمع » فى المـــاضى الا خيالا ، لأن الكينونة الوحيدة التى كان يعترف بها لم تكن تتمثل الا فى عدد معين من الأفراد . اما الآن ، فقد تم اخيرا اكتشاف ان الفرد يمكن ان يتعاطف مع بعض الناس فى نفس الوقت الذى يتعمد فيه الابتعاد عن آخرين . وهذه ،

---

(١) أنظر ج . ل . مورينو ، « علم قياس العلاقات الاجتماعية ، منهاج تجريبى وعلم للمجتمع » ، نيويورك ، ١٩٥١ .

كما هو واضح ، هي القاعدة المادية للمجتمع ، ويتبدى الجانب النفسي لهذا العلم الجديد على السطح عند دراسة أوجه التشابه الأقل اهمية التي تعرضها الحياة . وهناك مناهج خاصة تستخدم لقياس مدى تطابق او عـــدم تطابق تركيب هذه المجموعات مع التجمع النفسي البحت للناس وفقا للميول الفردية . ويقدم علم نفس الجماعات الصغيرة خدماته لأصحاب الأعمال من أجل تشكيل فـــرق العمل ، وللقـــوات المسلحة من اجل تشـــكيل الفرق ، وللمـــدربين ومديرى الفرق الرياضية عند اختيار الفريق ، الخ . والكتابات التى تتناول هذه الأفكار كثيرة بل وشديدة الانتشار ، ورغم ذلك ، فالخلفية النظرية التى تستند اليها مضحكة ومنافية للعقل : **فما هى ، حقا ، الخلفية النظرية للصفات الانتقائية للفرد فى مواجهة الناس الذين يعيش بينهم فى بيئة واحدة ؟** ومهما بلغ تعقيد كل حالة على حدة ، فأساس هذا الانتقاء هو **المقارنة مع نموذج** . وقد يبدو لنا أن شخصا ما داخل مجموعة من الناس اقرب الى النمط المألوف من الآخرين ، اى أنه ، هو أو هى ، يولد الاحساس بالألفة لدى الآخرين . وقد يرجع اختيار الشريك او الرفيق أيضا الى اكتشاف احساس مشترك بالقيم ، أو بتفضيل انماط معينة من السلوك او العادات ، الخ .

وهناك أيضا درجات اكثر تعقيدا من التقدير : فالفارق الصـــارخ أو الخصوصية المتميزة (بما فى ذلك ما يتعلق بالمظهر) تولد لدى الآخرين الرغبة فى تحويل الشخص من « هو » (أو « هى ») الى « انت » (أو « انت ») ، اى **احتوائها فى « نحن » الخاصة بنا** ، والتى تختلف عنها هو أو هى اختلافا واضحا ، وكثيرا ما تنبثق الصداقة والحب بفعل هذا البديل الثانى ـــ وهـــو اقتران « نحن » و « هم » . ومن هنا ، فالتفضيل الشـــخصى ليس بالحجر الأساسى غير المنطقى لعلم النفس الاجتماعى ، لأن هذا التفضيل الشخصى يعنى توفر السبب ، وان لم يواكبه الجهـــد اللازم لتفهم الأعماق البعيـــدة للشخصية . اننا نربط ، على نحو غامض ، بين بعض الناس المحيطين بنا وبين شىء « منا » ، بينما نربط بين البعض الآخر وبين اشياء « غريبة » عنا أو « ليست منا » . ولكل ذلك ، فهذه المقولات اولية بالنسبة لعلم النفس الاجتمـــاعى .

ولنفس الأسباب لا يمكن لعلم النفس الاجتماعى أن يعتبر التجمعات النفسية البحتة ، التى لا تستند الى اى قاعدة اجتماعية اقتصادية ، جماعات أولية وأساسية .

ويكمن سبب الفشل فى المفهوم المثالى . وليس للمادية أن تنكر هذا التنوع الشديد للجماعات ، ولا أن بعضها سيكولوجي بحت ، وانما ينبغى أن تؤكد أن الجماعات المقابلة للتيارات المادية والموضوعية للتطور الاقتصادى والصراع الطبقى والحياة الاجتماعية السياسية ، هى وحدها الجماعات الثابتة ، والمستديمة ، والهامة تاريخيا .

اذن فالجماعات السيكولوجية البحتة ، أو السيكولوجية أساسا ، والتى تظهر وتختفى بلا توقف ، ليست — تاريخيا — **الا آلية استطلاعية للتطور التلقائى . وليس هناك فى المادية التاريخية ما يعنى أن الظواهر التلقائية لابد ان تتخلف بالضرورة وراء التغيرات الاقتصادية أو الاجتماعية ، والتى تجسدها فى خاتمة المطاف . فنشأة التكوينات الاجتماعية السيكولوجية الانتقالية الجديدة لا تتناقض مع المادية باكثر مما يتناقض السلوك الايجابى ، أو أسلوب « المحاولة والخطأ » الخ ، مع فسيولوجيا النشاط العصبى الأعلى .** والفسيولوجيا المعاصرة أبعد ما تكون عن الفكرة التى كانت تذهب الى أن جسم الحيوان لا يؤدى من الحركات الا ما يأتى الباعث عليها من الخارج ، مدفوعا بضرورة بيولوجية واضحة . فالجسم يؤدى عددا لا حصر له من عمليات الاستطلاع والاستكشاف ، ولا يتوقف عن البحث (وعلى نحو مسرف للغاية) ، لأنه بدون ذلك لا يمكن لردود فعله أن تتكيف سواء مع ما يطرأ على البيئة من تغيرات ، أو مع ما يجرى من تغيرات فيه هو نفسه . **وهذا الجهاز المتخصص فى الاستطلاع والاستكشاف والتنبؤ لا يتناقض مع مبدا الحتمية ،** بل وعلى العكس من ذلك ، انه يساعد على ازاحة النقاب عن كيفية تدعيم هذه الحركات التى يؤديها الحيوان دون سواها ، **وتحويلها انتقائيا الى افعال منعكسة شرطية تتفق تماما مع اقصى درجات الاطراد السببى .**

ومن الطبيعي أنه ليس هناك أى تماثل وظيفي مباشر هنا فيما يختص بالعلاقة بين الاتحادات النفسية غير الثابتة التى تظهر فى كل وقت وبلا توقف ، وبين الجماعات الانسانية التى تفرضها أو تحتم وجودها ، مقتضيات — قوانين التطور الاجتماعى الاقتصادى ، وانما المقصود مما سبق أن نثبت زيف ما ينادى به علم الاجتماع البورجوازى . وان كانت الحقائق المادية التى يتمكن هـذا العلم من جمعها احيانا حول الاتحادات الصغيرة قصيرة الأجل ، والتى لا تستند الى أى أساس تاريخى أو اقتصادى ، مما لا ينبغى اغفاله واسقاطه من حساباتنا تماما ، الا أنه من واجبنا أن نرد الأمور الى نصابها : فهذه الجماعات ليست هى أساس الجماعة الانسانية او نمطها المعيارى وانما هى **نوع لا محتوى له يظهر ويمتد على الدوام كقرون الاستشعار التى تستخدم للاستطلاع واستكشاف الطريق** ، وهى لا تكتسب المحتوى الموضوعى العام الا اذا توافرت الظروف الملائمة لذلك .

وهذا الشكل هو الذى نعبر عنه بالمبدأ « نحن وهم » . ولابد لهذا المبدأ الكلى الكامن وراء التكوين النفسى للجماعات أن يتجسد ، بدرجة أو أخرى من القوة ، حتى يصبح فى الامكان تكوين حتى أكثر الجماعات والاتحادات والمجموعات خضوعا فى تكوينها للحتمية التاريخية والظروف الموضوعية .

ويمكن تقسيم الجماعات قاطبة الى أربع فئات على وجه التقريب ، وان كان العاملون فى مجال علم النفس الاجتماعى كثيرا ما يقسمونها الى فئتين وحسب : وهما الجماعات الكبيرة والجماعات الصغيرة ، ولكن من الواضح أنه من الأقرب الى الصواب أن نفرد مكانا خاصا للمجموعات العملاقة ، أى المجموعات أو التنظيمات او الحركات العالمية . ونحن لا نعنى بذلك البشرية وحدها كمجموع كلى لعديد من العناصر المتفرقة ، وانما نعنى بها أيضا الاتحادات العالمية القائمة على أساس التماثل الطبقى ، أو المهنى ، أو العلمى ، أو السياسى ، مثل حركة السلام العالمى . وعلى نفس النحو ينبغى ايضا تصنيف الحركات العالمية من اجل حماية الطفولة ، ومن أجل مساواة المرأة بالرجل ، ومن أجل القضاء على التفرقة العنصرية ، ومن

اجل النضال ضد الجوع ، الخ ، وكذلك الأديان العالمية مثل المسيحية ، والاسـلام ، والبوذية . وكما يقول العالم الالمانى و. فردريك ، فالطبقات والفئات الاجتماعية ، والمجموعات القومية ، والمحلية ، والجنسية ، والمهنية ، والايديولوجية ، والمدرسـية ، والسنية ، تدخل جميعـا تحت تسميـة المجموعات الكبيرة (١) . وبالرغم من عدم اكتمال القائمة ، الا انها تـكفى لتسليط الأضواء على حقيقة هذا النـوع من الجماعات ، واما بالنسـبة للمجموعات الصغيرة فهى تشمل الجماعات الصغيرة المنظمة الثابتة مثل العائلات ، وفرق العمل ، الخ ..

ولكن هناك بعض الكتابات التخصصية التى لا تدرج ضمن المجموعات الصغيرة الا الاتحادات السيكولوجية البحتة التى لا تضم الا عددا ضئيلا من الأفراد على اساس الانتقاء ، أو التعاطف ، او التفضيل ، ويدور حول هذا النوع من الجماعات ، وهو أقلها مادية بطبيعته ، فيض متـدفق من الكتابات الاجتماعية النفسية واسعة الانتشار . واخيرا ينبغى ألا نغفل تسليط الأضواء على نوع من الجماعات من مرتبة أدنى من ذلك ، بمعنى أنه لا يتكون حتى من افراد ، وانما يتكون مما يجمع بينهم من أفكار وتجارب وأنماط للسلوك ، ويمكننا ان نطلق على هذه الجماعات تسمية الجماعات المتناهية فى الصغر ، والتى تشمل على وجه الخصوص انواع السـلوك التى تندرج تحت وصف « الاكتسـاب » ، أى التوحيد حول فكرة ، سواء جمع هذا التوحد بين شخصين ، أو ثلاثة ، أو اربعة ، أو جوقة موسيقية ، أو فرقة منشدين . وتتراوح استمرارية هذه الجماعة بين اللحظة العابرة (سلوك الاكتسـاب) والدوام (الاشتراك فى المعتقدات) .

ومما لاشك فيه أن هذه الفئات فضفاضة ومتداخلة بالفعل ، وسوف نرى فى كل منها أن الجماعات تستمد أصولها من القوانين الموضوعية للحياة الاجتماعية ، بل والأكثر من ذلك انها جماعات ذاتية ، بل وذاتية تماما ، ومن ثم فهى جماعات غير ثابتة ..

---

(١) أنظر و . فردريك ، « حول العلاقة بين انماط السلوك وانواع المجموعات الكبيرة » ، موسكو ، ١٩٦٦ ، المجلة الفلسفية العدد ٤ .

ويستند علم الاجتماع الماركسي الى القوانين التى تحكم نشأة وتطور تلك الجماعات مثل الطبقات والأحزاب ، والأمم ، والقوميات ، لأن التعرف على هذه القوانين هو المدخل الوحيد لا ستكشاف اسرار التكوينات الأقل عمقا او الأقصر عمرا ».

تلك هى الأطر السيكولوجية التى ينبغى الا تغرب عن بالنا عند تطوير وتعميق علم النفس الاجتماعى . ومهما يكن من أمر ، فهى ليست موضوعه ، وانما مجرد احدى المقدمات المنطقية العلمية .

وتنتقل بنا فئة مختلفة تماما من الجماعات — وهى المجموعات التى يربط بينها مزاج معين — الى أعماق علم النفس الاجتماعى كعلم .

ولنأخذ على سبيل المثال تلك الظاهرة التى لا يكاد يكون لها اى اهمية من الناحية التاريخية ، وهى « الموضة » . فهذه ، الظاهرة تحظى باهتمام علماء النفس فى الغرب اساسا بسبب مالها من أهمية تجارية نفعية ، أما بالنسبة لنا فهى مثال مناسب للغاية يتفق تماما مع ما نسعى الى تأكيده من حقائق . فالأشخاص الذين يتبعون الموضة قد لا ينتمون الى اى جماعة سيكولوجية . ولكنهم لا يشكلون أيضا مجرد جماعة احصائية بحتة ، لأنهم لا يتبعون الموضة مستقلين عن بعضهم البعض تحت تأثير حافز متطابق ، وانما يتبعونها من خلال المحاكاة أو الاتصال المباشر بين بعضهم بعضا ، ويمكننا القول بأن العدوى تنتقل فيما بينهم . فالموضة هى بالضرورة محاكاة متبادلة . ومهما كانت العناصر التى تنتمى لعالم المزاج ، أى لعلم النفس الاجتماعى ، فهذه العناصر ليست هى الأشياء أو التصرفات المسايرة للموضة،وانما الذى يعنى علم النفس هو « النزعة الى التصرف وفقا للموضة» فليس الجانب الايجابى هو المهم بالنسبة لعالم النفس ، وانما الجانب السلبى . فالناس لا يجذبهم جمال الأشياء الجديدة أو مزاياها ، وانما الذى يجذبهم هو النزعة الى التمايز عمن « لا يسايرون الموضة » .

فالتغيير المستمر للأشياء التى تتفق مع الموضة ، يميز من يتصرف على هذا النحو عن أولئك الذين يواكبونها ويتتبعون خطاها بنفس السرعة . ومن هنا ، يمكننا القول بأن أولئك الذين يتبعون آخر صيحات الموضة يشكلون نوعا من الجماعة الاجتماعية السيكولوجية ، وهى جماعة غير متبلورة وغير ثابتة الى أبعد الحدود . انها مجرد نسمة هادئة فى خضم التيارات الأكثر قوة وعمقا للعاطفة الاجتماعية .

وعلى اى الأحوال ، فبشكل عام ، وكما سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق ، فالظواهر الاجتماعية النفسية تتراوح بين شكلين متميزين وهما التكوين النفسى والتحول النفسى (أى الزواج) ويشكل كل منهما مجموعة .

والتكوين النفسى يتعرض لتأثير عناصر ثابتة نسبيا مثل التقاليد ، والسمات الطبقية أو السمات الخاصة لفئة معينة ، والمهنة ، والشعب ، أو الأمة ، أو أى مجموعة اخرى . كما تمتزج السمات الثابتة للتكوين النفسى بالعادات ، أو نمط الحياة الموروث من الأجيال القديمة ومن البيئة . وغالبا ما يتم اكتساب هذه السمات دون اى اعتراض او تفكير ، ولكن يحدث فى بعض الأحيان أن يكبح أو يخنق أى اتجاه لمعارضة هذه السمات المتوارثة سواء تحت ضغط الأفكار السائدة أو نتيجة للاجبار المباشر ، وهذه المقولة النفسية متعددة الاشكال : فالسمات النفسية الثابتة لطبقة ، كالبروليتاريا أو البورجوازية على سبيل المثال ، تتشكل بطرق مختلفة عن الطرق التى تتشكل بها السمات النفسية الثابتة لجماعة عرقية ، قبيلة كانت أم شعبا . أما السمات التى لا تتخذ شكلا قاطعا ومحددا مثل الطبيعة (والتى تتكون هى نفسها من عديد من العناصر والسمات) والمركبات التاريخية الأكثر تغيرا وأن كانت تتميز بقدر من الثبات مثل العادات ، والتقاليد ، والأذواق ، والعلاقات الخاصة والسمات المستمدة من خصائص اللغة ، فتدخل كلها تحت تسمية التكوين النفسى .

ويمكننا ان نرد الثبات النسبى لهذه الجماعات الاجتماعية النفسية الى انها تندمج فيما يسمى بالثقافة ، او الثقافة الروحية على وجه التحديد ،

فالتكوين النفسى للجماعة — وهو جزء لا يتجزأ من ثقافتها — يتجسد من خلال الثقافة ، ويتوقف على الثقافة ، ويعبر عن نفسه ، كما سبق أن قلنا ، فى اللغة ، ويخضـــع لمقتضياتها فى نفس الوقت .

اما الأمزجة ، من الناحية الأخرى ، فهى متغيرة وديناميكية نسبيا ، ولكن ليس هناك أى فاصل بين الشكلين . فالتكوين النفسى يتطور ويتغير بلا توقف ، أحيانا فى بطء واحيانا فى بطء شديد ، وأما بالنسبة للتحـــولات النفسية فهى وثيقة الصـــلة بدورها بتقاليد الجماعة ، لدرجة او أخرى . وانفصال هذين الشكلين أو تعارضهما ليس مطلقا ، وانما هو من طبيعة ثانوية ، بل ولا علاقة له بالموضـــوع على الاطلاق فى بعض الحالات ، كما هى الحال عندما نتحدث عن التقاليد الثورية لطبقة أو شعب : فكلمة تقاليد توحي لنا بشىء ثابت ، بينما نحن نتناول هنا تقاليد القوى المحـــركة ، طبيعية كانت أو فكرية أو اخلاقية ، وليس ما يعنينا الآن هـــو تصنيف الأمزجة ، وانما أن نثبت ان الأمزجة ، ايضا ، نوع من أنواع الجماعة ، وان كانت جماعة من نوعية خاصة ومتميزة الى ابعد الحدود.

ويرى ب. د. باريجين أن علينا أن نتناول المزاج كمقولة من مقولات علم النفس الاجتماعى الماركسى — اللينينى (١) . واذا قطعنا خطوات ابعد فى بحثنا ، فسوف نجد أن « الجماعة المزاجية » ايضا تتراوح بين الجماعة العرضية قصيرة الأجل ، والجماعة التى تضرب بجذورها فى العـــوامل التاريخية الموضوعية ، ولقد سبق أن رأينا مدى الاهمية التى يوليها لينين للتحول فى افكار ومشاعر وســـلوك الطبقات والمجموعات الاجتماعية المختلفة نتيجة للتغيرات الاجتماعية الاقتصادية ، والتى تمهد الطريق ، بدورها ، لأحداث اجتماعية سياسية محددة **فالأمزجة هى التى تملأ دائما الفجوة القائمة بين « تاريخ الظروف » و « تاريخ الأحداث » .**

---

(١) ب. د. باريجين ، « المزاج الاجتماعى كمقولة من مقولات علم النفس الاجتماعى » ١٩٦٥ ، مثال رقم ٥ من سلسلة مقالات عن الاقتصاد والفلسفة والقانون ، الجزء الأول .

وعندما نتصدى للظواهر الثابتة لدرجة أو اخرى ، مثل الطبيعة القومية او الطبقية ، يصب علينا احيانا ان نستبين التكوين النفسى أو النظام النفسى للجماعة ، وموقفها الرافض ازاء « هم » ، ويتطلب اكتشاف **هذا التكوين أو النظام** تحليلا خاصا ، واما فى الظاهرة الدينامية او المزاج فمن السهل دائما ان نضع يدنا على الجانب السلبى ، فالمزاج يحمل شحنة سالبة واضحة ضد جانب ما من جوانب النمط السابق للحياة . ويتميز اى مزاج اجتماعى بموقف سلبى تجاه كل ما يجسد شرور الماضى والحاضر معا . والأمزجة لا تتجه دائما ، وبشكل ايجابى ، ضد شىء ما فحسب ، وانما ضد شىء ما على وجه التحديد . **وبعبارة اخرى ، فالمقولة « هم » تلعب دورها ضمنا فى تكوين هذا النوع من الجماعات .**

وقد يقال أن هناك امزجة تعبر عن الهدوء ، والقناعة ، والرضا ، والتى لا يتجه اى منها ضد اى شىء . ولكن الواقع أن حتى هذا النوع من الأمزجة **يعارض** ، وبقوة ، اى احتمال للاخلال بالوضع القائم ، انها امزجة **دفاعية** ، واى انطباع يوحى بعكس ذلك ، انما يرجع الى أن الناس **عندما يشعرون بالرضا ، ينزعون الى استرجاع ما ضيهم ، والابتهاج لما حققوا من انتصارات ، ولقدرتهم على تخطيها واجههم** من صعاب ، وقهر الأعداء الذين . اعترضوا سبيلهم . ولو لم يكن الأمر كذلك ، اذن لما كان الهدوء مزاجا ، ولكان افتقادا لأى مزاج ، اى خمودا للحواس .

وطبيعة الأمزجة الاجتماعية شديدة التنوع ، وبلا حدود ، وفقا للمحتوى الموضوعى للقوى المحركة — طبيعية كانت او اخلاقية او فكرية — فى مرحلة تاريخية محددة . فمزاج الجماهير اثناء هبة ثورية او القتال من اجل التحرر الوطنى تختلف اختلافا شديدا عن حالة السخط التى تسيطر على الناس ضد من لا يحترمون العادات السائدة ، أو ، مثلا ، عن النقمة على احد تصرفات شيخ القبيلة : ولكن مهما يكن من امر ، فهناك دائما « ضد » لا يمكن لعين أن تخطئها .

ولهذا السبب تكبت الدولة والكنيسة والأيديولوجية السائدة فى المجتمعات التى تنقسم الى طبقات متناحرة انتشار التعبير الصريح والسافر

عن مجموعة كبيرة من الأمزجة الاجتماعية ، لأن هذه الأمزجة ، كقاعدة عامة ، تنزع الى تقويض النظام القائم ، والاستثناء الوحيد الذى نلتقى به فى هذا الصدد هو عندما تتعمد الدوائر الحاكمة توجيه الأمزجة فى مسار محدد ، لصالحها بالطبع ، مثل الهوس الدينى ضد المخالفين فى العقيدة ، ومثل الشوفينية القومية والعنصرية ، ومعاداة الشيوعية ، الخ .

ويؤكد هذه الجدولة لاشكال وانواع الجماعات ، انها تتكون ، رغم تنوعها الشديد والذى لا حدود له ، **من خلال المواجهة بين « نحن » و « هم » ، وان نسيجها الاجتماعى النفسى لا يتشكل الا فى ارتباط بهذه المواجهة ايضا .**

وقد يكون احد العنصرين اكثر تبلورا وتحديدا من الآخر فى هذه المواجهة . واذن ، فعلينا أن نلقى الضوء على الحالتين المتطرفتين ، اى التى لا نستطيع أن نتعرف فى كل منهما الا على أحد العنصرين دون الآخر .

١ — كانت الأوتوقراطية الروسية والنازية « هم » شديد التنفير واثارة للكراهية والبغض بحيث توفرت فى ظلهما الظروف الملائمة لتلاقى الأفكار بين اكثر القوى والجماعات بأسا : وكانت معارضة أولئك الذين يسهل التعرف عليهم بوضوح فى « هم » هى التى دفعت مختلف القوى والجماعات الاجتماعية الى الاتحاد فى نوع مبهم وسريع التحلل من « نحن » .

ولكن معارضة الأوتوقراطية الروسية أو النازية افضت الى تشكيل كتلة من جماعات واضحة المعالم . ومن المسلم به أن الأنماط السيكولوجية التى تحكم سلوك « عامة الناس » — وقد ظهر علم النفس الاجتماعى البورجوازى وركز كل اهتمامه على وجه التحديد ، ولوقت طويل ، على دراسة سلوك « عامة الناس » — تطرح علينا الحالات التى يكون فيها احد طرفى المواجهة « نحن » و « وهم » مرفوضا ومنفرا الى اقصى حد . وربما كان هذا التأثير البورجوازى هو المسئول عما انتهى اليه الأمر من ارتفاع سيكولوجية أكثر الجماعات هلامية الى مستوى النمط السائد .

وسواد الناس غالبا ما يمثلون مجرد تجمع لعدد من الأفراد . وقد لا توجد بينهم اى روابط داخلية ، ولا يتحولون الى جماعة الا لسبب واحد دون سواه ، وهو **خضوعهم لسيطرة عاطفة سلبية ومدمرة متماثلة موجهة ضد بعض الأشخاص او الأفكار او الأحداث** . وباختصار ، فسواد الناس كثيرا ما يشكلون جماعة **لمجرد كونهم يعارضون « هم » أو يقفون ضد « هم »** . ولا جدال فى ان هذا هو أول أشكال الجماعة الاجتماعية النفسية وأكثرها بدائية .

وهذا الاختيار المتعمد لموضوع الدراسة من جانب علم النفس الاجتماعى البورجوازى يقطع سلفا بما يمكن أن تفضى اليه من نتائج ، **بل والواقع ان النتائج التى يراد التوصل اليها هى التى حددت هذا الاختيار** . وعندما ازدادت المخاوف من تنامى الحركة الثورية للجماهير فى بريطانيا وفرنسا والمانيا ، خرج علماء الاجتماع البورجوازيون بنظريات متشابهة تذهب الى أن سيكولوجية سواد الناس ، أو جمهرة الناس ، سيكولوجية بدائية ، بل وحتى مرضية . ويزعم لى بون ، وتاردى ، وسيجيل ، أن التفكير النقدى يسفد بانتمائه لسواد الناس ، وأن الفرد لا يصبح قادرا على العمل المدمر الا ضد شخص ما (« هم » !) . وهم يرجعون الجانب الحاسم الى رد الفعل الناجم عن المحاكاة ، اى الى العدوى النفسية (« نحن » !) . ولذلك ، نجدهم يفسرون السلوك التلقائى لسواد الناس بأنه ينتج ، من ناحية ، من تحريض العناصر التى تقوم بالاثارة ، ومن ناحية اخرى من ردود الفعل الناتجة عن المحاكاة (اى **التناسل** ، أو العودة الى صفات الأسلاف التى ابتعدت عنها الأنسال السابقة) والمتوارثة فى الحيوانات التى تعيش على شكل قطعان .

وينبغى الا يقتصر نقدنا لهذه الأفكار المتخلفة التى يستند اليها علم النفس الاجتماعى البورجوازى على دحض المعلومات التى يعتمد عليها هؤلاء الكتاب ، وانما يجب أن يمتد النقد أيضا الى فضح **الاختيار غير العلمى لموضوع الدراسة** : فمن المتعذر أن نلتقى فى واقع الحياة بمثل هذا السواد

« المثالى » من الناس ، أى بمجموعة هلامية عشوائية من الناس . وعلى أى الأحوال ، فليس هناك أى وجه للشبه بين مثل هذه المجموعة ، إن وجدت ، وبين سواد الناس أو الجماهير التى يجمعها التجانس استنادا الى الخلفية الطبقية المشتركة ، والتى تشارك فى العمل الثورى ، وفى مظاهرات الشوارع ، وفى الهجوم على المبانى فى الحكومة ، الخ ، والتى لا تخطىء العين فيها دائما **وجود رباط داخلى ، مهما كانت درجة قوته ، يتمثل فى (« نحن ») .**

٢ — ويمكننا أن نذكر مجموعة من الاصـدقاء ، أو فرقة دينية بحتة ، والعديد من الأشكال المشابهة الأخرى ، كنماذج محددة وواضحة المعالم من « نحن » فى مواجهة « هم » الهلامية أو غير المتبلورة الى اقصى حـد .

يقول لنا أحد الكتاب أنه عندما كان فى الخامسة عشرة من عمره كانت البشرية تنقسم من وجهة نظره الى أولئك الذين يعرفون ويقدرون الشاعر الروسى الكسندربلوك فى جانب ، وسائر الناس فى الجانب الآخر . وكان « سائر الناس هؤلاء » ، على حد قوله « يبدون لى نوعا ادنى منزلة من البشر » . والكاتب يشير الى الجانب العكسى من **« المداهنـة »** ، أى تحديد هوية « النوع الأدنى منزلة من الناس » ورفضهم . وليس الذى يعنينا هنا هو حبه للشاعر بلوك ، فقد يرتبط المرء ، فى سن أكثر تقدما ، ارتباطا عنيفا وآسرا بمثل أعلى ، أو فكرة ، أو عقيدة ، أو حقيقة . ولكن المرء يقسم الناس دائما ، وفى اندفاع عنيف ، الى من يقف « معهم » ومن يقف « ضدهم » انطلاقا من تقسيمهم الى « نحن » و « هم » .

والمعارضة هنا ليست فعالة او ايجابية ، لأن المجموعات « نحن » يتركز سلوكها فى الابتعاد عن الآخرين وليس فى الهجوم عليهم ، واذا درسنا ، مثلا ، سلوك مجموعة من الأطفال يجمعهم فصل واحد فى مدرسة ، فسوف نجد أنهم لا يتحدون ضد اثنين من الأطفال المشاكسين ، وانما ستقوم

مجموعة من الأصدقاء ، فى مثل هذا الموقف وفى جميع الأحوال تقريبا ، بتشكيل حلقة مغلقة تنعزل بنفسها بعيدا .

وبعد اخفاق مفهوم سواد النـــاس ، اتجه علم النفس الاجتمـــاعى البورجوازى الى الموقف المتطرف المقابل : وعلى سبيل المثال ، يركز عالم الاجتماع الايطالى مورينو وآخرون اهتمامهم على « نحن » الأصغر حجمـــا والتى لا يجمع بين عناصرها الا التعاطف والصداقة والود ، والتى تميل الى العزلة بنفسها عن الحشد الهلامى غير المتبلور المحيط بها . وبعـــد اجراء العـــديد من الدراسات بين صفوف القوات المسلحة ، وعمـــال المصانع ، وتلاميذ المدارس ، واعداد قسائم استطلاع الرأى ورصد درجات معينـــة وفقا لنظم محددة ، اكتشف الباحثون « البنية التحتية » للعلاقات الشخصية، ووضعوا أيديهم على العناصر المختلفة الـــكامنة وراء التجاذب أو التنافر بين الأفراد فى موقع يضم فرقة من الجنود ، أو مجموعة من العمال ، أو فصل من التلاميذ ، الخ . وهكذا أمكن تحـــديد المواصفات المميزة للشخصيات القيادية ، والتى ينبغى توافرها فى المفتشين والمنفذين ، ولا شك أن بعض اقتراحاتهم يمكن أن يستفيد منها المجتمع الاشتراكى أيضا .

ولكن هؤلاء الباحثين كانوا أقرب الى السطحية ، لأنهم لم يتناولوا الا المتغيرات القصـــوى التى لا تشكل الا جانبا هامشيـــا بين الظواهر الاجتماعية النفسية .

والآن وقد درسنا الحالتين القصويين ، فلعل الأنسب هو أن نوافق على مفهوم الجمـــاعات الأدنى تنظيما والجماعات الأقصى تنظيما . ويمكننا وصف الجماعة المتميزة عن « هم » الهلامية أو غير المتبلورة بأنها الجماعة المنظمة : لها زعيمها أو قائدها وسلطتها الرئاسية ، والوظائف التنفيذية داخلها محددة وواضحة المعالم ، ولها بنيتها الداخلية المقابلة . ومن الناحية الأخرى ، فكلما ازداد تمديد المجموعة « هم » وكلما تضاءل حجمها ، كلما ازدادت جماعتها تجانسا وتماثلا ، كلما قل تنظيمها وكلما تضاءل التسلسل الهرمى للسلطة داخلها .

وهذا التعريف لا ينطبق فقط على المجموعات الصغيرة التى يمكننا ان نحدد بوضوح المعالم العامة لما تشتمل عليه من سلم وظيفى هرمى غير مرئى ، اى سيكولوجى بحت ، فى الوقت الذى يكون فيه كل من هم ليسوا « نحن » من المتعذر تحديدهم بأى حال ، وانما ينطبق ايضا على الجماعات الكبيرة ، بل والكبيرة جدا . ولكن هنا يبرز امامنا مثال الحرب وكأنه يدحض هذا القول : فالعدو على درجة عالية من التنظيم ، وهذه الدرجة العالية من التنظيم تتطلب انضباطا صارما وبنية وظيفية هرمية . ولكن فلنمعن النظر فى هذه الظاهرة فى حركتها : فطالما اننا لسنا بصدد حرب محددة تدور رحاها ضد عدو بذاته ، فالهدف من وجود الجيش هو أن يتصدى للقيام بدوره ضد جميع الجيوش الأجنبية وليس ضد جيش منها على وجه التحديد . وأما عندما يتم غزو بلد من البلدان بواسطة قوة مسلحة ومنظمة ، فكانت المقاومة تتخذ دائما ، وعلى امتداد التاريخ ، شكل الحرب الشعبية . وهنا كان الغزاة يواجهون السكان انفسهم جنبا الى جنب مع الجيش النظامى ، اى كانوا يواجهون كتلة اقل تنظيما من الشعب ، هى التى تنبثق منها المبادرات المحلية، أو المبادرات من اسفل ، والواقع أن العلاقة بين التنظيم وعدم التنظيم علاقة بالغة التعقيد .

ونحن لم نتناول حتى الآن الا الحالات القصوى والمجردة . ولكن الدراسة تبشر بنتائج اكثر خصوبة اذا انتقلنا بها الى تلك السلسلة من الأوضاع الوسيطة التى نلتقى فيها بكل من « نحن » و « هم » وقد تحددت معالمهما بدرجات متفاوتة ، أو بنفس الدرجة ، لأن هذه الحالات هى التى تمثل اغلب ما شهده الماضى أو يشهده الحاضر من جماعات اجتماعية نفسية .

٤ — السيكولوجية العرقية ، والثقافات العرقية القديمة

فى العصور القديمة ، كانت العزلة والاستقرار بعيدا هما على الأرجح اكثر اشكال ردود الفعل انتشارا تجاه الأجانب ، تجاه « هم » . ومن الواضح أن الجماعات العرقية واللغوية والثقافية ، والحدود الجغرافية القاطعة ، **لم تبدا الا عندما اصبح فى الامكان تحقيق المزيد من الانفصال فى المكان .**

ويلاحظ علماء الآثار أننا كلما اوغلنا فى الرجوع الى الماضى فى أعماق التاريخ ، كلما ازدادت وتباعدت المسافات بين المستوطنات . ولأسباب مازال يتعذر فهمها ، اجتاز الناس مساحات شاسعة ، واستخدموا جذوع الأشجار لركوب الماء والابحار عبر الأنهار الكبرى ، والأكثر من ذلك انهم خاطروا بركوب التيارات المجهولة فى البحار والمحيطات من اجل الوصول الى شواطىء أخرى ، وكم أزهقت منهم من أرواح اثناء هذه المحاولات . وتشتت الانسان ، بوصفة نوعا بيولوجيا ، فى القارات الأربع المأهولة ، وفى الأرخبيلات والجزر المعزولة منذ ما يزيد على ١٠ آلاف الى ١٥ الف سنة ، **لا ينم عن خصوبة النوع بقدر ما ينم عن فعل قوة دافعة ما بعثرت الانسان فى جميع أركان الأرض .** ويمكننا وصف هذه القوة الدافعة ، دون شك ، بأنها نوع من الطرد المتبادل ، وأما التجاذب العرقى والثقافى ، وما يؤدى اليه من اندماج وتلاحم ، **فمرحلة اعلى كثيرا فى المواجهة بين « نحن » و « هم » .**

وباستثناء المجموعات الطليعية الصغيرة التى اندفعت فى وقت من الاوقات على وجه الخصوص بحثا عن ارض جديدة للاستيطان ، وانبتت كل صلة لها بعشيرتها الأصلية ، لا يعرف التاريخ اى قبيلة او شعب انعزل عزلة كاملة عن جيرانه ، ولا ينطبق هذا القول على الانواع المباشرة للمعاملات وحدها مثل المقايضة ، والروابط الأسرية او الزواج ، والزيارات المتبادلة والتبادل الثقافى ، وانما ينطبق ايضا على الانواع السلبية من التعامل ،

لانه عندما يدير رجلان كل منهما ظهره للآخر ، ويرفضان التعامل على قدم المساواة ، فهذه ، ايضا ، علاقة . والأرجح ان هذا النوع من العلاقة كان هو الاكثر انتشارا بين القبائل والشعوب فى الماضى السحيق . ولكن هذه القبائل والشعوب لم تغمض أعينها عن بعضها البعض بأى حال ، وفى أى وقت من الأوقات ، ولذلك فمن السليم تماما أن نصف ذلك بأنه علاقة .

حقا أن العديد من علماء الآثار والانسان واللغات يميلون الى تصوير البشرية فى عصورها البدائية بأنها تتكون من وحدات اجتماعية منعزلة عن بعضها البعض ، كالعشائر مثلا ، بدوية فى نمط حياتها ولا تعرف عن بعضها البعض شيئا . ولكن هذا المفهوم تطور لتحل محله الفكرة اللغوية القديمة عن اللغات الأم ، أى الوحدة التاريخية لعائلات واسعة من اللغات والشعوب التى يمكننا تتبع بداياتها منذ ظهور السلالات الانسانية الأولى ولغاتها . ولكن بعض العلماء السوفييت يطرحون فكرة جديدة ، ومقنعة تماما ، وتتمثل **فى وجود سلسلة متصلة من الكلام البدائى ، مع استخدام كل مجموعتين متجاورتين للهجتين مختلفتين ، ولكنهما لهجتان تفهمهما كل من المجموعتين .** ومن الطبيعى أن تتضاءل درجة الفهم فى حالة المجموعات الأكثر بعدا ، بينما يمكن للهجرة حتى أن تقطع هذا التواصل مع القبيلة أو المجموعة التى استقرت فى جوار شعب يتكلم لغة مختلفة كل الاختلاف . ووجهة النظر هذه لا تعنينا الا فيما يتعلق بتأكيدها وجود الفوارق فى الكلام بين المجموعات المتجاورة . **فهذه الفوارق لم تنبع من اسباب طبيعية . وانما هى فوارق استخدمتها المجموعة كوسيلة مصطنعة للانعزال والتمايز عن الأغراب .** والارجح أن بعض المجموعات كانت تتكلم أسرع من غيرها ، وأن البعض الآخر كان يضغط على مخارج الكلمات بطرق مختلفة ، وأن بعضها كان يفتح فمه لدرجة اقل عند الكلام والبعض الآخر يفتحه لدرجة اكبر ، مع كل ما ينبنى على ذلك من اختفاء الأصوات **الشفوية** Lalial لتحل محلها الأصوات **النطقية** Deutal ar L'nfnel (الملفوظة بوضع اللسان على ، أو قرب ، الأسنان الأمامية العليا — المترجم) أو اللسانية ، بالاضافة الى تجنب بعضها استخدام

الحروف التي تحدث الصفير . وعدم تجنبها من جانب البعض الآخر ، الخ ، وكان الاغراب يميزون باختلافهم عن « ذوينا » ، بينما يميز ذوونا باختلافهم عن الاغراب .

ولكن مهما يكن من امر ، فاللغة ليست الا احد عناصر الثقافة ، وقد عثر علماء الآثار على أنواع **مختلفة** من الأدوات والمساكن والأوانى فى **مواقع متجاورة** . فهل يعنى ذلك ان حملة هذه الاختلافات كانوا منعزلين عن بعضهم البعض ؟ ان علم النفس الاجتماعى يميل الى انكار ذلك : **فالاختلافات لم تكن الا مجرد وسيلة خارجية للتعبير عن العلاقة بين « نحن » و « وهم » .**

ويصنف علم الأجناس العديد من الأمثلة لهذه الفوارق الثقافية التى كان يحتفظ بها بشكل مفتعل بين الجماعات المتجاورة : لأن القبائل والعائلات والمجموعات المحلية كانت تسعى بلا توقف من أجل الاختلاف عن الآخرين ، **من اجل ان تكون لها هويتها الخاصة .**

والملابس التقليدية للأعياد فى بلدان البلطيق ، على سبيل المثال ، زاهية الالوان الى اقصى حد ، ولكنها تختلف من موقع الى آخر . وفى روسيا قبل الثورة ، مثلا ، كانت هناك ثنائية فى بعض التفاصيل العرقية التى يجرى التأكيد عليها وابرازها عن عمد ، حتى بين قريتين متجاورتين : « ان زخارف نوافذنا تختلف عن زخارف نوافذهم » ، أو « نحن نؤدى هذه الرقصة بطريقة مختلفة » . وكانت عناصر التمايز بين المناطق المتجاورة شديدة التنوع ، بل وكانت تصل فى بعض الأحيان الى حد السخرية المتبادلة .

واذا نظرنا الى الحقائق التى يقدمها لنا علم الأجناس وعلم الآثار فيما يتعلق بالخصائص الروحية والمادية ، من هذه الزاوية ، لاكتشفنا انها **كانت تستخدم كحدود بين جماعات مختلفة** . وليس فى مقدرنا فهم وجود « مجموعات من الرجال » او « مساكن للرجال » الا اذا تصورنا وجود مجموعات للنساء ومساكن للنساء فى مواجهتها ، والعكس بالعكس ، كما انه ليس فى مقدورنا ايضا ان ندرك ماذا تعنيه مجموعتان سنيتان ، كالبالغين مثلا ومن هم دون

ـسن البلوغ ، الا اذا عزلنا المجموعتين عن بعضهما البعض ورسمنا خطـا واضحا وفاصلا بينهما ، على شكل شعائر خاصة ، مثـلا ، تمارسـها كل مجموعة . وقد يكون هذا الخط خارجيا كما هى الحال بين عشيرتين ، أو مستوطنتين ، او قبيلتين ، أو قد يكون داخليا كما هى الحال بين التكتلات ، والاتحادات ، وفرق العمل ، والقطاعات والشرائح والطبقات الاجتماعية ، الخ ...

والطبيعة الموضوعية لهذه العلاقات شديدة التنوع هى الأخرى ، ولندقق النظر فى هذا المثال المستمد من اشكال ممارسة الصيد بين عشائر التونجو فى السهول الشاسعة للتايجا فى سيبيريا قبل الثورة : كانت كل قبيلة تتميز عن الأخرى بشكل الوشم الذى تنقشه على الوجه ربمـا بين ما تستخدمه من أسلحة وأوان من فوارق ، ولما كانت الارض التى تمارس كل عشيرة الصيد عليها غير محددة المعالم بوضوح ، كان من الممكن لأى فرد ينتمى لاحـدى العشائر أن يقتل اى شخص ينقش على وجهه نقشا « غريبا » بكل بساطة ويترك جثته فى العراء لتنهشها الوحوش . وهذا الشكل البالغ الضراوة من العداء القبلى بعيد كل البعد ، بالطبع ، عن المزاح أو أى نوع من الانـواع التقليدية للترحيب . ولكن فى كلتا الحالتين ، تظل دراسة الجماعات الاجتماعية النفسية ، بما فى ذلك الجماعات العرقية النفسية ، من الداخل ، دراسة غير واقعية . **فلقد كانت المواجهة بين الجماعة التى ينتمى اليها الفرد ومعارضتها للجماعات الأخرى هى التى حتمت تطور وتدعيم الخصائص العرقية المميزة ، ومن ثم ادت الى تلاحم الوشائج بين افراد الجماعة .**

وكلما أوغلت مرحلة التطور فى القدم ، كلما ازدادت هذه الحقيقـة وضوحا . ويلاحظ الباحثون فى نمط حياة الاستراليين ومعتقداتهم ، بما فيها العرافة والسحر ، أن انتشار وتعمق مشاعر الخوف أو الرعب يرتبط أوثق الارتباط بما يسود بين القبائل من كراهية . فالمرض والموت وغـيرهما من الأحداث المحزنة لا ترجع الا للسحر والشعوذة من جانب عضو فى قبيلة أخرى، بل وكثيرا ما كان يلقى باللائمة على قبيلة أخرى بأسرها وليس على فرد واحد

من أبنائها . ويقول عالم الانسان بولدوين سبنسر فى معرض وصفه لقبـــائل أرنهيم لاند : « ... وأكثر ما يصيب السكان المحليين بالرعب هو الســـحر **الوافد من قبيلة اخرى او من مكان بعيد»** .. واما فيما يتعلق بقبائل وســط استراليا فيقول سبنسر وفرانك جيلين : ان كل الأشياء الغريبة تبث الهلع فى قلب ساكن المنطقة الأصلى ، الذى يستبد به الرعب على وجه الخصوص من السحر الشرير الوافد من بعيد . كما يتحدث الرحالة جيمس شالمرز ، أيضا ، عن سكان جنوبى غينيا الجديدة القدامى فيقول : أن هناك حالة تبعث على الأسى من الخوف المسيطر على عقول السكان المحليين ، الذين استقر فى وجدانهم أن جميع أعضاء القبائل الأخرى وجميع الغرباء ، يمثلون خطـــرا داهما على حياتهم ، وأى خشخشة ، أو صوت لورقة جافة تتهاوى من شجرة الى الأرض ، أو وقع أقدام خنزير أو صفيق جناحى طائر ، تبث الرعب فى قلوبهم على الفور ، حتى ترتعد مفاصلهم فرقا . ويقول المستكشف ا . م .كور أن السكان القدامى كانوا لا ينسبون موت أحد أبناء القبيلة نتيجة لمرض أو لحادث الا الى أعمال السحر والشعوذة التى تقوم بها قبيلة معادية ، أو قبيلة غير معروفة لهم ، وما أن ينفضوا يدهم من دفن فقيدهم ، حتى تنطلق من بينهم فضيلة من المقاتلين المتعطشين الى الدماء والثأر ، فتقطع مسافات تتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ ميل ، وهى تتحرك خلسة تحت جنح الظلام بحثا عن قبائل لا تعرف لها اسما ، وما أن تقع عينها على مجموعة تنتمى الى قبيلة أخرى (معادية أو غير معروفة لها) حتى تختبىء وتتخذ مواقعها استعدادا لشـــن الهجوم عندما يرخى الليل سدوله ، فتباغتها وتعمل القتل فى الرجال والأطفال وهم نيام . وكان العداء والشر المتوهم والمتوقع دائما يمتزجان فى شـــعور عدائى تجاه الأجانب . ويلاحظ الفريد وليم هوديث ، الذى درس حياة قبائل الكورناى الاوسترالية ، أن حياة الفرد من ابناء هذه القبيلة هى — من بعض جوانبها — حياة الرعب والخوف . فهو يعيش فى خوف دائم من كل شىء ، سواء كان هذا الشىء يقع داخل دائرة بصره أو لا يراه ، ولم يكن يعرف أبدا متى سينقض عليه عضو من قبيلة البرادجراك بحربته من وراء ظهره ، أو

ملى سيسدد اليه عدد مستتر من قبيلته نفسها طعنة نجلاء لا يستطيع لهـا درءا . ويقول نفس الباحث أن اسباب اغلب الحروب بين القبائل الإسترالية ترجع الى الاتهامات المتبادلة بممارسة اعمال السحر والشعوذة ، الأمر الذى ينعكس فى طقوسهم ، حيث كانت محاولة التعرف على هوية « المتهم » عند موت أحد ابناء القبيلة من اكثر مراسم الجنازة اهمية لدى العديد من القبائل الاســترالية (١) .

ومن الواضح أن هذا القول لا يصدق على سكان استراليا القــدامى وحدهم ، وانما يصدق ايضا على سائر القبائل البدائية الأخرى . فكان السكان المحليون فى المناطق الداخلية من غينيا الجديدة الألمانية — سابقا — يعتقدون ان أى وفاة انما هى من فعل عدو مستتر فى المستوطنة المجــاورة . وكان رؤسـاء قبيلة المافولو لا يوجهون أى لائمة لمن يحترف مهمة العلاج من الأمراض من أبناء قريتهم ، وبالتالى لا يخافون منه ، وانما كان الخوف دائما من سحرة القرى الأخرى الذين يمارسون العلاج . ويقول باركيسون فى دراسته عن قبيلة الباننج التى تقطن الأقسام الداخلية من شبه جزيرة جازيل (بريطانيا الجديدة) انه اذا مات لها أحد الأصدقاء أو الأقارب فجأة ، فالموت ينسـب للأعداء ، لأولئك الذين يعيشون على الساحل ، دون أن يكلفوا انفسهم عناء التفكير فى بواعث الموت أو طريقته . ويقول عالم الأجناس مالينوفســكى فى دراسة له عن السكان القدامى لجزيرة دوبو (بالقرب من غينيا الجديدة) أن السحر « عامل أساسى فى جميع ما ينشأ بين القبائل من علاقات . والخوف من السحر هو المسيطر على الجميع ، وهو يزداد تعمقا عندما يقوم السكان المحليون بزيارة مواقع بعيدة ويرون أشياء غريبة وغير مألوفة بالنسبة لهم » .

وأما كارل فون دن ستينين ، الذى قام برحلات للاستكشاف فى البرازيل، فيذكر أنه بالنسبة لابن قبيلة الباكايرى « فكل السحرة الاشرار يعيشون فى

(١) انظر س . ا . توكاريف : « الاشكال المبكرة للدين » ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٨١ — ٨٤ .

القوى الأجنبية » (١) — (الكلمة المحلية المستخدمة للدلالة على الشر فى كورابا ، وتعنى : كل ما هو ليس لنا ، أو ليس منا) .

وكما نرى ، فالضمير « هم » وكلمة « الغرباء » أو « الأجانب » يستخدمها السكان المحليون على أساس أنها التشخيص المادى لمعانى السحر ، والموت ، بل وحتى لأكلة لحوم البشر .

ومما يلفت النظر هنا أن نسبة القوى السحرية للآخرين ، ودمغهم بالدناءة والخسة ، مع توجيه هذه الاتهامات لمن يمارسون العلاج من الأمراض على وجه الخصوص ، موقف متبادل فى أغلب الأحيان ، وعلى سبيل المثال يعتبر أبناء قبيلة توده الهنود أن جيرانهم من أبناء قبيلة الكورمابا من عتاة السحرة ، بينما يهابهم هؤلاء لنفس السبب .

وكان اللابيون (وهم من الشعوب الرحالة الذين يقطنون شمالى اسكندنافيا ويعيشون على صيد الأسماك والثدييات البحرية — المترجم) ، يبثون الرعب والهلع فى قلوب جيرانهم من الفنلنديين والسويديين الذين كانوا يعتبرونهم من عتاة السحرة (انظر قصص كاليفالا التى تتحدث عن سحرة بوهجولا وأعمالهم البشعة) ، بينما كان اللابيون يعتقدون نفس الشيء بالنسبة للفنلنديين والسويديين (٢) .

ومن الواضح أن قوى السحر كانت تنسب لمستوطنات وقبائل بأكملها فى المراحل المبكرة من التطور ، وأما فيما أعقب ذلك من عصور ، فكانت القبائل تختص بعض أعضائها فقط بامتلاك القدرة على السحر .

وكل هذه الحقائق تميط لنا اللثام من جديد عن مغزى « هم » الخارجية فى مجرى الادراك الذاتى لكل جماعة لهويتها المستقلة . ومهما يكن من أمر ، فكلما قطعت الجماعة أشواطا فى مدارج التطور ، كلما تضاءل وضوح هذا

---

(١) س . أ . توركاريف ، المرجع السابق ، ص ٨٦ — ٨٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

الجانب ، الأمر الذى يحدونا الى القول بأن الجماعة تتلاحم وشائجها تحت تأثير عوامل نابعة من صلب تكوينها وليس للمعارضة الخارجية عليها أى أثر .

وينطبق هذا القول على وجه الخصوص على الأنماط النفسية الثابتة ، أى على الطبيعة العرقية أو القومية . ولكن رغم ذلك ، فقد انتهى هذا المفهوم بعلم النفس العرقى ، أكثر من مرة ، الى الشلل والجمود .

والدارسون فى مجال علم النفس العرقى ، الذين يستندون فى أبحاثهم الى التجربة العملية ، ويراقبون أنواع السلوك الغريبة لقبيلة أو شــعب ، ويرصدون ما يجرى من ردود افعال وما يتولد من عواطف ، ثم يقارنون بين مشاهداتهم وبين ما يجرى من جانب القبائل والشعوب الأخرى ، ينتهون الى مواجهة سؤال محدد : أين تكمن الأسباب الجذرية لهذه الخصــائص المميزة ؟ . ويمكننا تقسيم الكتاب الذين تصدوا للاجابة على هذا التساؤل الى فئتين :

فالبعض يتشبث بالاستدلالات التى انتهت اليها العلوم الطبيعيــة . فالخصائص الطبيعية والجسمانية للبشر — فى رأيهم — هى المسئولة عن نوعية المزاج النفسى . ولكن الحقائق العلمية تدحض هذه الأفكار . وليست هناك أى علاقة سببية بين هذين النوعين من الظواهر . فالطفل الذى ينتسب لنمط معين من الأنماط النفسية الأنثروبولوجية ، ثم يعيش فى بيئة اجتماعية ثقافية أجنبية وينعزل عن أترابه الأصليين ، لا يمتلك نفس المزاج النفسى المميز لهؤلاء الأتراب .

وقد التقط فيلار ، وهو عالم أنتوجرافى فرنسى اجرى دراساته على قبيلة الجوايكاى (وهى قبيلة بدائية فى أمريكا الجنوبية) فتاة صغيرة تخلفت عن الركب عندما ولت القبيلة فرارا لما استبد بها من رعب عنــد رؤيتها لمجموعة من الباحثين وهى تقترب منها ، واصطحب فيلار الفتاة معه الى فرنسا ، ونشأت بين أفراد أسرته ، وحصلت على تعليم من المستوى الرفيع ،

واصبحت هي نفسها من علماء الأجناس ، وانتهى بها الأمر لأن تصبح مساعدة وزوجة للرجل الذي انقذها .

ولذلك ، فنسبة الخصائص النفسية العرقية الى العوامل الأنثروبولوجية الجسمانية خارج السمات الخاصة للمزاج — والتي لا يمكن أن تكون هي المسئولة — عن العقد النفسية او الوظائف النفسية العليا — موقف غير علمى ، وربما كان ذلك خطأ ، خطأ فادحا ، ولكنه ارتكب بحسن نية ، وان **كان البعض يستخدمونه كوسيلة بارعة للتستر على العنصرية وتمويهها ، بصفتها المذهب الذى يدين به دعاة التفوق البيولوجي لبعض الأجناس والشعوب .**

وهناك ايضا تلك المدرسة القديمة قدم الجبال الرواسي ، والتي تنسب التركيب النفسى وطبيعة الشخصية الى المناخ والعوامل الجغرافية .

وكم فسر العديد من كتاب العهد القديم الأمور على هذا النحو ، ومن بينهم هيبوقراط وسترابو . ثم ها هو المعلم الفرنسى الكبير مونتسكيو ، يطرح فى القرن الثامن عشر نظاما يذهب فيه الى ان الظروف الطبيعية هى التى تحدد سلفا الميول والعادات ، والتى تحدد بدورها النظام السياسى . كما انتهى مونتسكيو أيضا الى النتيجة المحافظة القائلة بأنه نظرا لثبات الظروف الطبيعية فى غالب الأمر ، فيجب على كل شعب ان يتمسك الى الأبد بنظامه السياسى الخاص ، وأن يسحق أى تناقض مؤقت مع هذا النظام . وأما فى علم الأجناس البورجوازى الأكثر حداثة فيحظى هذا الاتجاه المناخى الجغرافى بعدد أكبر من الحواريين والأتباع ، وهو اتجاه مازال على ما عرفت عنه دائما من نزعة محافظة وعنصرية مغرقة .

أما الفئة الثانية فتشمل أولئك الذين يربطون بين التركيب النفسى والظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الخاصة ، وليس الظروف الطبيعية .

ومفهوم هذه الفئة يستند الى الحقائق العلمية لدرجة أكبر ، رغم تعدد اتجاهاته وما بينها من اختلافات ، ورغم التهافت الواضح لبعضها . فالذين يلمحون ضمنا الى أن النظام الاجتماعى والثقافة من الثوابت السرمدية الخالدة التى يتوارثها جيل عن جيل ، يعجزون عن تفسير منشأ الخصائص الاثنوغرافية ، ولا يسعفهم تفكيرهم الى التوصل الى السبب أو الى الأثر جميعا . وبالرغم من أنهم لا يستنتجون الخصائص النفسية من الخصائص التشريحية ، الا أنهم يتناولون الخصائص النفسية كسمات مميزة ثابتة لشعب معين ، وهذا اتجاه أشبه ما يكون بالنزعات البيولوجية والعنصرية .

وثمة فهم أكثر حذرا يتمثل فى البحث عن العلاقات الوظيفية أو السببية بين الثقافة القائمة والتركيب النفسى ، رغم أن الأبحاث التى تجرى فى هذا الاطار لا تبشر دائما بتحقيق الأهداف المبتغاة . وهذه هى الحال مع المدرسة الغربية التى تنسب الى الوسط الثقافى الأثر الحاسم فى تشكيل المزاج النفسى فى الأشهر القليلة الأولى لحياة الفرد ، ومن هنا ينبع ذلك الاهتمام الذى توليه للأساليب القومية التقليدية لتنشئة وتربية الأطفال . ويصف بعض النقاد هذا الاتجاه ، على سبيل المزاح ، بأنه « عقدة الحفاض » . ولكن هذا المزاح يمكن أن يخرج بالأمر عن موضعه ، اذا بالغنا فيه ، لأن التجربة النفسية الأولى للطفل ليست مما يمكن تغافله . ولكن دعاة فكرة « عقدة الحفاض » ينزعون الى تجاهل « سيكولوجية الأعمار » فى اطار الجيل الواحد فيما يتعلق بمدى تأثير الانطباعات والعادات التى تكتسب فى الشهور الأولى من الحياة . وأما الفكرة التى تزعم أن أكثر من ٥٠ ٪ من المزاج الشخصى ينبع من التعليم فى مرحلة ما قبل الكلام فهى فكرة غير علمية . ويميل علماء النفس المحدثون ، لدرجة أكبر ، الى نسبة الجانب الأكبر الى الكلام (الخارجى ، والداخلى ، ومع الذات) فى البواعث النفسية للسلوك الانسانى .

وربما تمكن الباحثون فى المستقبل من قياس الاهمية النسبية للعوامل المختلفة ، ولدرجة ابعد من الدقة . وسوف تحظى الأشكال التقليدية للعمل

بالاولوية ، والتي لا جدال في ان تاثيرها على التركيب النفسي كبير جدا حقا ، **لان العمل هو اكثر مجالات الاتصال الإنساني المتبادل اهمية** ، ومهما يكن من امر ، فعمليات العمل تنزع الى التشابه مع بعضها البعض ، وتختفي خصائصها العرقية والقومية لتخلي مكانها للتجانس التكنولوجي الذي يمليه تماثل أغراض العمل .

أما العامل اللغوى ، فهو حرى أن يحظى بالأهمية فى الأبحاث القادمة ، **لان اللغة على وجه التحديد هى الآلية الأساسية للاتصال ، فى نفس الوقت الذى تمثل فيه آلية عزل « نحن » عن الجماعات الاخرى ، (عدم الفهم) .**

والجماعة العرقية ليست هى الجماعة الوحيدة التى تحافظ على وجودها استنادا الى الفوارق اللغوية ، ولننظر مثلا الى تلك النظم الخاصة من الاشارات التى تستخدمها مختلف المجموعات الاجتماعية ، أو أبناء المهنة الواحدة ، أو الجماعات الاقليمية ، أو حتى حلقات الأصدقاء (الأسماء المستعارة على سبيل المثال) ، الخ .

ولذلك يبشر التعاون بين علم النفس العرقى وتاريخ اللغات بتحقيق نتائج طيبة ، نظرا للموقع البارز والمتميز الذى يشغله الكلام بين العوامل النفسية التى تشكل الشخصية . ويجب أن يحظى علم مفردات اللغة بوصفه مجالا متميزا عن النحو وتركيب الجملة ، وعلم أصل الألفاظ وتاريخها ، بالأولوية بالنسبة لبنية اللغة ، ونظام الأصوات ، وعلم الصرف ، وبناء الجمل ، **فاللغة تمثل بنكا للتجربة التاريخية الى مدى ابعد كثيرا من اى مجال آخر من مجالات الثقافة** ، ولكن فوارقها الشكلية الخاصة ترجع فى بعض الأحيان الى أنواع من التركيب النفسى .

ومن المثير حقا ، وان لم يكن من المقطوع بصحته تماما ، ذلك الراى الذى ينتهى اليه عالم الأجناس الهولندى جينز بجير ، الذى يكشف فى دراسته المقارنة للبوشمان والاوستراليين ، والذين يتشابهون من عدة جوانب ، عن ان نظام اللغة لدى كل من الجانبين (والذى يتم فيه التعبير عن التذكير

والتأثير من خلال التغير في مقلم الصوت أو ارتفاعه) يشجع على تطور الأساطير (كمحاولة لفهم وتصنيف الظواهر التى تعبر عنها اللغة) . فاللغات القائمة على التصريف تؤدي الى تشخيص الظواهر الطبيعيـــة أو الأجرام السماوية ، كما يقول بجير ، بينما لا تملك الشعوب البدائية التي تتكلم لغات غير قائمة على التصريف (مثل قبائل الزنوج) اية أساطير ، ويقتصر دورها في هذا المجال على ترديد وتقديس ما يتوارثونه من أسلافهم (١) . وقد يكون هذا القول صوابا أو خطأ ، ولكنه يصلح على اى الأحوال كمثال لكيفية تأثير السمات اللغوية الخاصة على العمليات الاجتماعية النفسية .

والعلاقة بين اللغة والعمليات النفسية الأشد عمقا علاقة وثيقة جدا . وتشير أحدث المفاهيم الفسيولوجية الى ان الكتابة الهيروغليفية والصوتية تؤديان الى تنشيط الأعصاب في مناطق مختلفة من الطبقة الخارجية للحنجرة ، وان اختلفت العلاقة المتبادلة بين هذه المناطق الى حد ما .

وبالرغم من أن المحاكاة والتعبير الصامت (الايماء ، البانتومايم) آليتان للاتصال أقل فاعلية من الكلام ، الا أنهما ايضا من العوامل التى تلعب دورها في تحديد التركيب النفسى للجماعة العرقية . ولسنا في حاجة الى قوة ملاحظة غير عادية لكى ندرك ، مثلا ، أن ممثلى شعب من الشعوب غالبا ما يضحكون اكثر أو أقل مما يفعل ممثلو شعب آخر عند مواجهة نفس الموقف . وليس الكم هو الذى يعنينا بالطبع ، وانما المحتـــوى الحسى ودلالات الألفـــاظ . وفى هذا المجال ايضا ، تضرب التقاليد بجذورها بعمق وفاعلية كما هى الحال في مجال اللغة .

وليس من الواقعية فى شىء أن نحاول افتعال جدول اجتماعى نفسى نسجل فيه السمات والخصائص المميزة للجماعات العرقية ، فالقضية الهامة هنا هى أن نلاحظ انه كلما تضاءل حجم الجماعة العرقية ، كلما ازدادت الرموز التى تتم بواسطتها التفرقة بين « نحن » و « هم » خصوصية وتحديدا .

---

(١) جينز بجير ، عالم الكالاباري المفقود (بالروسية) موسكو ١٩٦٣ ، ص ١٣٦ .

ومن المنطقى أن يكون هذا المميز « الخارجى » ، كما سبق أن أكدنا ، هو السابق بالنسبة للتوحيد « الداخلى » اللاحق للجماعة ، وهى حقيقة من الأسهل تتبعها فى المجموعات الأكثر بدائية والأصغر حجما .

واذا شئنا الدقة ، فعلم النفس العرقى لم يقصد به أصلا الا دراسة مثل هذه الجماعات الصغيرة ، ولكن مجاله اتسع فى مرحلة لاحقة ليشمل الأمم ومجموعات الشعوب الحديثة ، ثم الأجناس .

وأثناء تناوله ودراسته هذا العالم الصغير على وجه التحديد ، نشر علم النفس العرقى أريجه فى كل مكان ، وليس أمام علماء النفس البورجوازيين المتخصصين فى دراسة الشعوب الاسكندنافية من خيار الا أن يتحدثوا عن الطبيعة « الثقافية » وليس القومية ، لأن الفوارق النفسية بين القوميات الاسكندنافية تختفى فى خضم العديد من السمات المشتركة للثقافة والطبيعة العامة . وعلى خلاف هذا المثال ، تمتزج فى أندونيسيا عدة ثقافات فى اطار أمة واحدة مازالت فى مرحلة التكوين .

والمجال الوحيد الذى مازال أنصار علم النفس العرقى للجماعات الكبيرة يعلقون عليه آمالهم ، ورغم عدم توصلهم حتى الآن الى أية نتائج لها وزنها ، هو دراسة السيكولوجية القومية للأعداء الذين يحتمل خوض الحرب ضدهم ، وهو موضوع يحقق ازدهارا كبيرا فى الكتابات السيكولوجية عن الحرب فى الغرب . ومما يدعو الى الأسف ، أن بعض علماء النفس البارزين من أمثال هورار ، وبنديكت ، وهونتجهام يرتبطون أوثق الارتباط بفكرة التلقين السيكولوجى ، وبمساعدة العملاء السياسيين فى الخارج والدعاية لهم . والواقع أن أى مزايا عملية يمكن تحقيقها من وراء مثل هذا المسلك ، لا تدخل تحت عنوان العمل « السيكولوجى » بقدر ما تدخل تحت عنوان الحرب الأيديولوجية ، أى الدعاية لأفكار معينة ومحاولة غرسها . وليس لهذا أية علاقة مباشرة بعلم النفس الاجتماعى . ومن المؤكد انه من المفيد أن نتعرف على ثقافة وعادات وأعراف الشعوب الأخرى . وليس فقط الأعداء ، وانما أيضا الحلفاء . لأن هذه المعرفة تدعم وتعمق التفاعل المثمر .

ولكن هذا ، أيضـــا ، ليس من علم النفس العرقى أو عـــلم النفس الاجتماعى فى شىء . وعندما يتبع الخبراء ما يصور بأنه السمات السيكولوجية للشعوب ، الى المؤسسات العسكرية ، فهؤلاء الخبراء لا يقومون فى واقع الأمر الا باستغلال قصر نظر زبائنهم ويقدمون لهم هراء لا معنى له .

ولكن الأمر يختلف عندما تســتخدم المؤسسات العســكرية للبلدان الامبريالية المعرفة النفسية العرقية فى نشاطها الاستعمارى والاســتعمارى الجديد . فكثيرا ما تلجأ هذه المؤسسات الى تضخيم الفوارق التقليدية من أجل تقسيم صفوف البلدان النامية ، واشاعة الفرقة والشقاق بين القبائل أو المجموعات القبلية ، الأمر الذى يؤكد مرة أخرى أن علم النفس العرقى ينطبق أساسا على الجماعات الصغيرة وليس الكبيرة ، وانه ينطبق على روابطها الثقافية الداخلية اكثر مما ينطبق على ما يفرق بينها من خصائص ثقــافية .

والآن ، وتلخيصا لما سبق ، **فالثقافة بالنسبة لعلم الآثار وعلم الأجناس ليست خصوصية مقررة بأى حال ، وانما هى دائما علاقة بين ثقافات . ان ما يجرى فى هذا المجال انما هو عملية ثنائية تتمثل فى الانفصـــال الثقــافى (خلق الفوارق بين « نحن » و « هم ») والاســتيعاب الثقافى من خـــلال الاستعارة والاختراق او التسرب (الاتحاد الجزئى أو الكامل فى « نحن » مشتركة)** . ويطلق كتاب الغرب على هذه العملية الأخيرة تسمية **الغرس الثقافى** ، وفى هذه الحالة يصبح من المحتم وصـــف الانفصـــال الثقافى بأنه « كبح تأثير الثقافات الأخرى » discultaration ؟ ولكن الواقع أن كلا العمليتان لا تنفصلان ، تاريخيا ، عن بعضهما البعض ، وان تفاوتت النسب بينهما .

٥ — نحن

ينبع الجانب الذاتي لأى جماعة انسانية من ظاهرة نفسية مزدوجة أو ثنائية الجانب وهى التى وصفناها بأنهـا « نحن وهم » وذلك بالانفصال عن الجماعات والمجموعات الأخرى والتحديد المتبادل والمتزايد للهوية المتماثلة للافراد فى الجماعة . كما يستخدم علماء النفس أيضا مصطلحى « الكراهية » و « التعاطف » ولكن هذين المصطلحين أضيق كثيرا من الدلالة على حقيقة الأوضاع ، بالاضافة الى أنه يمكن أن يكون هناك ، بدلا من الكراهية ، المنافسة الودية أو المزاح أو أنماط تنظيمية بسيطة أخرى . كما يمكننا وصف التمايز خارجيا والتماثل داخليا ، وفقا لمصطلحات علم النفس ، بأنها « نزعة للرفض » خارجيا « وسريان للعدوى » داخليا .

وينبغى دراسة الجانبين فى ترابط وثيق . فالواقع أن جميع سلاسل الظواهر الاجتماعية النفسية تتميز بوجود هذين الجانبين . فالعمليات الاجتماعية النفسة تقيد الجماعة وتضفى عليها نمطا محددا ، بشكل من الاشكال ، وتدفع الأفراد الى التماثل فى السلوك وفى استقراء الأحداث . ويجرى ذلك فى موازاة العمليات الاجتماعية النفسية التى تتولد عنها اتجاهات ومعارضة الجماعات الأخرى أو الانعزال عنها استنادا الى خاصية مميزة .

وقد تكون العمليتان المتزامنتان تلقائيتين أو متعمدتين وتحركهما بواعث أيديولوجية ، وفقا للظروف الاجتماعية ، اما القوام المادى لهاتين العمليتين فهو فسيولوجيا النشاط العصبى . وضمن مصادر أخرى ، يؤدى سريان العدوى النفسية الى المحاكاة الاتوماتيكية ، التى نشأت وتطورت منذ وقت طويل بين أسلافنا من المملكة الحيوانية ، وان كانت آليتها السحرية لم تكتشف حتى الآن بعد ، وهذا هو الأساس البيولوجى للعدوى النفسية **فالمجموعة « نحن » تتكون من التماثل المتبادل فى الهوية ، اى من فعل آلية المحاكاة وسريان العدوى ، بينما تتكون « هم » من كبح المحاكاة ومنع سريان**

العدوي النفسية عن طريق الخطر ، او رفض المحاكاة كرد فعل لما تمليه الطبيعة والبيئة على الافراد • ان اى « نحن » لابد أن تكون فى مواجهة « هم » من نوع ما ، سواء كان ذلك بشكل سافر أو مستتر ، والعكس بالعكس •

وما نحن بصدده الآن ، هو ظاهرتان جوهريتان مثل، تل،الاثارة والكبت فى فسيولوجيا النشاط العصبى العالي للاجسام الفردية . والتماثل والانفصال عمليتان متضادتان ، ولكنهما تتفاعلان وتتشكلان مجموعة متنوعة من المركبات . وربما كان هذا هو السبب الكامن وراء ثراء السيكولوجية الاجماعية بما تشمله من عناصر ومكونات ، ولكن هذه العناصر والمكونات البسيطة والمجردة تتشابك وتتداخل وتتلاحم لتصبح على نفس ما نجد عليه الواقع الاجتماعى من تعقيد .

ولنتناول القضية أولا بشكل مجرد وبصفة عامة : لنفرض أن « ا » و «ب» جماعتان انسانيتان . ان الحالتين القصويين لانفصالهما المتبادل تمثلان ، أولا ، فى توفر حد أدنى من الفوارق مع تماثل كافة السمات الاخرى ، وثانيا فى توفر حد أدنى من التماثل مع اختلاف كافة السمات الاخرى . ولسنا فى حاجة الي القول بأن هذا التماثل أو الاختلاف انما يرتبط بالمجال الاجتماعى النفسى ، اى أنه يتبلور ويتأكد من خلال الملاحظة والسلوك ، على خلاف التماثل أو الاختلاف فى الخصائص العضوية والمادية ، والذى يعبر عن نفسه كحقيقة موضوعية دائما . وهناك ، بالطبع ، العديد من المراحل الانتقالية بين هاتين الحالتين القصويين ، ولكن الحالات القصوى هى التى نسعى الى دراستها هنا على وجه التحديد .

ويمكننا تشبيه الحالة الأولى بفريق من العمال يؤدون مهاما متماثلة وهم على مقربة جدا من بعضهم البعض . وأما الحالة الثانية فيمكننا تشبيهها بالاتصال بين جماعتين متباعدتين عرقيا وثقافيا ، ولا تجمع بينهما لغة مشركة أو اى وسيلة اخرى للاتصال

فى كلتا الحالتين تضرب « نحن » بجذورها فى أعماق الوجدان الى الدرجة التى تتقهقر معها نقاط التمايز عن « هم » فى الخلفية وتبدو وكأنها اختفت .

وهذا التقهقر للنزعة النفسية للرفض هو ، بشكل أو آخر ، مرادف للتنظيم والتضامن فى الجماعات المعنية . وكلمــا تحسنت أوضاع التنظيم الداخلى للجماعة كلما اشتدت معارضتها لــكل من ليسوا من أعضائها ، وليس فقط لمجموعة محددة غريبة عنها . فجوقة المنشدين مجموعة من الناس تغنى معا . انها « نحــن » فى مواجهة جمهور من المستمعين ، أو — على نطاق أوسع — لكل من لا يشتركون فى الغناء معهم .

وما ان تتشكل المجموعة « نحن » ، حتى يصبح فى مقدورها اما أن تحرك أو أن تكبح مشاعر افرادها وسلوكهم العملى انها « القوى التى تعززا الفعالية » والتى تطلق العنان للرغبات ، فتزيد من اندفاعها ، وربما كثفتها وجعلت حصيلتها العملية أعلى عدة مرات .

والتعاون ، أو العمل الذى يؤدى جماعيا ، يؤكد هذه الحقيقـــة . **فالقوة المتحدة اكبر كثيرا من المجموع الرقمى لمكوناتها الفردية ، ولا يرجـــع ذلك الى مجرد تقســـيم العمل ، وانما يرجـــع ايضا الى ان القوى الفردية تتزايد هى الأخرى** . ويتناول ماركس هذه الظاهرة فى رأس المال ، فيقول انه فى الاتحاد البسيط للعمل المتجانس من جانب عدة اشخاص ، لا تصبح قوتهم المتحدة اكبر من المجموع الرقمى للقوى الفردية فحسب (ترتبط هذه الحقيقة بمجال عمليات الانتاج) ، وانما يؤدى اتصالهم ببعضهم البعض فى عملية الانتاج « **الى المنافسة ، والى نوع من النمو للروح الحيوانية التى التى تعزز قدرات العمال والأفراد** » . ويشير حديث ماركس عن « الروح الحيوانية » ضمنا الى ان العلم لم يكتشف بعد طبيعة الآلية النفسية التى

تعرض هذا التفاني للطاقة الفردية من خلال المنافسة فى اطار الجماعة ، ولكن ماركس سرعان ما يقدم تفسيرا محددا لهذه الظاهرة فيقول : والواقع ان الانسان حيوان اجتماعى بطبيعته)) (١) .

وينتهز احد الاتجاهات فى علم النفس الاجتماعى فى البلدان الرأسمالية فرصة استقراء هذه الحقيقة التجريبية والتسليم بها ، فيتشبث بمعطياتها ويعرض عليها بالنواجز ، وبكل سعادة واغتباط لا تخل الطبقة الاستغلالية عليه دعما وعطاء . وتؤكد التقارير التى نشرها بعض علما النفس فى الغرب من امثال و. ميودى وه. هيرزنر وغيرهما حول ما يتميز به العمل الجماعى من فاعلية أعلى وكثافة اكبر ، استنادا الى التجارب العملية ، ذلك النوع من البيانات والمعلومات التى تحظى باهتمام خاص لدى أصحاب الأعمال (٢) . وعلماء النفس السوفيت أيضا يهتمون بهذا النوع من الظواهر ، وان كان ذلك استنادا الى اعتبارات اجتماعية مختلفة كل الاختلاف .

ومن المفاهيم الأولية لعلم النفس الاجتماعى أن المجموعة الاجتماعية لاينبغى تناولها بصفتها المجموع الرقمى لتركيبات نفسية فردية،وانماكنظاميعمل اما على تكثيف او كبح الجوانب المختلفة للتركيب النفسى الفردى . وعند التصدى لهذا الجانب فلعلم النفس الاجتماعى كل الحق فى رفض مواجهة جماعة باى جماعة اخرى ، لان هذا الموقف لا يسمح الا بالتحليل للجماعة .

ولكننا اذ نتصرف على هذا النحو ، فنحن ننتقل الى ذلك المجال من علم النفس الاجتماعى المختص بدراسة العلاقات بين الجماعة والفرد . ولكننا سنقتصر فى الوقت الراهن على تناول الحالات القصوى (التى لا نلتقى فيها باى تعارض ملموس بين الجماعة واعضائها) (سنتناول هذه القضية

---

(١) انظر ك. ماركس ، رأس المال ، المجلد ١ ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٣٢٦ .

(٢) هـ. هيرزنر ، العلاقات الانسانية ، برلين ، ١٩٦١ .

فى الفصل التالى) ، وحيث الاتجاه السائد هو اتجاه المجموعة « نحن بينما ادراك « هم » ضعيف او مبهم من اجل التهرب من التصور الواعى لها

سبق أن تعرضنا لمثال من الماضى التاريخى والعرقى للصيادين من قبيله التونجوس ، حيث كان أبناء العشيرة الواحدة يرسمون الوشم على وجوههم ويزينون أسلحتهم على النحو الذى يميزهم عن العشائر الأخرى التى تنتمى لنفس القبيلة . ولكن فى مواجهة اشاعة هذا العداء بين القبائل ، كانت الحاجة الى المساعدات المتبادلة ولحم وشائج العشيرة الى مدى أبعد ، تحفز انتقال عدوى العادات القبلية بين العشائر المختلفة ، الى ان انتهى الأمر بنسيان كل ما يدفع الى القول بوجود « آخـرين » وتقبل العادات القبلية بكل بساطة وكانها عاداتهم الخاصة .

وكلما ازداد ادراك « نحن » قوة ، كلما ازدادت المحاكاة والسريان التبادل للعدوى انتشارا ، ويزداد هذا الادراك قوة كلما ازدادت درجة تنظيم الجماعة .

وفى السنوات الأخيرة ، شنت الهستيريا المعادية للشيوعية فى الولايات المتحدة الأمريكية حملة فريدة فى نوعها فى مجال الألعاب الرياضية وظهر مذهب — يستند الى تنظيم يروج له ويحاول نشره — يزعم أن الألعاب الرياضية الجذيرة بهذه التسمية فى عالم « المشروع الحر » تعنى ضمنا الألعاب الفردية ، وأنه ينبغى مقاطعة الألعاب الجماعية ، ويزعم دعاة هذه الفكرة المعوقة لكل تقدم ان شعبية اللعبات الجماعية انما هى مكسب شيوعى شرير ، لأن الفرد فى اللعبات الجماعية « يذوب فى الجماعة » (وكأن اللعبات الجماعية لم تصبح لها شعبية الا بعد أن ظهرت البلدان الاشتراكية على الخريطة) . كما ينادون أيضـا بخطر ممارسة اللعبات الجماعية لأنها مصدر من مصادر « العدوى الشيوعية » .

وينسى هؤلاء الدعاة المتبجحون للنزعة الفردية أن اللعبات الجماعية

قديمة قدم الرياضة نفسها (وترتبط أوثق الارتباط فى العصور القديمة بفن الحرب) ، وأما بالنسبة لسيكولوجية الرياضة ، فجميع اللاعبين يعرفون أن وجود المتفرجين ، وخاصة من الانصار والمشجعين (« نحن ») ، يلهب حماس المتنافسين ويدفعهم الى تحقيق نتائج أفضل مما يحققونه أثناء التدريب ، ولكن حتى عندما يمارس اللاعب اللعب بمفرده ، فهو ليس وحده فى واقع الأمر ، لأنه يحاكى منافسيه او زملائه عن وعى أو عن غير وعى ، أو عنهما معا ، فيجرى — بعقله — مع سائر من يجرون ، ويتصور فى مخيلته ما يحدث للمتفرجين من اثارة .

ولكن الذى يعنينا نحن هنا هو الظاهرة فى شكلها النظرى ، والواقعى ، ولا شك أن الأداء الجماعى يدفع اللاعب الى بذل جهد أكبر . ولقد تأكد ذلك بالتجربة ، وتحدثت عنه الكثير من المراجع تحت عنوان السيكولوجية الاجتماعية ، فعندما زود تلميذ بجهاز لقياس القوة الميكانيكية ليسجل الحد الأقصى لما يمكنه بذله من جهده ، وهو بمفرده ، ثم كرر العملية أمام زملائه ، كانت النتيجة دائما اعلى فى حالة وجود المشاهدين . والتجارب كثيرة ومتنوعه فى هذا الصدد ، وكلها تنتهى الى نفس النتيجة .

لنتصور نفسك فى عيادة أحد المحللين النفسيين : من المعروف أن التنويم المغناطيسى والايحاء أشد فاعلية فى حالة وجود مجموعة تتعرض للتجربة منها فى حالة اجراء التجربة على افراد ، يواجه فيها المنوم المغناطيسى والفرد الخاضع للتجربة بعضهما بعضا منفردين ، وكثيرا ما تستغل هذه الحقيقة فى الممارسة الطبية ، لأنه من المعتقد أن الايحاء المتبادل بين كافة الأشخاص الذين يخضعون للتجربة (أو المشاهدين) تزيد من قوة الأيحاء ، كذلك تزداد الفعالية كلما ازداد حجم المجموعة ، والأكثر من ذلك ، أن هذه الزيادة فى الفعالية تتحقق بسرعة أكبر من سرعة تزايد عدد الخاضعين للايحاء ، أضف الى ذلك ان الأثر يتوقف الى حد كبير على مكانة او سلطة

المنوم فى البيئة المعينة ، او على تشخيص هذا المنوم فى ذاته لتنظيم الجماعة وتضامنها .

ونحن نتناول فى هذا المثال تجارب اجريت داخل المعمل ، او فى عيادة المحلل النفسى ، وكانت بالضرورة احادية الجانب . ولكن ذاكرتنا تستطيع بلا شك أن تستعيد العديد من المواقف التى تزخر بها الحياة ونؤكد فعل نفس الآليات .

فاللاعب فى الملعب ، والتلميذ الذى يمسك بجهاز قياس الجهد الميكانيكى أمام لداته فى الفصل ، والممثل الذى يظهر أمام المشاهدين ، والمتحدث الذى يخاطب الناس من فوق المنبر ، ينمون جميعا عن هامش اضافى من المهارة ، والفطنة ، والقدرة على التعبير .

وهناك مثال آخر ، وهو الآلية القديمة قدم الدهر للايحاء الدينى لجمهرة من الناس بأشياء مثل الافراط والتطرف فى المشاعر ، ويخلى الذات الإلاهية ، والتعصب ، والتى ما كان من الممكن الايحاء بها لافراد هذه الجمهرة من الناس كل على حدة .

والتاريخ يعلمنا أن الاحساس بوجود « نحن » والانتماء اليها ، وما يترتب على هذا الاحساس من تحيز مشاعر انفصالية وتعصب أعمى ، تستغل لتحقيق أهداف ليست هى مصلحة الشعب ، والطقوس الدينية تربط الناس وتلحم بينهم الوشائج فى جماعات تتميز فى كثير من الاحيان بالمبالغة الفائقة فى تضخيم الاحساس بوجود « نحن » والانتماء اليها .

الم يستخدم النازيون آلية مشابهة من أجل تغليف عقول الملايين من الناس بالضباب ؟ والم تلعب « الاستراضات العسكرية التى لا تتوقف التى نظمها النازيون ، وتحريك الجموع التى جردت من انسانيتها عنى قرع الطبول وصدى الصيحات الهستيرية الصاخبة ، دورها فى اعداد

وتدريب فرق من السفاكين الذين يقترفون جرائمهم كالآلات دون أى وعى بحقيقة ما يتعلمون (١) » .

ويمكننا فى الوقت الراهن أن نرى العديد من الأشياء المماثلة ، وان لم تكن على نفس الدرجة من المغالاة ، فى الممارسة السياسية للعالم الراسمالى — كما هى الحال مثلا فى الحملات الانتخابية .

ومهما يكن من أمر ، فهذا الاحساس الرجعى المرتبط بالمجموعة « نحن » ، والذى يعادى مصالح الشعب ، يواجهه على الجانب الآخر ذلك التضامن الذى يزداد مع حركة التاريخ بين الجماهير العاملة فى مجرى الصراع الطبقى وحركات التحرر الوطنى ، والواقع أن الطبقة العاملة عبرت عن نزعة قوية نحو توحيد صفوفها فور ظهورها على ساحة التاريخ . وكان اتساع نطاق الانتاج الراسمالى يدفع الى ذلك دفعا . وتوحد العمال فى بادىء الأمر فى المنشآت الصناعية ، ثم فى فروع الصناعات ، ثم على المستوى القومى ، وأخيرا فى الاتحادات العالمية ، للنضال من أجل مصالحهم الاقتصادية والسياسية ، ان روح الوحدة والتضامن تتخلل أروع فصول تاريخ حركة الطبقة العاملة . **وهكذا تنامى الاحساس بوجود المجموعة « نحن » والانتماء اليها ليتحول الى ادراك للضرورة الاجتماعية التاريخية للعمل المشترك من جانب العمال ، واحزابهم السياسية ، ونقاباتهم .**

أما حركات القطاعات غير البروليتارية من الشعب ، فرغم قيامها على ادراك اقل استنادا الى العلم ، الا أنها على درجة عالية من الأهمية الأيديولوجية والنفسية ، وهى تظهر على الساحة من وقت لآخر فى فترات الوحدة الوطنية والنضال من أجل التحرر ، وخاصة فى غمار المعارك المعادية للامبريالية .

---

(١) مشكلات علم النفس الاجتماعى ، موسكو ، ١٨٦٥ ، ص ٢٢٩ .

ولقد تغيرت هذه الآليات الإجتماعية النفسية فى المجتمع الاشتراكي ، لانه مجتمع بخلو من التناقضات الحقيقية التى يمكن أن تنبثق منها مجموعات « نحن » موضوعية ، او تستند الى اى اساس علمى ، فى مواجهة مجموعات « نحن »اخري . والناس داخل المجتمع الاشتراكى قد لا يلمسون السمات النفسية الجديدة تماما فى مجتمعهم ، ولكنها تتضح لأول وهلة لكل من يطل على هذا المجتمع من الخارج ، فهاهو الكاتب التقدمى الانجليزى الشهير ، الان سلليتوى ، على سبيل المثال ، يبدى ملاحظة خاصة يقول فيها ان العمال الروس ، على خلاف العمال البريطانيين ، تولد لديهم احساس بالملكية الجماعية ، وقال أن العامل السوفيتي يقول : « اننا نبنى مساكن جديدة » او « نحن ننشىء مصنعا جديدا » ، بينما يقول العامل من توتنجهام : « انهم يبنون .. » ، أو « انهم ينشئون » ، ويضيف الكاتب قائلا أن الجميع فى الاتحاد السوفيتى يقولون « نحن نبنى .. » ، سواء كان القائل كاتبا ، أو مندوبا فى سوفييت مدينة من المدن ، او سائق تاكسى او طالبا .

ورغم ان انطباع سلليتوى يبدو تخطيطا الى حد ما ، الا انه يصور البون الشاسع بين المقولة النفسية الاجتماعية « نحن » فى المجتمع الراسمالى ، الذى تمزقه التناقضات الطبقية ، وبينها فى المجتمع الاشتراكى ، حيث لا وجود للتناقضات الطبقية .

ومع ذلك ، فليس فى الامكان تصور وجود المجموعة « نحن » الاجتماعية التاريخية بدون مواجهتها لمجموعة « هم » لأن المجموعة « نحن » لا تعدو أن تكون تجريدا اذا نظرنا اليها منعزلة. **فتدعيم صفوف الطبقة العاملة ليس عملية تجرى داخل الطبقة نفسها فحسب ، وانما هى فى الواقع عملية ثورية ، اى عملية تتدعم خلالها صفوف الطبقة العاملة فى مجرى الصراع ضد طبقة تتناقض معها تناقضا عدائيا ، هى البورجوازية ، سعيا نحو الهدف الاسمى وهو الاطاحة بحكم الراسمالية ،** وليس فى مقدورنا

ان تفهم وحدة الشعب السوفيتى بمعزل عن خطر الحرب المستمر الوافد من العالم الرأسمالى ، او عن المنافسة الاقتصادية والصراع الأيديولوجى .

وعلى اى الأحوال ، وكما سبق ان لا حظنا ، فالثنائية « هم » لا تعنى بالضرورة العداء والحرب . فكلما ازدادت وحدة الناس عمقا وتلاحما فى المجتمع الاشتراكى ، كلما بدت المباراة فى العمل الاشتراكى ، بكل وضوح ، كقانون للعمل والتقدم فى هذا المجتمع ، وكلما لمسنا اننا ننتقل من المنافسة بين الأفراد الى المباراة الجماعية التى تتلاحم فيها « العدوى النفسية » التى تجرى داخل فريق العمل ، مع حماس العمل المقترن بالمنافسة بين الفرق ، والورش ، والمصانع ، والمزارع الجماعية ، ومزارع الدولة ، والأحياء ، الخ .

وهكذا نجد انفسنا من جديد أمام الفرضية الأساسية ، فلا التاريخ ولا علم الأجناس يعرف أى مجموعة أو جماعة من الناس ، أى من المجموعات « نحن » ، منعزلة او لا تقف فى مواجهة الآخرين ، وليس من طبيعة الأمور او من المنطق السوى فى شىء أن نناقش التزايد أو التناقص المحدد لتأثير الجماعة أو العشيرة على بواعث او انماط سلوك اعضائها كأفراد ، مالم ندرس السمات الخارجية المتزامنة التى تميز الجماعة او العشيرة عن الآخرين ، فهذان جانبان لظاهرة واضحة .

وعلى اى الأحوال ، فمن واجب المؤرخ أو الباحث فى مجال علم النفس الاجتماعى الا يغرب عن باله ايضا أن هذه المجموعات قد تكون أيضا مجموعات « هم » من صنع الخيال . فاذا كانت المجموعة « نحن » لا تستطيع ان تتشكل وتكتسب هويتها بدون معارضة ، فهى قد تلجأ الى الأوهام ، او الخيال ، او الخرافة ، او الاختلاق ، وفى هذه الحالة تصبح المجموعة « هم » من صنع الخيال ، وما أكثر ما يزخر التاريخ بالأمثلة التى تندرج تحت هذا الوصف .

وليس نادرا ان ينجح الساسة فى تعبئة الجماهير بتعمد ترويج الاشاعات او التقارير الزائفة التى تتحدث عن مؤامرات وهمية او عن

جواسيس وهميين ، مثل الحديث عن « مؤامرات الكومنترن » ، و « أصابع موسكو » . وينتمى التزييف الفج وما يروج من مزاعم حول اليهود والزنوج من أجل تدعيم الروابط الداخلية فى المجموعة « نحن » القومية كلما راحت تتمزق تحت وطاة تناقضاتها العدائية الحقيقية والصراع الطبقى ، الى هذه المقولة « هم » التى لا وجود لها الا فى الخيال ، والتى ليست الا من صنع دعاة العنصرية ومعاداة السامية ، والتاريخ يزخر ايضا بالأمثلة فى هـذا المجال ، وبلا حصر ولا عد .

والحالات القصوى التى تجسد « هم » التى لا وجود لها الا فى الخيال ، هى التربة الخصبة التى تنبت منها الشياطين والملائكة الوهمية ، والأرواح الشريرة والقوى الآلهية . والدور الاجتماعى لهذه الاشباح ، ضمن أدوار أخرى ، هو أن تحل محل مجموعات « هم » الحقيقية كلمـا تطلب الأمر ، من أجل تشكيل مجموعات نفسية كبيرة أو صغيرة ، بل وربما كان فى مقدورنا ايضا حتى أن نحلل مفهوم الالوهية أو الرب الواحد من هذه الزاوية ، وسوف نتبين فيما بعد كيف تظهر « هو » عند نقطة اتصال المجموعات « نحن » بالمجموعات « هم » ، وكيف تتحول « هو » الى « انت » . فالرب ٨ الدين (المسيحية والاسلام) هو « هو » و « انت » فى آن واحد . وفيما يتعلق بالتعارض النفسى للمجموعات « نحن وهم » ، فعلم النفس الاجتماعى يفتح آفاقا جديدة أمام الدراسة العلمية لمنشأ وطبيعة المفاهيم الدينية .

و « هم » الخيالية فى مظاهرها القصوى ، لا علاقة لها على الاطلاق بحقائق الأشياء . ولكننا نشهد ، فى أغلب الحالات ، ظاهرة اقل صراحة وهى المبالغة فى تضخيم سمة حقيقية ، أو تشويهها ، بفعل الخيال ، وفى هذه السياق تصبح « هم » التى ليست الا من صنع الخيال ظاهرة اجتماعية نفسية مميزة وشديدة الانتشار .

ويجب على كل من يعمل فى مجال علم النفس الا يكف عن السعى من أجل اكتشاف هذه المجموعات « هم » التى يتعذر تصورها لأول وهلة ،

فهذه الآلية النفسية هى المعيار النقدى الدائم لوجود وموقع « نحن » التى ينتمى اليها كل فرد ، وربما تسربت اليها عناصر متخفية فى ثياب « نحن » بينما هى ليست من « نحن » فى شيء فى حقيقة الأمر ، وانما هى تنتمى الى « هم » . وهذا البحث الدؤوب والمتصل ، لا غنى عنه بأى حال . ومن الطبيعى أن يزداد هذا البحث تكثفا كلما أمعنت العناصر المعادية فى التخفى والتنكر . وبناء على ذلك ، فالعداء والكراهية يمكن ان يوجها ، ليس فقط للثقافات والمجتمعات البعيدة ، وانما أيضا الى أقرب الثقافات وأقدرها على التطابق مع ثقافة « نحن » . وربما كان التعارض الاجتمـــاعى النفسى للمجموعتين « نحن وهم » أكثر حدة فى علاقته بتلك المجموعات « نحن » المفترضة المتخفية .

٦ — المــزاج

علينا أن نتذكر هنا ان كافة انماط الجماعات الاجتماعية النفسية يمكن تقسيمها على وجه التقريب الى جماعات ثابتة وجماعات متغيرة ، اى الى تركيب نفسى ومزاج . ويصدق ما قلناه عن « نحن وهم » أيضا على التعارض بين اى شعبين ، أو اى طبقتين ، أو اى فئتين اجتماعيتين ، او مهنتين ، كما يصدق على موقف المعارضة الذى تتخذه المجموعات الساخطة المتناقضة المناضلة من الشعب ، ضد النظم الاجتماعية السياسية البالية ومن يمثلونها . وفى كلتا الحالتين تولد الفوارق الخارجية التمايز الداخلى : فالنزعة الرافضة الموجهة ضد المجموعة « هم » تحفز سريان العدوى بين أعضاء المجموعة « نحن » .

وهكذا ، فعندما يسيطر على عدد من الناس مزاج متجانس ، ويعبرون عنه تعبيراً مشتركا لدرجة او أخرى ، فهم يشكلون جماعة . والمزاج ، كقاعدة عامة ، لا يتجسد بطريقة غير مباشرة — من خلال الثقافة والعادات التى يتولد عنهما النمط اليومى للسلوك — وانما يتجسد مباشرة من خـــلال عواطف معينة وتحولات فى الوعى . والأمزجة تتولد من التناقضات الكامنة

فى الكائن الاجتماعى أو من الظروف الاجتماعية الموضوعية . كما ينقسم النزاع بين احتياجات الناس ومصالحهم وبين الامكانيات المتاحة لاشباعها .

والاحتياجات والمصالح تشكل معا مفهوما أيديولوجيا بالغ التعقيد ، وهى فى نفس الآن مفهوم نفسى . والاحتياجات ليست مقولة فسيولوجية طبيعية بحتة ، وهى تختلف وفقا للظروف الاجتماعية الاقتصادية التاريخية والثقافية المختلفة ، وبالاضافة الى ذلك فالاحتياجات ليست مادية فحسب ، وانما تشمل عددا من المتطلبات الروحية قلت أم كثرت .

والاحتياجات تتفاوت فى مدى الحاحها . فقد تكون انجذابا لشىء ما ، او رغبة كامنة تريد ان تتحقق او نظرة تتوق الى الظفر بها لمشهد نحبه ، وما أن يتم اشباع اكثر الحاجات حيوية والحاحا حتى يبدأ الاختيار والمقارنة والتفضيل . وايا كانت نوعية الحاجة ، فهى فى جميع الأحوال نزوع الى الحصول على شىء مفتقد . والحاجة التى تم اشباعها تكف عن ان تكون حاجة .

وتتكون المصالح ، الخاص منها وتلك التى تتمشى مع الاحتياجات الموضوعية والأهداف الذاتية للجماعة ، من مجموع الاحتياجات الثابتة والمستمرة . ومصالح المجموعة الطبقية والاجتماعية ، او المهنية ، أكثر عمقا من المصالح الفردية ، بل وهى تحد من هذه المصالح الفردية فى بعض الأحيان . والمصالح الشخصية ومصلحة الجماعة تتصادم فى المجتمع البورجوازى ، واما المجتمع الاشتراكى فمن سماته البارزة أنه يرسى القاعدة المادية لضمان التوافق والانسجام بينهما .

والمصالح الاجتماعية هى التربة التى تنبثق منها المطامح ، والمثل العليا ، والرغبات ، والأمانى ، وقد يكون بعضها مبهما مغلفا بالغموض ، والبعض الآخر قائما على التدبر والتفكير والوعى لدرجة او اخرى .

واخيرا ، فالأمزجة الاجتماعية حالة عاطفية ترتبط بالانجاز أو عدم توفر الظروف العملية لهذا الانجاز ، كما ترتبط بالمراحل المتفاوتة من الجهود

المبذولة من أجل تحقيق المطامح والخطط والمشروعات . والمزاج الاجتماعي كقاعدة عامة ، موقف عاطفي ازاء أولئك الذين يعوقون تحقيق الرغبات او يساعدون على تحقيقها . وهي تتراوح بين الامزجة الوقتية النابعة من التاثر العابر ، والحالة الذهنية ، وصولا الى تشكيل الرأى العام .

وكان من الطبيعي ان يثير مزاج المجموعة او المزاج الجماعي اهتمام العديد من العلماء البارزين ، ومنهم ف. م. بختريف (١) الذى حاول أن يرسي القواعد العلمية لعلم النفس الاجتماعي ، مع التركيز على نقاط محددة هي ما تتميز به الأمزجة من اندفاع ، وديناميه ، وقابلية للتغير ، وتردد ، وقدرتها على أن تتحول الى انفعال . وتماما كما كانت سيكولوجية التجمعات العارضة تدرس أساسا في علاقتها بكتلة هلامية غير متبلورة من الناس ، فكذلك كانت الحال تماما مع الأمزجة . ولا جدال في ان الأمزجة نادرا ما تنتشر بين جميع الأعضاء في جماعة اجتماعية ثابتة ، ولكن هذه الأمزجة ، عندما تستند الى الاحتياجات والمصالح الموضوعية ، فهي غالبا ما تسيطر على اغلبية اعضاء الجماعة . والأكثر اهمية من ذلك ، ان المزاج ، بدوره ، يصنع ويشكل الجماعة ، وكلما ازداد اثره في هذا الاتجاه ، كلما ازداد استمرارية وتنظيما ، أى كلما أصبح مفهوما وواضحا .

والأمزجة الاجتماعية العابرة ، والتى تؤثر في بعض الأوقات على طبقات او فئات معينة ، يمكن ان يتم تبادل مواقعها . وقد تكون الأمزجة نابعة

---

(١) ف. م. بختريف ، « موضوع ومهام علم النفس الاجتماعي كعلم موضوعي » ، سان بطرسبرج ، ١٩١١ ، ف. م. بختريف ، « الفعل المنعكس الجماعي » ، بتروجراد ١٩٢١ ، أ. فواتوفسكي ، « مقالات حول السيكولوجية الجماعية » ، في مجلدين ، المجلد الأول ، موسكو — بتروجراد ، ١٩٢٤ ، المجلد الثاني ، موسكو — لينجراد ، ١٩٢٥ .

من تصور خاطيء للحقائق . ولكن كلما ازداوت ثباتا كلما ازداد تمثيلها للمجموعة « نحن » ومن ثم تتحول الى عامل اجتماعي مميز . وكلما ارتفعت درجة التطور الاجتماعي كلما ازداد المجال اتساعا امام هذه الجماعات الدينامية .

وقد تكون الأمزجة موجبة في الأساس ، أي تلبى الآمال والجهود التي تهدف الى تحقيق المطامح ، والمثل العليا ، وهذا النوع من الأمزجة يؤدى الى نشأة التضامن الطبقى ، والعاطفة القومية ، والمشاعر الثورية ، ويحث على النضال من أجل التحرر الوطني ، والحماس في العمل ، ويولد الثقة والتفاؤل والروح المعنوية العالية والبطولة ، كما يعمل على توقد النزعات الوطنية ، والاخلاقية ، والجمالية ، أو الدينية ، الخ . لكن الأمزجة تصبح نهبا لشتى أنواع التناقضات ، عندما تصطدم الآمال والمطامح بالواقع المرير الذى لا يتيح لها تلبية أو اشباعا ، وهنا يصبح السخط ، والتبرم ، والقلق ، والخوف ، والغضب ، والاحباط ، هي السمات المميزة . والأمزجة قد تقترن بعصر من العصور ، أو حقبة محددة من الزمن ، كما كانت الحال في فتـــرة الركض المحموم وراء تحقيق الثروات بأى طريق في مرحلة التراكم البدائى ، أو النزعة الى الفروسية والرحلات الطويلة الى الأراضى المقدسة أيـــام الحروب الصليبية ، أو الاغراق في البذخ والمباهج الحسية ، أو نبذ كل ذلك كرد فعل مضاد ، في القرون الأخيرة من حياة الامبراطورية الرومانية .

ويصف ب . د . بازيجين ، الباحث السوفيتى في المشكلات الاجتماعية النفسية ، طبيعة المزاج على النحو الآتى : « وهكذا ، فالمزاج حالة معقدة ، متعددة الجوانب ، تتميز بالانفعال الشديد وتوقد العواطف ، تسيطر على الفرد . وأما بالنسبة للمزاج الجماعى أو الجماهيرى او الذى يسيطر على مجموعة من الناس ، فالى جانب اشتماله على هذه السمات ، فهو يتميز بعدد من الخصائص الاضافية مثل **النزعة الى المحاكاة ، والقوة الدافعة المتهورة لدرجة اكبر ، والطبيعة الجماهيرية والدينامية** . ولا شك أن هذه السمات الاجتماعية ، والقوة الدافعة للمزاج ، واستجابته للمؤثرات في نفس الوقت ، تجعلان منه الحلقة الرئيسية في اعادة صياغة العالم الداخلى للفرد (١) .

تجعلان منه الحلقة الرئيسية فى اعادة صياغة العالم الداخلى للفرد (١) .

وثمة جانب فائق الأهمية فى المزاج الاجتماعى : فهو يستجيب للمؤثرات ، ويمكن تشكيله وتغييره فى حدود معينة ، بل ويمكن ان تجرى السيطرة عليه . فعند احد الطرفين ، ينتقل المزاج بالعدوى ومحاكاة تصرفات الآخرين ، وعند الطرف الآخر يتشكل المزاج من خلال الاقناع والدعاية . والناس يمكن أن يتعلموا أو ان ينقادوا استنادا الى الأمزجة ، وهذا دليل واضح على مدى الامكانيات التى ينطوى عليها علم النفس الاجتماعى ، لأنه يمكن الباحث من تحليل العوامل التى تولد الأمزجة ، فى طبقة وبين الطبقات ، أو فى بلد أو على الصعيد العالمى . كما يمكنه من تحليل المشاعر القومية والأممية التى تلعب دورا هاما فى حياتنا ، وتحليل حماس الجماهير ويأسها ، والخطوات العملية الجماعيـــة ، وحتى الجرائم الجماعية .

وفى عالمنا الراهن ، تتزايد اهمية مصداقية الأفكار وطبيعتها العلمية ، لأنها هى المهدات اللازمة للسيطرة على الأمزجة . ويمهد ذلك الطريق ، من الناحية النفسية ، للانتصار الحتمى للقوى التقدمية ، **لأن صـــياغة امزجة الجماهير وما تقوم عليه من أعمال هى فى خاتمة المطاف صراع بين الحقيقة العلمية التى لا جدال فيها ، والأكاذيب القابلة للدحض .**

والمزاج يوحد الناس فى اتفاق اجماعى فى الرأى ، فى « نحن » ، ولكنه يرتبط أيضا بمثل اعلى من « نحن » من صـــنع الخيال . والنـــاس يقولون لأنفسهم ، اذا جاز التعبير ، أنهم يعيشون فى عالم « معـــادى » أو « ليس عالمهم » . والحركات الجماهيرية ضد النظام القائم كانت تتضمن دائما عناصر طوباوية (خيالية) . وكان الناس يبحثون عن ذاتهم ، عن « نحن » الحقيقة ،

---

(١) ب . د . بازيجين ، المزاج الاجتماعى ، طبيعته وحركته . انظر مجموعة : مشكلات علم النفس الاجتماعى ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٣٢٠ .
فى عام ١٩٦٨ نشر ب . د . بازيجين كتـــابا تحت عنـــوان : المـــزاج الاجتماعى ، يحلل فيه بالتفصيل الظاهرة الاجتماعية النفسية .

فى الماضى السحيق ، فى الأيام الأولى للمسيحية ، فى « العصر الذهبى » ، الخ ، أو يرنون الى « نحن » الحقة فى عصرنا الراهن ، هناك فى الأفق البعيد ، على جزيرة مجهولة أو بين شعوب بدائية لم يتطرق اليها الفساد . وأيضا ، كان الناس يبحثون دائما عن « نحن » الحقة فى مكان ما فى المستقبل ، وهذا هو أكثر الأشكال واقعية لأحلام اليقظة واكثرها فاعلية فى اغلب الأحيان . وفيما مضى ، كان الناس ينجزون الاصلاحات والثورات تحدوهم أفكار طوباوية (خيالية) حول جنة سرمدية صافية من الغيوم ، ويا للمرارة التى كانت تغص بها حلوقهم عندما يتعلمون أن الحياة مفعمة بالتناقضات ، وأنه لا يزال هناك « هم » من نوع ما ، يتربصون بهم الدوائر . ولكن الأفكار الطوباوية أخذت تخلى مكانها بالتدريج ليحتل مكانها الفكر العلمى الرشيد . ومع ذلك ، فتأثيرها على مزاج الجماهير لم يتبدد بعد ، بل وعلى العكس ، انه فى ازدياد .

ومهما يكن من أمر ، **فالمزاج عرضة لتأثير الوعى ، وان كان ذلك فى دائرة العواطف أكثر منه فى دائرة التفكير .**

والعواطف والمشاعر اما ان تكون سارة أو غير سارة . انها اشبه بالشحنة الكهربائية ، اما موجبة واما سالبة . والطبيعة هى التى أجرت هذا التقسيم فى مشاعر الحيوان والانسان ، استنادا الى ظواهرها.والواقع أن تشابه العواطف الانسانية والحيوانية ليس الا تشابها خارجيا ، ومازال على علم الفسيولوجيا أن يثبت أن حالة الاثارة العاطفية فى الحيوان يمكن أن تستخدم فى وصفها المصطلحات الدالة على السرور وعدم السرور .

حقا ان العديد من العلماء ، ومنهم الفسيولوجيان السوفيتيان ب . ك . أنوخين و ب . ف . سيمونوف ، حاولوا وضع نظرية فسيولوجية بحتة للسرور وعدم السرور ، وكانت اكتشافاتهم فى مجال القاعدة المادية للعواطف عديدة ومتنوعة ، وقد وجدوا أن بعض عواطف معينة تقابل تغيرات خاصة فى القطاعات التالية لغشاء المخ والأجهزة الفسيولوجية للجسم . ولكنهم

سلموا بأن العواطف هى بالضرورة « نعم » أو « لا » ، جيدة أو سيئة ، سارة او غير سارة . ثم جاءت تجربة اجريت فى نفس التاريخ تقريبا ، لتوضح على ما يبدو وجود « مركز للسرور » فى مخ الحيوان (وبالتالى مركز لعدم السرور) لتضيف ثقلا الى تلك النظرية . فعندما تم ادخال قطب معدنى كهربائى متصل بمصدر للطاقة فى مخ فأر ، بحيث يمكن للفأر نفسه ان يدع التيار الكهربائى يتدفق الى مخه او أن يمنعه ، كان من المثير للدهشة أن يـدع الفأر التيار يمر ، رغم ان ذلك لم يكن يرمز لأى عوامل نافعة بيولوجيا . واستنتج القائمون على هذه التجربة ان التأثيركان مرضيا بالنسبة للفيار،وبعبارة أخرى ان التيار اثار « مركز السرور » فى الفأر . وثمة تفسير أقرب الى الصحة وهـو أن التأثير الكهربائى ادى الى اشباع رغبة اتخذت شكل الهلوسة .

ولما كان هذا التأثير وهميا ولم تنتج عنه اى آثار جانبية فسيولوجية ، لجأ الحيوان اليه مرة بعد أخرى ، وبلا نهاية . وباختصـار ، كان التحليل الفسيولوجى للعواطف سليما ، فيما عدا الجزء المتعلق بالتقسيم الثنائى ، اى ادخال تقييمات تنسب لها قيم موجبة وسالبة . وكان ذلك هو التصور الذى ظنه الباحث موضوعيا لتركيبه النفسى الانسانى هو نفسه .

وهذه الحوافز الموجبة والسالبة لدى الانسـان لا تنبع من تغـيرات تناقضية متعارضة فى الكائن الحى تتولد من طبيعته البيولوجية أو نوعية أوعينه الدموية وطريقته فى النمـو ، فليس هنـاك أى شىء من هـذا النوع . فالانسان قد يرتعد فرحا ، أو غضبا ، أو خوفا . وقد يتصبب عرقا كرد فعل للرعب ، أو الخجل أو الخوف . وليس بالضرورة أن يكون الدافع الى الضحك موقف فكاهى ، وربما جاء تعبيرا عن الرضا أو عن حالة مؤلمة أو محزنة . وهناك العديد من البواعث المتباينة التى تجعل وجه شخص من الأشخاص يكتسى بالحمرة أو يعتريه الشحوب . والدموع يمكن أن تعبر عن الألم ، أو الفرحة ، أو الحنان ، وليس بالضرورة أن يصاحب توقد العواطف ترقرق للدموع فى العيون . وكما يقول الأكاديمى ك . م . بايكوف فى تصويره المثير :

« ان الأسى الذى لا يعبر عنه بالدموع ، يدفع الأعضاء الأخرى الى البكاء » . وهذا يعنى ان العاطفة يمكن ان تعبر عن نفسها فى دوائر فسيولوجية وسيطة ، بعيدة ، فتحدث ردود فعل من الالم فى الأجهزة والاعضاء الداخلية .

وكما نرى ، فالعواطف الموجبة والسالبة لا ترتبط ارتباطا مباشرا بآلياتها الفسيولوجية . فكيف ، اذن ، يمكننا ادراك وتمييز ما يقابلها ؟ . ان السلوك العملى ليس معيارا ، لأنه يمكن لشخص من الأشخاص أن يرضخ طواعية للألم (وهو احساس سالب بالقطع) ، وأن يستمد منه احساسا موجبا . فهل ليس لذلك من معنى الا ان الانسان قادر على اخضاع المشاعر السارة وغير السارة لبواعث نبيلة ؟ كلا ، لأن طبيعة المشاعر تتغير . وينطبق هذا القول على الحيوان أيضا . ففى مقدورنا أن ندرب كلبا بحيث يستجيب استجابة موجبة للألم (صدمة كهربائية مثلا) اذا استندت هذه العملية الى فعل موجب ، مثل اعطائه الطعام ، فهو يخضع للألم مرحبا به فى هذه الحالة . وقد تخلى أحد الجراحين الفرنسيين البارزين ممن تناولوا فى كتاباتهم مشكلة الألم ، عن كل ما سبق أن توصل اليه من نتائج وكل النظــريات المطروحة حول هذه الظاهرة ، لأنها عجزت جميعا عن تحليل وتغطية كافة الحقائق . وباختصار ، **فقد يلجأ شخص من الأشخاص الى تعريض نفسه طواعية لنوع اشــد من الألم ، من أجل تخفيف ما يعانيه من الم بالفعل .**

والسرور وعدم السرور ليسا من المفاهيم الفسيولوجية ، ومصـــدرهما فى الانسان تصورى نفسى معقد ، أو بعبارة أكثر تحديدا ، فهما الأثر الناجم عن تحقيق الأهداف والمثل العليا والرغبات أو عن الفشل فى تحقيقها . وما هى السعادة ؟ نفسيا ، هى التطابق بين الانجازات والمطامح . والسعادة هى أعلى الدرجات ، والفرحة ادنى كثيرا ، ولكنها تعبر أيضا عن تطابق الواقع والحلم ، أو الأمل ، أو الرغبة . والسرور درجة أدنى من الفرحة ، لأن الهدف أكثر غموضا ، وان كان هو نفسه فى جوهره . ولذلك ، فالقضية تمتد بجذورها فى المخططات ، والمثل العليا ، والأهداف ، والأحلام المستهدفة ، ... كلها حتى

الآن احاسيس لا وجود لها . وفى غيبة هذه الاحاسيس لا يمكن تصور وجود اى مشاعر « سارة » .

وينتهى بنا هذا القول الى طرح القضية على مستوى مختلف — اى ان ننتقل بها من سيكولوجية الفرد الى السيكولوجية الاجتماعيـــة ، وهى اكثر عمقا ، فالسرور يقابل « نحن » (قائمة أو محتملة) ، بينما يمثل عدم السرور « هم » ، وفكرة السعادة الأسرية ، والعزاء ، والفرحة ، والصـــداقة ، والتضامن ، والعون المتبادل ، وكذلك الاشباع الثقافى والجمالى ، تنتمى الى مجموعة « نحن » متخيلة ، الى الحصيلة الاجمالية من السمات المميزة لمجموعة « نحن » ، وهى ترتبط بالتقاليد المشتركة ، والمحاكاة ، والمثال ، والسوابق ، والتذكر . والاحساس غير السار لا يرغب فيه احد ، وهو اشبه بوقوع المرء تحت تأثير « هم » . ونحن عندما نشعر بما يخدشنا ، نصب اللعنات على شخص مجهول ، والطفل يبحث عن شخص ما يلقى عليه باللائمة ويحمله مسئولية ما يعانيه من الم ، واما الانسان البدائى فكان ينسب المرض أو الموت أو فشله فى رحلة الصيد الى الارادة الشريرة لمجموعة « هم » من نوع ما ، متصورا وجود مؤثرات وافدة من بعيد ، كالسحر مثلا . والانسان البدائى يعزو بعض الحوادث الى السحر الذى يمارسه « هم » ، فهم هى القوة السالبة التى تسبب الازعاج وتبدد السرور . فليست الحوادث هى « العدو » لانها غير سارة ، وانما هى غير سارة لانها « عدو » .

ومن الطبيعى ان هذه الحوادث ليست هى ما يميز « نحن » عن « هم » فى واقع الأمر فحسب ، وانما هناك من الحوادث أيضا ما يقلب « نحن » رأسا على عقب ، فموت احد الاقارب فأل مشئوم ، ومدعاة للأسف والحزن ، إنه يحطم اعمق الروابط المباشرة التى تلحم اشتات « نحن » .

وها هى السيكولوجية الاجتماعية تقلب الهرم الذى يسلم به الجميع رأسا على عقب . فقد جرت العادة ، فى عقول الناس ، على ان يقف الهرم

على راسه وليس على قاعدته : والفرد « الانا » ، يصنف مشاعره وعواطفه في مجموعتين . ولكن التحليل العلمي يثبت انه ليس هناك تفرع تنـــائي الى بهجة وعدم بهجة ، أو سرور وعدم سرور ، خارج مفهومي « نحن » و « هم » . وهذا التحول غير المتوقع يشير باصبع الاتهام الى التفكير المجرد ، ولكنه يلبي رغبة ايفان بافلوف في « التعمق في النظر الى ما وراء الحقائق » . ان التميز الاجتماعي النفسي بالتضاد او التغاير بين « نحن » و « هم » ، يمكن ان يتغلغل بعمق في سيكولوجية الفرد حتى يصبح هو جوهر هذه السيكولوجية .

ولذلك ، حان الوقت لدراسة الفرد أو الشخصية من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي .

ولكن علينا اولا ان نختتم هذا الجانب من السيكولوجية الاجتماعية الذي خصصنا له هذا الفصل .

فهل التركيب النفسي ثابت عند لحظة محددة ؟ وان كان الامر كذلك ، فمن أي نوع هذا الثبات ؟ أم أن الأمزجة الاكثر دينامية هي السائدة ؟ وإذا كان الامر كذلك ، فأي نوع من الأمزجة ؟ هذا يتوقف على الظروف التاريخية وليس على الارادة المتعسفة ، أو على الصدفة . فالعمليات الموضوعية للتطـــور الاجتماعي التاريخي تؤدي الى اثارة نشاط مقابل بين الناس . وتعمل بعض القوي التاريخية على كبح التغيرات الوشيكة ، بينما تسعى قوى أخرى الى التعجيل بهذه التغيرات ، والأولى تساند العـــادات والتقاليد واستـــمرارية الأجيال ، بينما الأخيرة تصر على اثارة الأمزجة ، وخاصة امزجة السخط . وبعبارة أخرى ، فعلم النفس الاجتماعي يبحث عن السبب الجذري لكل من التركيب النفسي والمزاج ، اى عن سبب الثبات النسبي والحركة (وهى حركة عنيفة وطائشة في بعض الأحيان) ، عن ســـبب الحالة النفسية للنـــاس ، وللجماهير والجماعات ، في الانماط التاريخية والاجتماعية الكامنة في الأعماق .

ونحن نتعامل مع تعميمات تنطبق على انواع مختلفة من الوقائع وعلى ظروف متفاوتة في المكان والزمان . والظواهر الاجتماعية النفسية والانمـــاط

المتساوقة التي تناولناها حتى الآن — سريان العدوى ، والنزعة الى الرفض ، والعلاقات بين المجموعة « نحن » والمجموعة « هم » ، وتفاعل الأفراد مع « نحن » ، والتركيب النفسي الثابت ، ونفى أو تدمير جانب من جوانب نمط الحياة السائد والسلوك النفسي المألوف ، وظهور أو تلاشى النشاط النفسي الاجتماعي — لا تلعب ادوارا مختلفة فحسب ، بل وحتى متعارضة ، فى ظل الظروف المحددة المختلفة أو فى المواقف التاريخية المختلفة . وهكذا ، وبالرغم من القوالب الجامدة التي يتحصن وراءها علم النفس الاجتماعي البورجوازي ، فالبيئة الانسانية يمكن أن تتمخض ليس فقط عن أفعال دنيئة . فوفقا للظروف الاجتماعية المحددة ، يمكن لنفس الآلية النفسية الواحدة أن تنتج تيارات موجبة او سالبة ، وطائشة او حكيمة ونافعة للمجتمع .

وكان التقييم البارع الذي قدمه لينين للظواهر النفسية فى الحركات الاجتماعية والنضال الثوري هو الحافز الذى حدا بعلماء النفس الى الانتقال بدراساتهم الى مجال التاريخ .

وهناك فى المجتمع بعض قطاعات من السكان تعمل من أجل تثبيت الوضع القائم ، بينما تعمل قطاعات أخرى على تقويضه . ويتوقف نوع النظم والتقاليد والمؤسسات التى تعمل القطاعات المختلفة من السكان على تثبيتها او تقويضها ، على أى منها هو التقدمى وأيها هو الرجعى ، على الظروف التاريخية والاجتماعية المحددة .

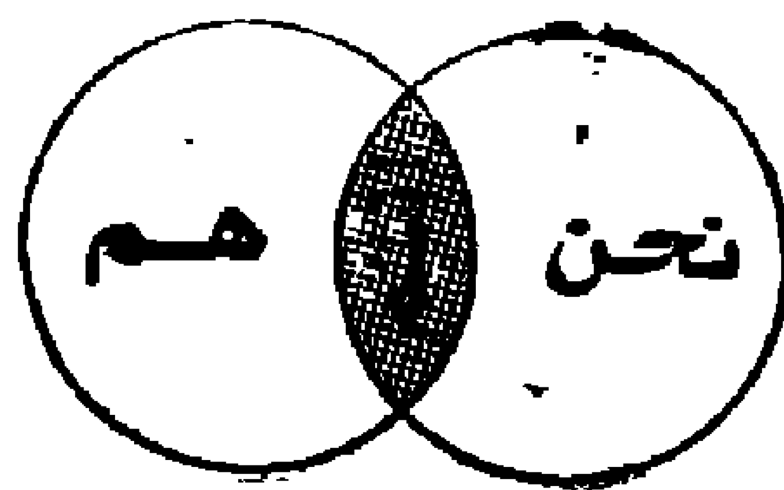
ان الفهم العميق للقوانين التاريخية ، وللأسباب الموضوعية للثبات والحركة ، هو وحده الذى يوفر القاعدة الصلدة لعلم النفس الاجتماعى سواء فيما يتعلق بالماضى أو بالعصر الحديث .

٧ ــ أنتــــم

لقد انتزعنا المقولتين « نحن » و « هم » من ظروف اجتماعية تاريخية محددة ، ورغم ان الأمثلة التى استشهدنا بها مستمدة من الحياة المعاصرة ، الا أن هاتين المقولتين لم توجدا بحالتهما النمطية المجردة الا فى فجر التاريخ . ففى العصر البدائى ، كان الموقف من المجموعات « هم » موقفا سلبيا واضحا : ويتمثل فى التجنب ، والانعزال ، بل وحتى التكتم والتسلح بالخبث .

وكانت السمة المميزة للمجموعات « نحن » هى ارتباط الفرد بمن على شاكلته تماما ، بمثيله ، والسلوك القائم على المحاكاة ، والكد الجماعى . ولكن الواقع أنه ، بمرور الوقت ، فرضـــت كل من المقولتين عــددا من القيود على الاخرى . ومن هنا ، فأى تحليــل نظرى لموضـــوع علم النفس الاجتماعى لابد أن تكون خطوته المنطقية التالية هى : التغلغل المتبادل بين « نحن » و « هم » ، لأن هذه هى النقطة التى تنتهى بنا اليها جدلية العلاقة بينهمـــا .

واذا تصورنا المجمـــوعتين « هم » و « نحن » على شـــكل دائرتين متداخلتين جزئيا ، فهنا تندرج المناطق المتداخلة تحت تسمية المقولة : « أنتم » . وتشكل هذه المناطق المتداخلة دائرة للتفاعل ، وليس للتنافر أو العزلة . و « أنتم » ليست هى « نحن » لأنها عرضية ، ولكنها ليست « هم » فى نفس الوقت ، لأن التجانب المتبادل حل محل التنافر . ان « أنتم » هى ، بمعنى معين ، اعتراف بأن المجموعات « هم » لم تعد مطلقة ، نظرا لقدرتها على أن تشكل جزئيا جماعة جديدة مع المجموعات « نحن » ، أى مجموعة « نحن » اكبر حجما وأشد تعقيدا . وهذه المجموعة الجديدة « نحن » تنقسم بدورها إلى مجموعتين « نحن » و « هم » ، حيث يكون اعضاء كل منهما « أنتم » بالنسبة



لأعضاء المجموعة الأخرى . وبعبارة أخرى ترى كل مجموعة فى الاخرى « أغرابا » ليسوا منا ، (« هم » ، كما ترى فيها فى نفس الوقت « أهلنا وذوينا » (« نحن ») .

وعلى سبيل المثال ، ان جميع الرجال هم « أنتم » بالنسبة لجميع النساء ، والعكس بالعكس . والبالغون هم « أنتم » بالنسبة للأطفال والعكس بالعكس ، والعائلات أو القبائل المتجاورة ، والتى تتبادل الزيارات وتقيم الاحتفالات والمهرجانات المشتركة ، أو تقدم على الهجرة معا ، هى أيضا « انتم » بالنسبة لبعضها البعض — وكانت بطون القبائل تشغل موقعا مماثلا فى القبائل الثنائية القديمة .

وينتهى بنا الانتقال المنطقى من « نحن » و « هم » الى « أنتم » الى الالتقاء بجماعات تتكون من اكثر من نوع أو جنس واحد . وينطق هذا القول على الماضى البعيد ، وحتى لو وصلت بنا المقولة « أنتم » الى عتبة التاريخ ، فنحن لا نتجاوز بذلك بعد حدود فترة انسان ما قبل التاريخ (الكرومانيونى) ، فالآلية النفسية الجديدة التى خرجت الى الوجود فى ذلك الحين ، كانت لا تزال تكبح الآليتين السابقتين عليها . وبمرور الوقت ، اتسعت « أنتم » واصبحت أكثر تعقيداً وثراء .

ومع ذلك ، فمن الناحية المنطقية ، لم تكن « أنتم » الا مرحلة انتقالية الى أن تولدت عنها مجموعات مماثلة لاحتة . ويجب الا نتوقف كثيرا عند « أنتم » بشكلها النمطى المجرد ، لأن كل الحقائق تحدونا عند نقطة التقاطع هذه الى أن ننتقل الى الفرد بصفته المرحلة التالية فى التحليل النفسى الاجتماعى (واذا أزحنا الستار بشكل أو آخر ، فسوف نرى أن المرحلة التالية هى « هو » كما يتجسد فى نقطة التماس بين الدائرتين « نحن » و « هم » ، وذلك عندما تتباعد الدائرتان وصولا الى نقطة الحد الأدنى من الاتصال) .

وقد اكتشفنا عندما دخلنا دائرة « أنتم » أن كل شخص ينتمى الى جماعتين نفسيتين فى نفس الآن — لمجموعة من مجموعات « نحن » ، وكل

فرد من الآن فصاعدا يمثل شخصية قائمة بذاتها ، اى نقطة التقاء لمختلف الجماعات . وضمن اشياء اخرى ، يتحتم على هو او هى أن يخفى او أن يحجب شيئا ما عن هذه المجموعة تارة وعن تلك المجموعة تارة أخرى ، وان تنفصل الحياة « الداخلية » بنفسها عن الحياة « الخارجية » .

ولكن مهما يكن من أمر فهذه النقطة ، منطقيا وتاريخيا ، لا زالت بعيدة عن « أنا » .

والمفهوم « أنتم » هو الجسر الذى ينتقل بنا من الفصل الثانى الى الفصل الثالث .

الفصـــل الثـــالث

الجمـــاعة والفـــرد

١ ــ الاتصال والهوية الذاتية

ربما يرى بعض علماء النفس أن هذا الفصل لا ضرورة له ، أو يرون ان الظواهر الاجتماعية النفسية هي موضوع للدراسة العلمية ، ليس نتيجة للاتصال بين الافراد ، وانما لأن الأفراد يعيشون فى ظروف اجتماعية متشابهة ، وينتجون تركيبات نفسية متشابهة لدرجة أو اخرى . وبعبارة اخرى ، فالوجود الاجتماعى ، وفى استقلال عن ارادة الأفراد أو اختيارهم ، هو الذى يحـــدد الوعى المتماثل القائم على تشابه الظروف الاقتصادية ، والذى يتكون من :

(ا) السيكولوجية ، اى الانعكاس المباشر والواقعى للوجود الأقل اعتمادا على الاتصال .

(ب) الايديولوجية ، والتى تمثل تجسيدا اكثر انتظاما للوجود ، ومن ثم فهى اكثر اعتمادا على الاتصال الاجتماعى .

ان احدا لا ينكر ان الناس يقيمون العلاقات فيما بينهم ، وخاصة عندما ينتمون الى نفس الطبقة أو الفئة . ولكن بعض علماء الاجتماع يرون ان علم النفس الاجتماعى لا يعوزه موضوع البحث حتى وان جردنا أنفسنا من هذا الاتصال . وبالاضافة الى ذلك ، فموضوع البحث ينبغى أن يكون اكثر تطابقا وانسجاما مع المفهوم الأساسى ، فالناس يفصحون عن سمات متشابهة من الوعى اذا عاشوا فى ظل ظروف اجتماعية متطابقة . وهم يدعون أن هـــذا هو علم النفس الاجتماعى الحق .

ويستند دعاة هذا النوع من علم الاجتماع أساسا — وليس ذلك من قبيل الصدفة — الى مثال الفلاح الصغير فى المجتمع الرأسمالى ، الذى لا يتعامل مع أقرانه أو يتصل بهم الا فى أضيق الحدود ، ولكن الظروف الاقتصادية العامة تجعل منه ممثلا لطبقة معينة ومجموعة اجتماعية محددة ، مع حتمية انعكاس التشابه فى ظروف الحياة فى وعيه .

وينطبق هذا التسلسل فى التفكير على الأوهام الفردية للفلاح وليس على الواقع الممكن إدراكه علميا . والموقف الذى يواجه الفرد فيه الظروف الموضوعية لوجوده الاقتصادى ، وهو بمفرده ، لا يتوافر الا فى حالة روبنسون كروزو وأمثالها ، والتى لا وجود لها الا فى الخيال . وهذا التفسير « الروتينى » للوعى روتينى الى الدرجة التى يتخلف بها بعيدا عن المستوى الحديث لعلم النفس المستند الى حقائق العلم .

ودائرة التحليل فى علم النفس الاجتماعى تغطى سلسلة احصائية ، أو ظواهر يمكن أن تخضع للأنماط الاحصائية . وفى هذه الحالة يجرد الباحث نفسه من الآليات ويرصد ويسجل النتائج وحدها . ويؤكد أسلوب استطلاع الرأى العام والاستفتاءات وجود سمات نفسية خاصة وميول أو أمزجة ، فى بيئة محددة ، بينما يتعامل الباحث مع التطابق وليس مع الاتصال أو الجماعة . والباحث هنا لا يعنيه فى شىء كيف يتحقق هذا التطابق ، وانما هو يسجله كحقيقة توصل اليها بالتجربة ، رغم انه كثيرا ما يربط بين هذه الحقيقة وبعض المعلومات الاحصائية المعممة سواء كانت اجتماعية اقتصادية ، أو تعليمية ، أو ثقافية . **وهكذا تنكشف لنا علاقة وظيفية بين السلسلتين .**

وهذه الأبحاث ، على وجه العموم ، لا تقدم أى معلومات عن طبيعة وآلية العمليات النفسية ، وليس مطلوبا منها أن تقدم أى شىء فى هذا الصدد . وبالرغم من كل ذلك ، فلا جدال فى جدواها العلمية فى بعض الأحيان ، فالتجربة المستمدة من الدراسات الاحصائية للرأى العام ، بما فى ذلك مكوناته الايديولوجية والنفسية ، لها قيمتها الكبيرة بشكل عام . ولكن هذا يدخل فى

دائرة ما يسمى الأبحاث الاجتماعية أو علم الاجتماع الخاص . فاستطلاعات الرأى العام والاستفتاءات ، والاختبارات ، تساعد فى تكوين فكرة عن ميزانية الأسرة والفئات المختلفة من السكان ، وميزانيتها اليومية ، وماذا تفضل استخدامه من وسائل النقل العام ، أو مدى التعرض للأمراض المختلفة ، ولكن سبق أن اثبتت الأبحاث أن جانبا فحسب من هذه السلاسل الاحصائية والتعميمات الاحصائية المتوسطة هو الذى يرتبط بعلم النفس الاجتماعى بشكل أو بآخر . وحتى هذا الجانب ، أيضا ، ينطبق على النتائج النفسية وليس على الآليات التى ولدتها .

وعلى أى الأحوال ، فمن أجل أن يصبح علم النفس الاجتماعى علما مؤثرا ، يتعين أن نتعمق فى دراسة الآليات التى تحكم تكوين الخصوصيات فى سيكولوجية الانسان فى بيئة اجتماعية معينة . والتقدم العلمى ، وخاصة على امتداد القرن الماضى ، يؤكد مدى الأضرار التى يمكن أن تنجم عن تجاهل الآليات الكامنة وراء مختلف القوانين . ففى مجال علم الأحياء ، مثلا ، ثبت أن أولئك الذين يعارضون دراسة الآليات الفيزيائية والكيميائية الكامنة وراء الظواهر البيولوجية ، والتى اعتبروها « انتقاصا » من قدر علم الأحياء ونزولا به الى مستوى أشكال أدنى من حركة المادة ، ثبت أنهم كانوا على خطأ مطبق . والواقع أن السمات الخاصة لعلم الأحياء لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تنال أو تحد منها معرفة العمليات الفيزيائية والكيميائية فى المادة الحية . وعلى نفس النحو تماما ، ليس هناك أى أساس من الواقع للتخوف من أن علم النفس الاجتماعى سوف يحل قوانين فسيولوجية أو سيكولوجية محل القوانين الخاصة لعلم الاجتماع . فعلم النفس الاجتماعى لا ينتهك حرمة الآليات الموضوعية للحياة الاجتماعية الاقتصادية ، انه يدرس آليات التفاعل النفسى بين الناس ، والذين يتحدد سلوكهم ، فى التحليل الأخير ، بفعل قوانين علم الاجتماع .

ويمكننا أن نتغافل ليس فقط الآلية النفسية ، بل وأيضا الآلية الاجتماعية، ولكن بشرط أن نسلم بأن السمات الاجتماعية النفسية المتطابقة فى سلسلة من الناس انما ترجع الى أسباب متشابهة وان التبادل الاجتماعى لا علاقة له بها .

والحياة لا تخلو ، بالطبع ، من هذا النوع من السلاسل . ولقد سبق ان عرفنا ان الانتحار ، فى بعض جوانبه ، فعل نفسى . ومن الممكن دراسته باستخدام المناهج الاحصائية ، فندعى ، ولأسباب لها ما يبررها ، أن من اقدموا على الانتحار لم يحدث على الاطلاق ان جرى بينهم اى اتصال ولا هم شكلوا جماعة فى اى وقت من الأوقات ، وكل ما هنالك أنهم اقدموا على الانتحار لأسباب متماثلة لدرجة او اخرى . ولكن حتى هذا المثال الأقصى ليس صحيحا على اطلاقه ، لأنه بالرغم من أن المحاكاة المتبادلة لا ينبغى أن تعتبر احد الأسباب التى تحدد سبب الانتحار ، الا ان قتل النفس يسترشد جزئيا بمعرفة حالات مشابهة ، لأن ثمة فترات فى حياة المجتمعات تتميز بالتصاعد النفسى الحقيقى لموجات الانتحار نتيجة لتوفر درجة أكبر من قوة المحاكاة التى لا سبيل الى مقاومتها .

وهناك حالات اخرى لا تتم فيها سلاسل الظواهر الاجتماعية النفسية المتطابقة ، كقاعدة عامة ، عن اى اعتماد متبادل . ولكنها تشكل ، على وجه العموم ، تفاعلا اشبه بالسلسلة ، وليس متزامنا ، ينتشر ليغطى فترة معينة من الزمان . وكما سبق ان اشرنا ، فالعناصر المختلفة المكونة للمزاج الاجتماعى تتجمع وتتبلور فى نمط على شكل سلسلة لا يجعلها ، بأى حال ، قابلة للتفسير بأنها جماعة من الجماعات « نحن » .

وتلخيصا لما سبق ، فالجماعة الاجتماعية النفسية يمكن تقسيمها الى أربعة أنماط :

١ — الجماعة التى يمكن ملاحظتها أو رؤيتها مباشرة هى ، بالطبع ، الجماعة التى يعرف جميع أعضائها بعضهم بعضا ، أو يرون ويسمعون بعضهم بعضا على الاقل كما فى حالة الحشد من الناس أو جمهور المستمعين فى قاعة للموسيقى . وهذا هو النمط من الجماعة الذى يحظى باهتمام الباحثين البورجوازيين فى مجال علم النفس الاجتماعى . ولكن الواقع أن هذا النمط من الجماعة نادر الوجود ، وهو يحظى باهتمام الباحث البورجوازى اما كعشيرة أو وحدة بشرية صغيرة ، أو كحشد من الناس يفتقر الى التنظيم ويتميز بتركيبه

الهلامى غير المتبلور . وأما من وجهة النظر المعاصرة ، فدراسة الجماعات من نوع فرق الانتاج أو مجموعة العاملين فى ورشة من الورش أكثر اهمية بكثير ، كما تدخل تحت نفس التسمية ايضا القرى والمزارع الجماعية ، وكذلك فصول التلاميذ فى المدرسة ومجموعات الطلبة فى الجامعات . ويدفع حصر مجال علم النفس الاجتماعى فى هذا النمط اساسا (مهما كان ذلك مفيدا) العاملين فى مجال علم النفس الاجتماعى البورجوازى الى تفضيل اصغر المجموعات حجما ، والتى يصفونها خطأ بانها هى المجموعات الاساسية ، مثل الأسرة ، او مجموعة الأصدقاء أو التجمعات قصيرة الأجل من الناس على ارصفة الموانى او الشوارع أو الفرق الرياضية ، الخ .

٢ — وننتقل الآن الى النمط المضاد من الجماعة : ان اغلب اعضائه لا يعرفون بعضهم بعضا ، ولا يجمع بينهم اى رباط مباشر ، ولكنهم على وعى بانتمائهم للجماعة بقدر ما يلتقون حــول محور واحد ، يشـــخص « نحن » المحددة ، سواء كانت حكومة ام حزبا أم مفكرا ، أم زعيما ، ام رئيسا ، ام سلطة ، ام مجموعة من الزعماء . وهذا نمط أكثر أهمية بكثير ، خاصة ان كان طبقة او امة ، وحيث يكون عدد الأفراد الذين يعرفون بعضهم بعضا شخصيا أو تقوم بينهم الروابط المباشرة ضئيلا للغاية بالمقارنة بمجموعهم العددى . ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذا النمط لا يجسد الا جانبا واحدا من جوانب الحياة . ولكن يحسن بنا الا ننسى أن هذا النمط من الترابط الاجتماعى النفسى « المركزى » الذى لا ينطوى على اتصالات شخصية مباشرة بين الجميع ، هو نمط ممكن ، ويقابل واقعا محددا .

٣ — والجماعة قد توجد فى الزمان فقط ، وليس فى المكان ، كما هى الحال عندما ينتقل مزاج من شخص لآخر . وهذا المزاج ، فى الحالة المجردة ، لا ينتقل على شكل مروحة وانما عبر سلسلة ، هى السمة المميزة ، كما سبق أن رأينا فى الحالة القصوى للمجموعة « نحن » التى تسمى بالمزاج .

٤ — ويتم سد الفجوة بين هذه الانماط الثلاثة فى واقع الحياة ، ليس فقط بواسطة أشكال انتقالية ومختلطة ، وانما أيضا بعلاقات التعارف ، أى

بالتفاعل بين مجموعة صغيرة من الناس بشكل مباشر فى اطار حدود جماعة كبيرة .

والجوانب الاجتماعية والنفسية لعلاقات التعارف جديرة حقا بالدراسة الوثيقة ، وعن كثب . وينطبق هذا القول ، ضمن اشياء أخرى ، على مراسم وقواعد التعارف الاول — من خلال وساطة طرف ثالث — ثم تبادل التعريف بالاسم ، واللمس (باليد ، أو الشفتين ، أو الأنف) ، و « شم الرائحة » بين بعض الشعوب ، والقواعد والعادات الخاصة بتنمية التعارف من خلال الزيارات المتبادلة والاستضافة ، وتقديم الهدايا ، الخ .

وتنتمي كل هذه العناصر الى مقولة التعارف ، انها القنوات التى يتحقق من خلالها التعارف والتى كثيرا ما تؤدى الى « التطابق » فى الراى ، والذوق ، والميول ، وغير ذلك من السمات النفسية .

ولنرجع مرة أخرى الى مثال الفلاحين او المزارعين فى المجتمع الراسمالى المعاصر . من السليم بكل تأكيد أن الظروف الاقتصادية المتشابهة تفسر الاتجاهات المتشابهة فى السيكولوجية وفى الايديولوجية . ولكن هذا القانون لا ينطبق على كل فلاح منفردا . وحتى الطيور ، تتعلم كيف تطير من بعضها البعض ، وليس من تلقاء نفسها . وسيكولوجية الفلاح تتشكل بالزيارات المتبادلة ، والتعارف ، والاحتفالات ، والطقوس ، وما شابه ذلك من أشكال الاتصال . وأما بالنسبة للمزارعين المنعزلين ، الذين يعيشون مع عائلاتهم فى أماكن نائية ، فالتأثيرات النفسية لزياراتهم المتبادلة النادرة أقوى من اى تأثير آخر . والزيارة مفهوم جوهرى ، وبدونه يتعذر تصور وجود الجهاز الدورى للاتصال الاجتماعى النفسى . انه وسيلة نقل العدوى . ولهذا السبب فعالم النفس يخطىء عادة عندما لا يستدل الا على الظواهر النفسية « المتطابقة » مع انه ، فى الواقع ، لا يرى أن الكثير ينتقل ويتشكل من خلال التبادل والاتصالات الشخصية بين أناس ينتمون الى « نفس الدائرة » ، الى نفس الطبقة ، أو الفئة الاجتماعية ، أو المهنة ، او المرحلة السنية ، كما قد تستند هذه الدوائر فى تكوينها الى الجنس ، او الدين ، أو المدرسة السياسية او الأمة .

وهكذا تزول الفجوة الوهمية بين الظواهر الاجتماعية النفسية المتجانسة وغير المتجانسة ، والتى تشكلت نتيجة للاتصال او قيام حالة متطابقة ، كما هى الحال عندما ينتمى الجميع الى نفس الفئة الاجتماعية الموضوعية . وتبين هذه الأنماط الأربعة للجماعة انه حتى فى الجماعة الموضوعية الكبيرة ، مثل الطبقة او الأمة ، فالسيكولوجية الاجتماعية لا تنشأ وتتبلور وتتطور الا بواسطة الاتصال المتبادل .

وهنا يجد أولئك الذين يعتقدون أن علم النفس الوحيد الذى يمكن تصوره هو علم النفس الفردى ، أنفسهم ، أمام مأزق جديد . فالمدرسون يؤكدون ، والأبحاث تثبت ، ان لكل مجموعة من الأطفال شخصية اثيرة مفضلة . وكثيرا ما لا تكون هذه الشخصية هى الطفل الذى يتسم بالمقدرة القيادية ، او حسن السلوك ، أو ما شابه ذلك من صفات . وهنا يسارع أنصار المنهج الفردى البحت فى التحليل الى الرد فيقولون ان الفتاة أو الفتى يتسم بالجاذبية ومن ثم يصبح معشوق المجموعة ، أما الآخرون فيفتقرون الى ما يتميز به الفتى أو الفتاة من خصال ، ومن ثم لا يمكن لأى منهم أن يكون هو الشخصية الأثيرة المحببة . ومن هنا ، فالشخصية تكمن فى أعماق كل شىء . وعليهم يرد انصار علم النفس الاجتماعى فيقولون ان الشخصيات الأثيرة المحببة يتم اختيارها والالتفاف حولها فى كل مجموعة من الأطفال . واذا حدث أن انتهت علاقة الفتى أو الفتاة بالمجموعة لسبب من الأسباب ، فعاجلا أو آجلا ما يظهر فتى آخر او فتاة أخرى لشغل نفس الموقع ، مما يؤكد أن الظاهرة المعينة للسيكولوجية الاجتماعية ثابتة لدرجة أو أخرى . وهناك أنماط متماسكة يتغير فيها الأفراد بينما تظل النظم ، أو سلاسل الناس ، على ما هى عليه .

ولذلك يتحتم علينا أن نرجع من جديد الى فكرة القوانين الاحصائية ، ولكن من وجهة نظر مختلفة . ومفهوم القوانين الاحصائية وقوانين الاحتمالات ، يحظى فى العلم المعاصر بقدر بالغ من الاهمية بحيث لا يمكن لمؤرخ يدرس الظواهر الكلية ان يتجاهلها ، وليس فى مقدوره الآن أن يعتبر جماهير الشعب

مجرد المجموع العددى لشخصيات أو لأفراد حتى وان وضع فى اعتباره ان التركيب النفسى لكل شخصية او فرد يتحدد سلفا . فالمؤرخون يحتاجون الى معرفة كل ما يتعلق بالأنماط التى يكتسب الأفراد فى اطارها قابليتهم للتبادل . وهذه الانماط هى التى تحدد السمات الاساسية للتركيب النفسى للفرد ، بل وهى التى تحدد أيضا ضرورة التغاير او تفرد الشخصيات .

٢ — هل يمكن ان توجد الشخصية خارج المجتمع ؟ !

سبق ان اشرنا فى المقدمة الى ان الجدل مازال يدور حول ما اذا كان التفاعل النفسى بين الأفراد فى الجماعة ثانويا وتابعا للتركيب النفسى لكل فـــرد .

ونود ان نضيف هنا ان مصطلحى « سيكولوجية الفرد » و « السيكولوجية العامة » لا يتضمنان — فى رأينا — أى عناصر نفسية وافدة من خارج المجتمع . وبمعنى اوسع ، فاى علم نفس يستند الى العلم حقا ، هو بالضرورة علم نفس اجتماعى ، لأن التركيب النفسى للفرد محكوم الى حد كبير بالبيئة الاجتماعية التاريخية . ومن المشكوك فيه كثيرا ، اذا تغافلنا ذلك ، أن نتمكن من وضـــع يدنا على أى شىء على الاطلاق ، سوى وصف للمخ ، ووظائفه العـــامة ، وانواع الجهاز العصبى .

واعترافنا بأن العلاقات بين المجموعتين « نحن » و « هم » هى الأولية والأكثر عمقا من العلاقات بين « أنا » و « أنتم » ، تقترب بنا الى حد ما من الاجابة على السؤال المذكور الذى مازال الجدل يدور حوله . فالعلاقة الثنائية بين « أنا » و « أنتم » ، الخ ، ليست عنصرا من عناصر التركيب الاجتماعى للسيكولوجية ، بل الأحرى ان نقول انها جوهر هذا التركيب . وحتى داخل المعمل ، فالشخص — او الحالة — موضع البحث ، يتعرض لضغط اجتماعى ، لأن عزلته النسبية اجراء عملى ينفذ وفقا لتعليمات القائم بالتجربة ، كما أن التجربة نفسها تتضمن نوعا من الاشارات الصادرة من الباحث . وكلما أوغلنا

لدرجة اعمق فى المخ المستغرق فى التفكير ، كلما وجدنا انفسنا نهبط الى حفرة اشبه بفوهة بركان ، تموج بالقوى الاجتماعية والمؤثرات الوافدة من جماعات مختلفة . وكما سبق ان ذكرنا ، فحتى ابسط تقسيم للمشاعر الى سارة وغير سارة ، لا يرتبط بسيكولوجية الفرد وحدها ، وانما يرتبط أيضا بمبدأ « نحن وهم » ، اى بمبدأ « ما ينتمى لنا ، وما ينتمى لهم » .

حقا ان الناس يتفاوتون فى درجة الحساسية ، والطبيعة ، ونمط النشاط العصبى العالى ، وهى عناصر ليس المجتمع هو الذى يضفيها عليهم بل الاحرى أنها هى العناصر التى تحكم الدور الذى يلعبه الناس فى المجتمع . ولكن هذا ، أيضا ، ليس هو الذى يحدد الشخصية . وعلى وجه العموم ، فالشخصية الانسانية تتشكل وفقا لأنماط ينسجها الفرد لنفسه فى مجرى التطور . ووعى الانسان بذاته وتقديره لذاته يتضمنان دائما اجراء المقارنة بين هذه الذات والصورة الذهنية التى يتصورها لهذه الذات ، ومحاولة المواءمة بين ما هو عليه وبين الصورة ، وتطويع الصورة بحيث تتوافق مع ما هو عليه . والشخص والنمط يختلفان بلا جدال ، ولكن غالبا ما يتحقق التوافق بين الجانبين ، بحيث تنسجم الشخصية مع النمط ، وهذا مفهوم خلاق على أقصى درجة من الأهمية . فبدون التقييم الذاتى ، أى بدون أن يسأل الفرد نفسه « من انا ؟ » ، لا يمكن للشخصية أن توجد . فالذات تقف دائما فى مواجهة شخص آخر ، حقيقى أو من صنع الخيال ، والفرد لا يكف أبدا عن تفحص أفعاله وأفكاره . وهو اما أن يرى المجموعة « نحن » التى ينتسب اليها ، أو يكتشف ، وقد استبد به الرعب ، وجود مجموعة « هم » . ولا يمكن لشخصية أن توجد خارج اطار هذه المواجهة للذات، بشىء لا يشبهها أو بصور لجماعة انسانية ما ، فما هو الأولى اذن ؟

فيما يلى مثال يساعدنا على شرح المفهومين المحتملين لهذه المشكلة تفسح ملاحظة ماركس التى انتهى فيها الى القول بأن الاتصال والمنافسة بين العمال فى مصنع للنسيج يضيفان لطاقتهم وللقدرة الفردية بشكل عام ، تفسح

المجال أمام تفسيرين : فيمكن لأحد علماء النفس أن يقول أن هذا الوضع يولد اثارة عصبية ترفع انتاجية العامل فوق مستواها المعتاد . بينما يرد آخر ، استنادا الى تفسير ماركس ، بأن الانسان حيوان اجتماعى بطبيعتـــه وان الاتصال فى العمل المشترك يزيد من حجم القدرة الفردية لمجرد أن غيبـــة الاتصال تنزل به الى ما دون المستوى المعتاد للعامل .

وعلم النفس الاجتماعى الذى يستند الى حقائق العلم ليس لديه ما يدفعه الى الالتزام برأى نهائى فى هذه القضية مثار النزاع . ولكن فى مقدورنا الآن أن نستبعد تماما بعض الأفكار التى تعوق البحث ، وان نستند فى استبعادنا هذا على ادلة واقعية لا مجال للتشكيك فيها .

فمنذ وقت طويل ، والباحثون يحاولون التوصل الى معرفة ما اذا كان بمقدور كائن انسانى انبتت الصلة بينه ، ومنذ ولادته ، وبين اى كائنـــات انسانية اخرى ، ان يتكلم ، وان يفكر ، وأن يمارس كافة الجوانب الاخرى من الأنشطة المعروفة للانسان ، وما اذا كان فى بمقدور انسان نشأ وعاش معزولا فى جزيرة مجهولة أو فى أى مكان معزول عن الناس ، أن يستعيد ، أو حتى أن يطور ، سماته الانسانية .

وأى دراسة تمهيدية فى مجال علم النفس الاجتماعى لابد أن تشـــمل بالضرورة الحقائق التى تقدم الاجابات ، المستمدة من التجربة ، على هـــذه التســـاؤلات .

فى القرن الثامن عشر ، كان عالم التاريخ الطبيعى الشـــهير كارلوس ليناوس أول من صنف الانسان (الانسان بصفته نوعا بيولوجيا) ضمن المملكة الحيوانية ، وأفرد مكانا خاصا « للانسان المتوحش » كنوع قائم بذاته ، كما يتجسد فى الحالات التى كانت معروفة آنذاك لاطفال نشأوا فى كنف حيوانات مفترسة . وبالرغم من أن ليناوس لم يعنى ببحث جوهر الطفرة من الحيوان الى الانسان ، الا أن تقديمه للانسان المتوحش يقترب بنا جدا من حقيقـــة القضية . وقد عرفت العصور الوسطى عددا من الأمثلة للانسان المتوحش :

ثم تزايد عددها كثيرا فى سنى حياة ليناوس ، وكان بعضها حديثا ولا شبهة فيما تجمع حوله من معلومات . وانتهى ليناوس فى أبحاثه الى القول بأن « الانسان المتوحش » يفتقد ملكة الكلام ، وليس لديه وعى الانسان ، وأنه يمشى على أربع .

وفيما عدا بعض التفصيلات ، فوصف ليناوس للاطفال الذين نشأوا فى رعاية الحيوانات سليم بشكل عام ، ودعمته وأكدت صحته بعض الاكتشافات الجديدة ، رغم ندرتها ، لأنها تمثل فى الواقع تجربة لا تقدر بثمن أجرتها الطبيعة، والتقاء بالغ الغرابة للظروف والملابسات .

وحتى وقتنا الراهن ، يزيد عدد الحالات المعروفة عن ثلاثين ، ويرجع تاريخ أحدثها الى عام ١٩٥٦ (١) .

كان الطرف الذى يقوم بعملية « الخطف » ثم « التربية والرعاية » فى جميع الحالات المعروفة والتى لا تحيط بها أى شبهات من المبالغة أو الخرافة ، حيوانات مفترسة ، ومن الذئاب فى أغلب الأحيان ، كما كانت هناك بضع حالات من الدببة أو حتى النمور . أما ما نشرته الصحف عن أطفال نشأوا فى رعاية قردة فثبت زيفه . ولذلك فقصة طرزان ليس لها ما يساندها بيولوجيا ، وأما قصة روديارد كيبلنج عن المادجلى ، فرغم ورودها ضمن عمل أدبى ومتأثرة بمقتضياته ، الا أنها تستمد أصولها من قصص معروفة لشعب الهند .

ولكن لماذا الحيوانات المفترسة دون غيرها ؟ الواقع ان ثمة أساس بيولوجى لهذه الحقيقة : فقد حدث فى نفس الوقت الذى فقدت فيه أنثى الحيوان المفترس وليدها بسبب من الأسباب ، أن التقت بطفل تركته أمه (وكثيرا ما تترك السيدات الهنديات اطفالهن عند اطراف الغابات أثناء انشغالهن بالعمل فى الحقول) ، فاستسلمت لغزيرة الأمومة الكامنة فيها فارضعت

---

(١) انظر لوسيان مالسون ، عالم الاجتماع الفرنسى « الاطفال المتوحشون : الاسطورة والحقيقة » ، باريس ، ١٩٦٤ .

الطفل ، وكررت هذه العملية عدة مرات ، ثم « تبنت » الطفل وكأنه وليدها هي . ولكن العامل الحاسم ، على اى الاحوال ، هو أن الحيوانات المفترسة تطعم صغارها لحما بعد مرحلة الرضاعة ، وهذه الغريزة المميزة للحيوانات المفترسة — « الوالدين بالتبنى » — هى التى انقذت حياة العديد من الأطفال المفقودين . ونظرا لقابلية فهمه الانسانى للتكيف ، تعلم الطفل الصيحات والأفعال التى تنتزع الاستجابة المطلوبة من الحيوان ، فيدفعه الى اطعـامه لمدة تتراوح بين سنتين او ثلاثة أو اكثر .

وليست هناك آى حالات معروفة لأطفال « مدارس داخلية » من هذا النوع نشأوا فى عرين او حصن أو ضمن قطيع من الحيوانات المفترسة وعاشوا حتى مرحلة البلوغ ، ومع ذلك فقد كانوا يلتصقون بالابوين بالتبنى « لفترة تغطى ظهور عدة أجيال من ابناء الأنثى المتوحشة الطبيعيين ، اى « اخوتهم واخواتهم من زوج الأم » .

ولكن لماذا المشى على أربع ؟ يرجع ذلك اساسا ، فى تقديرنا ، **الى تجربة المحاولة والخطأ التى مارسوها وتعلموا منها أن الوضع استنادا الى الأربع هو اكثر الأوضاع قبولا من جانب الحيوان المفترس « الذى يـوفر لهـم الطعام » . ولاشك ان الوضع منتصبا كان خليقا بان يولد لدى الحيوان المتبنى رد فعل نعكس للدفاع عن النفس وأن يضعف رد الفعل الذى يحدوه الى اطعام الطفل** ، زد على ذلك اننا نعلم أطفالنا المشى عند سن معينة ، لأن خصائصهم التشريحية والفسيولوجية تتكيف مع الحركة باستخدام الطرفين السفليين وحدهما **بشرط استخدام المشاهدة والتوجيه والارشاد فى الوقت المنـاسب .**

ويكشف الجهاز العصبى للأطفال الذين عاشوا بين الحيوانات وحققوا تلك المعجزة عن درجة تدعو الى الدهشة من القابلية للتكيف مع البيئـة غير العادية . وربما ترجع هذه القابلية الى غرائز متوارثة عن الكائنات القديمة الشبيهة بالانسان والتى عاشت فى بيئة خالطت فيها الحيوان وتعايشت معه طوال الوقت ، ثم استقرت — هذه الغرائز — فى اعماق التطور الانسـانى

الطبيعى ، ومهما يكن من امر ، فالوظائف غير المرئية ، وغير الواعية ، والقوية فى نفس الوقت ، التى تمارسها الأنسجة العصبية للمخ الانسانى ابقت عليهم احياء لعدة سنوات .

ولكن كم كان مشهدهم يدعو الى الأسى عندما كان الصيادون يكتشفونهم فى اوكار الحيوانات المفترسة بعد قتلها !

حدث على سطح جبل كاشار بالهند ، أن قتل سكان احدى القـــرى زوجا من الاشبال الصغيرة فى وكر نمر . وبعد يومين قامت النمرة باختطاف طفل فى الثانية من عمره من قريتهم ، ومرت ثلاثة أعوام ، وفى عام ١٩٢٣ قتل الصيادون النمرة الأم فوجدوا فى مرقدها ، الى جانب صغيرها ، طفلا فى الخامسة من عمره . كان يمشى على أربع ويتصرف على سجيته تماما بين الأدغال . وكان على راحتى يديه وركبتيه قد ازاد كثافة ، بينما تعامدت أصابع قدميه مع باطن القدم تقريبا . وكان جسمه مغطى بالندوب والخدوش ، ورأوه وهو ينقض على دجاجة فيمزقها اربا ويلتهمها فى سرعة غير عادية ، وبالتدريج ، بدأ يألف المعيشة فى بيئة انسانية وكف عن العض ، وفى غضون أعوام ثلاثة ، تعلم كيف يمشى منتصبا وان كان ظل يفضل المشى على أربع . وتعـــلم تناول الطعـــام النباتى . ولكن مرضا لاشفاء منه أصاب عينيـــه انتهى بفقـــدانه البصر كلية ، فتعـــرقلت عملية « التجـــارب مع الطبيعة الانسانية » . ثم مات بعد قليل .

ومن أشهر الحالات فى هذا المجال اكتشاف فتاتين فى الهند فى عـــام ١٩٢٠ تعيشان بين عدد من الأشبال القوائم حديثى الولادة فى وكر انثى ذئب ، كانت احدى الفتاتين فى السابعة أو الثامنة من عمرها والأخرى فى حوالى العام الثانى . وعندما تم ايداعهما فى أحد الملاجىء ، كانتا لا تمشيان الا كالحيوانات ذوات الأربع ، ودائما فى ظلمة الليل فحسب ؛ أما اثناء النهار فكانتا تنتحيان احد الأركان وتغطان فى نوم عميق ، وكل منهما تحتضن الأخرى ، كما تفعل صغار الذئاب . وكان من الواضح أنهما تفضلان رفقة الجراء وصغار الحيوانات عن رفقة من يداعبهما من البشر . وكانا تطلقان فى الليل صيحات اشبه بصيحات الذئاب ، وبدرت منهما عدة محاولات للهرب

والعودة الى الغابة . وحاول المدرسون اضفاء الطبيعة الانسانية عليهما ولكن الفتاة الصغرى ، وتدعى أمالا ، ماتت بعد عام واحد ، وأما الكبرى ، كمالا ، فعاشت لمدة تسعة أعوام أخر ، واستلزم الأمر حوالى خمسة أعوام حتى تتعلم المشى على القدمين وحدهما . وفى بطء ، تعلمت أن تفهم ما تسمعه من كلمات ، وان تتكلم هى نفسها ، **وكان من الواضح أن كل ما يملكه مخهـا من قدرات قد سبق ان استهلك فى التكيف مع بيئة مختلفة كل الاختلاف .** وفى سن السابعة عشرة كان تطورها الذهنى على مستوى طفلة فى الرابعة .

وتجمعت نفس الملاحظات فى حالة طفل آخر تم انقاذه .

فقد تم اكتشاف طفل ، يعتقد أنه عاش لمدة ستة أو سبعة أعوام فى وكر ذئب ، فى غابة هندية ، فى عام ١٩٥٦ . وبالرغم من أنه كان فى التاسعة من عمره ، الا أنه كان من الناحية العقلية على مستوى رضيع فى الشـهر التاسع ، وبدا لوكناورامو — كما أطلق عليه — يمشى منتصبا ، وبدت عليه بوادر تشير الى عودته الى التحكم فى رسغيه وكاحلى ساقيه بعد أن أمضى أربعة أعوام تحت رعاية طبية دائمة ، وبالتدريج ، اعتاد التعامل مع البشر ؛ وتناول الطعام البشرى ، وتخلى عن عادة تناول الطعام بدون طهى .

ان هذه الحقائق تلقى الضوء على الهوة القائمة حتى بين الحيوانات عالية التطور والانسان ، وبصرف النظر عن كيفية تفوق مخ الانسان من الناحية التشريحية على مخ الحيوان ، أو انه أكثر تعقيدا ، **فكل ما يملكه هو قدرته الكامنة على الكلام والتفكير** . انه أشبه بالمحرك ، الذى لابد له من تيار كهربائى حتى يمارس وظيفته ، وهذه القوة التى تدفع الى الكلام والوعى ، قوة من نوع رفيع الى أقصى حد — **انها القدرة الانسانية على الاتصال ، والتى بدونها لا يصبح الانسان الا مجرد حيوان ، مهما بلغت قدرته عـلى التكيف مع البيئة .**

والآن ، فلننتقل الى الحالة المضادة : فهل يستطيع المخ الانسانى الذى يحمل هذه الشحنة « الانسانية » ، أن يفقد هذه الشحنة وأن يتدنى الى مستوى الحيوان ؟

كلا ، ان الحقائق تؤكد ان « اكتســـاب الطبيعة الانسانية » عملية انتكاس لها .

وهناك العديد من التقارير المثيرة التى نشرتها الصحف عن افــراد عاشوا لعدة سنوات فى عزلة تامة ، قسرا او باختيارهم ، ففقدوا القــدرة على الكلام ، والادراك ، بل وفقدوا حتى المظهر الخارجى للانسان ، كما نشرت ، أيضا ، تقارير تتحدث عن نمو الشعر ليكسوا اجسادهم عندما كفوا عن ارتداء الملابس ، ولكن امثال هذه الأقاصيص ثبت زيفها ، لانه لم يكن فى مقدورها أن تطلق على أبطالها تسمية « الانسان المتوحش » او ان تنسب اليهم أى سمة من سماته الخاصة ، مما يدحض الزعم بفقدان ابطال هذه الأقاصيص القدرة على الكلام ، أو فقدانهم لذاكرتهم ، لأن اى بطل من هؤلاء الأبطال هو نفسه الذى نقل الى الغير كافة المعلومات عن الملابسات والأوضاع التى انتهت به الى العزلة .

والفكرة القائلة بأن الانســـان يمكن ان يتحول تماما الى « وحش » لا سند لها من العلم ، بل تناصب العلم اشد العداء ، وهى أقرب ما تكون الى الايمان بالخرافات والخزعبلات . فالانسان لا يفقد ملكة الكلام أو التقليد لا عندما ينقطع الاتصال بينه وبين غيره من البشر . ولا يمكن ان يحدث ذلك الا عن طريق الاضطرابات الباثولوجية (المرضية) للمخ ، وطب الأمراض النفسيـــة وطب الأمراض العقلية يرجعان الفقـــدان الجزئى أو الـــكلى لهذه الملكات الانسانية الجوهرية عميقة الجذور الى تغــيرات فسيولوجية وتشريحية ، على نفس النحو الذى يرجع به علم الأمراض الجلدية وعلم الغدد الصماء ما يحدث من تشوهات وظواهر شاذة فى الجلد الى العوامل الطبيعية ، والطب يرفض الفكرة التى ترجع مثل هذه الآثار الى العزلة ، او الزهــد والتقشف ، او اى نمط غير مألوف للحياة .

ولا جدال فى ان الانسان لا يمكن ان يزدهر وهو فى عزلة كما فعل صاحبنا روبنسون كروزو الذى لا وجود له الا فى خيال من سطر قصته ، فهو يزداد

بعزلته جلافة وقسوة فى بطانه وفى ظاهره ، وليس العديد من مظاهر الحياة السمحة المهذبة ، وتضحمل قدرته على الكلام ، لأن قواه العقلية تتركز على غرض واحد دون سواه ، هو المحافظة على النفس عضويا ، أو — اذا كان ناسكا — على الاستبطان والتمعن فى أفكاره ودوافعه ومشاعره الخاصة ، وتكرار وترديد رصيد مختزن من الافكار ، أو على الصلوات ، وباختصار ، فالانسان عندما ينعزل عن الآخرين يفقد جانبا من قدراته الروحية الأصيلة ، أما أن يفقدها جميعا ، فهذا هو المحال . وفى هذا الصدد ، فالقضية الاكثر اهمية هى أن نؤكد من جديد أن الحقائق التى لانزاع فيها تثبت العكس فعلى امتداد القرون ، لم يتوقف الطغاة عن الالقاء بالثوار والعصاة والمتذمرين والخصوم والخونة فى غياهب الزنازين ، مدى الحياة ، أو لسنوات طوال من السجن الانفرادى والعزلة الصارمة الموحشة القاتلة ، والكتابات العديدة التى تدور حول هذه الأوضاع لا تذكر حالة واحدة فقد فيها اى من هؤلاء ملكة الكلام ، أو تمييز الأصوات ، أو اكتست اجسامهم فيها بالشعر رغم أن لحاهم كانت طليقة حقا عند فك اسرهم وعودتهم للحياة من جديد ، وقد ضمرت وجوههم ، وهزلت اجسامهم ، بل وربما فقدوا البصر أو أصابهم الخبل . بل وهناك من الأدلة المسطورة ما يقطع بعكس ذلك ، وكم من سجناء أبدعوا بعض ما أروع ما انتجه فكر الانسان ، وعبروا عن أرقى المشاعر ، واحتفظوا بتألقهم الروحى ، وهم مغيبين وراء القضبان فى عزلتهم القاتلة الممتدة .

والجنون الناجم عن العزلة ينم عن اضطراب فى وظائف المخ والقدر على الكلام وليس عن الردة الى الحالة الحيوانية ، **وعندما يكتسب مخ الانسان القدرة على التمييز بين الوحدات الصغرى للكلام ، المسموع منها والمنطوق ، وان يربط بين الشكل الصوتى للكلمة وشكلها الداخلى ومعناها ، عندما يكتسب الانسان هذه القدرة ، فهو لا يفقدها ابدا .**

وهكذا ، فالمجرمون الذين يتوارون هربا من العدالة ، والمصابون بالجذام ، والمنبوذون الذين يعيشون فى عزلة كاملة عن المجتمع ، والمسافرون الذين تحطمت سفنهم ، والرحالة الذين يضلون الطريق،والمسجونون المغيبون

وراء الجدران والقضبان ، لا يتحولون الى « وحوش » كما يتوهم بعض الجهال . ولو امكن لأحد أن يثبت ذلك ، لكان هذا الذى يشبه ثورة فى صفوف العلم ، ولانهار علم النفس الاجتماعى انهيارا لا قيام قومة منه ، أو لاتجه علم النفس المعاصر كله وجهة مضادة تماما لوجهته الراهنة .

ولكن هذا لن يحدث ابدا ، رغم أنه خير ما يثبت خطأ تلك الأقاصيص التى تتحدث عن اناس تحولوا الى وحوش الى الدرجة التى فقدوا معها حتى مظهرهم الانسانى ، واختبأوا فى الجبال والأحراش والأدغال ، سواء كان ذلك لمدى سنوات حياة فرد واحد او لعدة اجيال كما هى الحال عندما يدور الحديث حول ذكر وانثى مارسا حياتهما كاملة فى غياهب العزلة واسرها .

وهذه الفكرة تعادى الماركسية ، فالماركسيون يدركون أن الانسان « حيوان اجتماعى » بطبيعته ، بينما تنبع فكرة « تحول الانسان الى وحش » فقد ملكة الكلام ، واكتسى جسمه بالشعر ، من مفهوم فردى مبالغ فيه لأقصى حد عن الطبيعة الانسانية . كلا . ان الفرد اذا نشأ فى بيئة انسانية ، وتلقن حقائق الحياة من خلال الاتصال والسلوك فى اطار المجتمع ، فهو يحمل سماته المميزة معه اينما يمم وجهه ، كجوهر له . وينطبق هذا القول أيضا على الحالات التى يضطر فيها الانسان ، وهو صاغر الى أن يعيش فى عزلة كاملة ، بعيدا عن الجماعة أو المجتمع ، يقول ماركس : « وأول ما يتعين تجنبه ، وقبل اى شيء آخر ، هو أن نتصور أن المجتمع تجريد فى مواجهة الفرد . ان الفرد هو الكائن الاجتماعى . وحياته اذن ، حتى وان لم تظهر فى الشكل المباشر للحياة الاجتماعية التى يمارسها بالمشاركة مع الآخرين ، هى تجسيد وتأكيد للحياة الاجتماعية » (١) .

وهنا نقترب أكثر فأكثر من تساؤلنا عما هو الأولى : السيكولوجية الاجتماعيةأم سيكولوجية الفرد. حقا ان ما قدمناه حتى الآن لا يقدم حلا، ويجب

---

(١) كارل ماركس ، المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام ١٨٤٤ ، موسكو ، ١٩٦٧ ، ص ٩٨ .

ان يستند بحثنا اللاحق على قول ماركس المأثور : « الانسان ، واقعيا وموضوعيا ، حيوان سياسى ، ليس فقط حيوان اجتماعى ، وانما حيوان لا يستطيع ان يتعرف على ذاته الا فى مجتمع » (٢) .

٣ — بعض المعلومات عن الكلام كوسيلة للاتصال

تعيد التذكير هنا بأن الفصل السابق يبدأ بالتساؤل عما اذا كان فى مقدورنا ، بشكل عام ، تصور وجود سيكولوجية اجتماعية او جماعية اصلا ، طالما ان البنية الأساسية المادية لأى ظاهرة نفسية هى ممارسة مخ الفرد لوظائفه ، اى المخ المحصور داخل جمجمة الفرد . ولنبحث هذه القضية الآن من جديد .

من بين المعلومات التى تنتقل الى المخ الانسانى من العالم الخارجى ، ما يتميز بطبيعة خاصة تبدو وكأنها تفجر الجمجمة تفجيرا ، وعندما يسمع كلب او قط أو حصان و « يفهم » كلمة ينطق بها انسان ، فهذه الكلمة بالنسبة للحيوان هى بالضرورة نفس المؤثر الوافد من اى مصدر غير انسانى آخر . وقد تكون الاشارة دالة على الطعام ، او الالم أو الخطر او ما شابه ذلك . ولكن اغلب الاشارات الانسانية ، من الناحية الأخرى ، تنتمى الى مجال يختلف عن مجال الاشارات الخارجية الأخرى .

ولذلك لا يمكن لعلم النفس الاجتماعى ان يتجاهل المستوى الأدنى للاتصال الانسانى . والطرق والوسائل التى يؤثر بها الناس على بعضهم البعض متعددة الجوانب ومعقدة ، وتشمل العديد من العوامل الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية . وهذا المستوى الأدنى مستوى لا يمكن للناس بدونه أن يتصلوا ببعضهم البعض ، وهو الذى يكمن وراء جميع الأشكال

---

(٢) كارل ماركس ، نقد الاقتصاد السياسى (بالروسية ، موسكو) ١٩٤٩ ، ص ١٩٤ .

المعقدة للعلاقات والاتصالات الانسانية ، وهو يشمل الكلام ، اي الاتصال المنطوق او المكتوب بمساعدة النظم اللغوية ، والمحاكاة ، والايماء ، والتعبير الخارجى عن العواطف ، ومختلف نظم الاشارات الاخرى .

ويمكننا التوصل من خلال أى بحث خاطف الى ان نظم الاشارات الانسانية تختلف عن تلك النظم التى تهبها الطبيعة للحيوان والانسان ، او بعبارة اكثر تحديدا ، عن تلك التى يستطيع الحيوان والانسان ان يحصل عليها بنفسه من الطبيعة ، واذا نظرنا من هـذه الزاويـة الى المصطلحات التقليدية « للاعلام » القائم على السبرانية (علم الضبط أو الاسبرناطيقا) ، يتضح لنا انها مصطلحات **تخلع صفات انسانية على غير الانسان** ، بدرجة او اخرى ، لأنها مستعارة من الحياة العملية حيث تدل على فعل اختيارى للاعلام المنتقل من شخص الى شخص آخر ، وليس على اكتســاب محض للمعرفة . فنحن نقول فى حياتنا اليومية : الاحساس ، التصور ، الملاحظة ، التجربة ، ولكن هذه مجرد مصطلحات ، مجرد مفاهيم متفق عليها . اما نظم الاشارة الانسانية فيقصد بها الاعلام بالمعنى الضيق للكلمة ، أى الأفعال المتعمدة التى تهـدف بها شخص من الاشخاص الى التأثير على شخص آخر .

ونظم الاشارة ، بادىء ذى بدء ، قابله للاستبدال من ناحية المبدأ ، لأنها لا تنتمى الى شىء ينفرد بالتعبير عن طبيعتها الموضوعية دون سواه . وهناك فى الوقت الراهن أكثر من الفى لغة ، ولذلك ، فهناك ايضا ما يساويها عددا من الاشارات المتكافئة والقابلة للتبادل فيما بينها للدلالة على الأشياء ، والعلاقات ، والأفكار . واللغة محملة بالمترادفات او المعانى ذات الطبيعة المترادفة ، والتى تمكن الناس من الدلالة على الشىء الواحد باستخدام كلمات مختلفة ، كما يمكن استبدال اسماء الأعلام بجمل وصفية . كذلك يمكن اداء المغزى المتضمن فى الايماءات ، والتعبير الصامت ، والافصاح عن العواطف باستخدام الكلمات او حركات تقليدية اخرى .

وثانيا ، فما تنقله الاشارات ، يمكن التعبير عنه بطريقة اخرى ، فقد يكون الحذف المتعمد هو التعبير عن المعنى المقصود : فالصمت كرد عـلى

سؤال مباشر أو كاستجابة لاقناع أو اغراء معينان مختلفان : فهو فى الحالة الاولى رفض لتلقى المعلومة ، وفى الثانية استعداد للفعل (« الصمت علامة الرضاء ») . والتوقف المؤقت فى مجرى الكلام يمكن ، ايضا ، أن يكون من أعلى درجات التعبير ، وهو يحقق غرضا نفسيا فسيولوجيا محددا فى عملية الايماء . والواقع ان لحظات التوقف المؤقت فى مجرى الكلام متخمة بدلالات الالفاظ ، وهى اشبه ما تكون بعلامات التنصيص (اى التوقف المؤقت) فى الكلام المكتوب . ومن هنا ، فالصمت ليس هو مجرد غياب الكلام ، وانما كثيرا ما يكون كبحا للكلام أو ابطالا له ، أو حتى تعبيرا عن موقف مضاد منه ، **ومن منا لا يدرك القوة المعبرة المذهلة التى تتمخض عن غيبة ابتسامة كنا نتوقعها أو ايماءة ترحيب كنا فى انتظارها ؟ والسنا نولى شيئا من الأهمية عندما نرى شخصا يعجز فى موقف معين من ان يبدى الاشارات المألوفة للخجل او الغضب أو الفرح ؟**

والكلام ، الى حد كبير ، هو اكثر العناصر اهمية بين جميع نظم الاشارة المستخدمة فى الاتصال الانسانى ، وكما يقول ايفان بافلوف ، فالعامل الانسانى هو اقوى حافز ، وينطبق هذا الى حد كبير على الكلام . بل ويمكننا أن نقول أن الكلام حافز أعظم ، يتفوق على كافة الحوافز الأخرى ، ليس فقط كميا ، وليس فقط بما يحدثه من تأثير على الجهاز العصبى ، فالكلمات قادرة على تدمير ما ولده نظام الاشارة الأول بعد طول الكد والمعاناة : فعلاقات الأفعال المنعكسة الشرطية ، والتى هى من نتاج النشاط العصبى العالى ، بل والنظرية بطبيعتها ، هى فى الواقع افعال منعكسة متوارثة وغير مشروطة . ويمكن لهذه الأفعال أن تعطل الوظائف الفسيولوجية للجسم والتى تبدو وكأنه لا سبيل الى المساس بها ، بل وان تبطلها تماما ، او تحولها الى امتدادها ، أو تشتتها ، أو تعدل من توزيعها . وهذا الحافز القوى يقف ، بمعنى معين ، فى مواجهة كافة الحوافز الأخرى . **فجميع الغرائز البيولوجية للانسان يمكن تحويلها ، او طمسها ، او استبدالها بأضدادها من خلال تدخل الكلام ، نظام الاشارات الثانى** . وهذا هو الشرك الذى يقع فيه من يفتقدون علم النفس الجماعى أو الاجتماعى .

فيما مضى كان علم النفس العام (علم نفس الشخصية المفردة) لق اهمية اقل على سيكولوجية الكلام . وحتى سيكولوجية التفكير كانت بامل مستقلة ، خاصة فى الدراسات التى تتناول الارادة ، والروابط ، العواطف ، والتصورات ، اما فى الوقت الراهن ، فهاهى سيكولوجية الكلام حول الى مفهوم مركزى فى علم النفس الفردى .

ويرجع الفضل الى عالم النفس الروسى الشهير ل. س. فيجوتسكى هذا التغيير فى منهج تناول القضية . كما حقق خليفتاه أ. د. لوديا وا.ن. يوننيف ، ومساعدوهما وانصار مدرسته والعاملون فى معمله الكثير فى هذا المجال .

وانتهت ابحاث هذه المجموعة الى ان الكلام لا يحدد العمليات النفسية حيثما يمكننا ملاحظة هذه العمليات على الفور فحسب ، فالكلام يترسب فى اغوار عميقة فى عقل الانسان . والكلام الخارجى ، منطوقا ومسموعا كان أم مكتوبا ومقروءا ، يمكن أن يتحول الى صمت ، الى كلام « مستتر » . ولقد اثبتت انواع التكنيك الكهربائى الفسيولوجى الحديثة عالية الحساسية لتسجيل التيارات البيولوجية المتدفقة فى اخفاء الكلام ، ان الكلام غير المنطوق انما هو نوع أصابه الضعف والوهن من الكلام بالمعنى المعروف للكلام . فعندما يفكر اى منا فى مشكلة من المشكلات ، أو يحاول مثلا ان يتذكر قصيدة شعر ، أو ان يتوصل الى اجابات على بعض الأسئلة ، فنحن نتكلم دون أن نتبس بصوت . فالكلام هنا تكبح حركته سرعة واتجاها ، وقد اكتشف أن التفكير يواكبه دائما قدر من الاثارة لأعضاء التنفس (وهى أحد المكونات الاساسية للنشاط المتعلق بالفم) ، الحنجرة ، والحلق ، واللسان ، والشفتين . واستنادا الى هذا الاكتشاف تمكن الباحثون من تعميق نظرتهم الى سيكولوجية التفكير . فليس هناك تفكير بغير كلام . ولكن الأبكم والأصم يفكران . فكيف ؟ هناك العديد من التفسيرات السطحية التى تحيط هذه المسألة بالغموض . ولكن المسألة بسيطة : فالابكم والأصم يملكان ملكة الكلام .

ونحن نحول لغتنا الى اشارات تقليدية بالاصابع أو عضلات الوجه ، ونعلم الأبــكم والأصم هذه اللغة ، على نفس النحو تقريبا الذى نعلم به الأطفال الأسوياء أصول النطق . **فجوهر المسألة لا يكمن ، اذن ، الا فى مجرد ترجمة نوع معين من نظم الاشارات الى نوع آخر** . وكما هى الحال مع الشخص السوى ، فالكلام المعوق للأبكم يتحول ذاتيا الى كلام داخلى مختزل ، لاندركه مباشرة وانما يمكننا اكتشاف ذبذباته ورصــــدها باستخدام أدوات تسجيل التيارات البيولوجية .

وتحويل الكلام الخارجى الى كلام مستقر لا يعدو أن يكون جانبا واحدا فحسب من الجوانب المتعددة المتضمنة فى الانتقال من الاتصال المتبادل بين الأفراد الى العالم الداخلى للفرد . ويحذو ل.س. فيجوتسكى حذو غيره من علماء النفس فى وصفه المرحلة الملاحقة بأنها « **تذويت** — أو اضفاء للصفة الذاتية » . ولنفرض أن طفلا استمع الى امر صادر اليه . انه يردد صيغة الأمر بصوت مسموع فى أول مرحلة .

وأما فى المرحلة الثانية فهو لا يصدر اى صوت ، بينمـــا فى المرحـــلة الثالثة يصبح فى غير حاجة الى أى الحاح خارجى لأنه اقتنع بالأمر وتحول بالنسبة له الى قاعدة من قواعد السلوك ، ولا شك أن الباحث الذى يتجاهل هذه الملاحظات والاستنتاجات العلمية جرى بأن يبدأ بداية خاطئة ، وأن يؤول قبول الطفل لبعض الايماءات والتعليمات وهو يرحب بها أكثر من غيرها — وهو ترحيب ينعكس فى تبادله الصوتى مع الموجه — نتيجة لنزعة طبيعية لدى الطفل وتوافق الايماء أو التعليمات مع قواعد السلوك التى اقتنع بها ، اننا نواجه هنا بثلاثة أشياء وقد انقلبت رأسا على عقب .

ويثير كل ذلك مسألة ما زالت محل نزاع شديد فى مجال ما يسمى علم النفس الوراثى ، أى علم النفس المختص بدراسة تطور الكلام والتفكير . ويرى جان بياجيه أن كلام الطفل وتفكيره يتطوران «**الأنوية**»(١) أولية ، أى من

(١) الأنوية : اعتبار « الأنا » نقطة الانطلاق فى الفلسفة [المترجم] .

مناجاة النفس من جانب فرد منعزل الى « **مشاركة اجتماعية** » بالتدريج ، ولكن علمـــاء النفس الماركسيين ينادون بوجهة نظر مضـــادة لذلك تماما ، اى « بالتذويت » التدريجى . ولقد تخلى بياجيه الآن عن آرائه فى أجزاء منها ، واصبح ينادى برأى وسط بين الاتجاهين .

والأبحاث التى تدور حول الكلام غير المنطوق والكلام الداخلى فى ذروتها فى الوقت الراهن ، رغم أن الفصل الخاص بهذا الموضوع لم تتم صياغته علميا بعد . ولكن الانجازات التى تحققت فى هذا المجال حتى الآن ، سواء فى الاتحاد السوفيتى أو البلدان الأخرى ، تكفى لاثبات أن الاتصال الصوتى قاعدة عامة لسيكولوجية الانسان لدرجة أبعد كثيرا مماكانت الأجيال السابقة من علماء النفس تجرؤ على تصوره .

ويدل ذلك ، ضمن أشياء أخرى ، على انه ليس هناك انتقال مباشر سواء من اصوات أو صرخات الحيوان أو الطفل (قبل أن يتعلم الكلام) الى الكلام ، أو من العادات والأفعال المتعمدة حتى من جانب أعلى الحيوانات تنظيما الى النمط الانسانى للتفكير ، ولا شك أن عالم النفس الماركسى الفرنسى الشهير ، هنرى والون ، يضع يدنا بكل وضوح على الهوة القائمة بين هاتين المقولتين فى كتابه « من الفعل الى التفكير » .

والواقع أن غزو نظم خاصة للاتصال الانسانى وتغلغلها فى النشـــاط العصبى العالى لا يجعل منها ملحقا أو بناء فوقيا ، وانما هى ثورة .

وما زالت مصادر الكلام الانسانى فى حاجة الى المزيد من الابحـــاث والدراسات ، والى الآن ، لم يتم التوصل الا الى القليل مما يساعد على ازالة ما يحيط بها من غموض . ولكن يمكننا الاشارة الى نقطتين تســـلطان الأضواء على هذه **الطفرة النوعية** ، فالاشارة الصوتية تؤدى دائما ، وبلا أى تغير ، وظيفة سالبة أيضا وليس وظيفة موجبة فحسب : **انها تمنع شيئا ما** . وهناك من الأسباب ما يحدونا الى الاقتناع بأن هـــذه الوظيفة المانعة هى الأقدم ، وأنها ثلاثية الجانب :

١ ــ فالاسم او اللقب المميز « يحل محل الشيء » ، بمعنى أنه يلغى أيضا انعكاسات لا ارادية يثيرها هذا الشيء مباشرة . فالكلمة أو الايماءة تمنع معاملة الشيء ، او معالجته باليد ، أو حتى مجرد لمسه ، ولا يمكن لها قبل ذلك أن تفرض افعالا معينة محدودة ومتعمدة ، وكما نرى ، فهناك مرحلة تمتد بين « الفعل والفكر » (هـ . والون) تمنع فيها الكلمة الفعل أو تحظره . وهذه المرحلة واضحة تماما فى عمليات تكوين الكلام فى الطفولة المبكرة وفى بعض الاضطرابات النفسية فى البالغين ، وهى تزيح الستار تماما عن الطبقات النشوئية القديمة لنظام اشاراتنا الثانى وهذا هو الجوهر الكامن وراء العبارة التى تبدو بسيطة والتى تقول أنه « بالنسبة للانسان ، فالكلمة تحل محل الشيء الذى تدل عليه » . **والواقع ان المنع السابق على الاحلال انما هو فعل من افعال الاتصال الانسانى .**

٢ ــ فى المحادثة ، أو فى أى تبادل صوتى آخر ، هناك منع محير لتكرار السؤال أو كلمات المتحدث . ولكن الأبحاث النفسية والفسيولوجية تؤكد أن هذا الحافز قوى للغاية ، كما توضح القياسات الدقيقة لسرعة ردود الفعل الصوتية المختلفة ان تكرار ما ينطق به شخص ما هو أكثر الاستجابات سرعة من جانب النسيج العصبى للمخ ، بل وتقدم من الأدلة القاطعة ، أيضا ، ما يثبت أنه أكثر الاستجابات قدما ، وللتكرار أهميته البالغة فى تكوين الكلام عند الطفل ، لأنه لن يتعلم الكلام أبدا اذا عجز عن تكرار ما يقوله البالغون ، ومن الأعراض المرضية ما يسمى **المصاداة** (أى التكرار المرضى لما يقوله الآخرون) ، وهى تلاحظ فى حالات الهيستريا وغيرها من الأمراض العصبية والاضطرابات الموضعية فى النصوص الامامية للمخ . فعندما يوجه للمريض سؤال أو يصدر اليه أمر ، نجده يكرر ما سمع من كلمات بطريقه آلية لدرجة أو أخرى ، فى نفس الوقت الذى يعجز فيه عن الاجابة السليمة على السؤال أو تنفيذ الأمر ، وهذه الاستجابة المرضية ، المعادية ، تعبر عن انفصال الكلام كوسيلة للاتصال عن الاعلام الدال ، وهذا النوع من المحادثة مفرغ من اى معنى ، **رغم اننا لانتجاوز الصواب اذا ما قلنا انه**

كان يلعب دورا دفاعيا بيولوجيا فى المراحل الأولى لنشأة الانسان . ولنتصور كلبا يكرر الأمر الصادر اليه من سيده : « قف » ، ويواصل فى نفس الوقت اداء ما هو بصدده من افعال ! وجماع القول ، هو ان **التكرار كان نوعا من** الرفض الدفاعى لأمر أو طلب ، وهو يستند ، فسيولوجيا ، الى القـدرة **المذهلة للجهاز العصبى على ان يولد أفعال جسم آخر** . وهناك الآن منع مضاد يفرض على هذا الرفض فى الاتصال الانسانى : فيجب عليك الا تسخر ممن يكلمك ، لأن هذا المسلك يمكن ان يخرج بالاتصال الانسانى بعيدا عن دائرة العلاقة الدالة أو الواعية .

٣ ـــ ان كل كلمة منطوقة كانت أم مكتوبة ، وكل فكرة ، تخطر او « تحجب » العديد من الكلمات الأخرى . ويمكننا القول بأن هذه الكلمة تدخل فى نزاع مع اى كلمة اخرى ، بما فى ذلك تلك التى تتشابه تقريبا شكلا ومعنى ، رغم الاحتمال الوارد لتغييرها للتدفق اللاحق للكلام ، وان كان لدرجة ضئيلة . والمتنوعات يقضى عليها وتكبح باستمرار . **وعندما ترفض الكلمة كافة الكلمات الأخرى ، فهى تذوب فى معناها الخاص الواحد والمحدد دون سواه** . ونحن نلاحظ الاختيار الخاطىء للكلمات فى المراحل المبكرة من تطور الطفل ، ونموه العقلى وتعليمه .

وبالاضافة الى ذلك ، فأداة الاتصال المنطوق قادرة على اضفاء مختلف الألوان على الاشارات ، كما يمكن للجزئيات الأولية للغة ، مثل الحرف أو المقطع أو نبرة الكلام ، أن تغير معنى منطوق معين ، كما تعجز اشكالها المعدلة عن اداء الوظيفة المنطقية لجزىء لغوى أولى ، وان كانت تؤدى دورها كجزئيات أوليد تمكننا من التمييز بين لهجة وأخرى ، وبالتالى للتمييز بين « من هم منا » و « الأجانب » .

وتذكرنا هذه الوظائف السالبة الثلاث للكلمات ، بمعنى أوســع ، بالتضاد الاجتماعى النفسى بين « نحن » و « هم » . فالكلمات فى جانبها الدال والموجب ، موجهة نحو عالم الأشياء ، واما جانبها السالب ، المراوغ وعميق الجذور فى نفس الوقت ، فينتمى الى عالم العلاقات الانسانية ، والى

العلاقات السالبة على وجه الخصوص ، ونحن نعرف الآن أن النزعة السالبة سمة مميزة للعلاقات مع المجموعات « هم » ، رغم مالها من نطاق واسع عنيد من الحرب والعداء الى مجرد المنافسة .

والمحظورات لم تكن أبدا مطلقة ، وانما يبقى دائما جزء ما مما تم حظره أو حجبه . وهذه البذرة التى تعمد تلعب دورا فى بنية الكلام والتفكير . وفى بعض الأحيان — وتاريخ الثقافة وعلم النفس الاجتماعى يؤكدان ذلك — تنبت هذه البذرة ، وتنتج ثمارا غريبة ، يصعب ادراك منشئها .

ولقد سبق ان تعرضنا لظاهرة من نوع خاص فى سيكولوجية الكلام — وهى المصاداة ، أى التكرار غير الارادى لكلمات ينطق بها شخص آخر . ان كبح أو حجب هذه الظاهرة لا يعنى زوالها بأى حال من الأحوال ، فعندما يتم كبحها فى شكلها المباشر ، نجدها تولد نبتات تترعرع وتتحول الى ظواهر نفسية ثقافية تستمد طبيعتها بحكم ما تحمله من دلالة .

وعلماء النفس يلمحون الى مصادر تنتمى الى المصاداة فى عديد من الظواهر الوراثية . ولنأخذ مثلا تكرار الأجيال وراء الأجيال لنفس الأساطير والخرافات الشائعة بين القبائل . وأما بالنسبة لنا نحن الذين بلغنا شاوا اعلى فى مدارج الحضارة ، فيصعب علينا أن نتفهم ذلك الثبات وتلك الدقة فى تكرار سلاسل طويلة من أسماء الأسلاف أو الاقاصيص والحكايات التى تدور حول الحملات والهجرات ، والتى تتطلب احيانا ساعات طوالا لسردها . ولا شك ان الشكل الشعرى يساعد على تذكر تلك الاسماء والاقاصيص . وهكذا تنتج المصاداة المعدلة « ذاكرة الناس » ، أو اساطيرهم الملحمية المنطوقة . وكم استبدت الحيرة بثور هيردال عندما تبدت امامه معرفة سكان البولينيز الدقيقة بماضيهم السحيق ، تلك المعرفة التى صمدت واستمرت لأن احدا لم يتجاسر فى أى وقت من الأوقات على ان يدخل اى تغيير مهما كان ضئيلا على الكلمات التى تنتقل من جيل الى جيل ، حرفيا ، « من فم الى فم » ، دون أن يتوقف احد عندها ليفكر .

والنقل الحرفى للمعلومات ، ليس فى الزمان وانما فى المكان أو ما يسميه سكان الاستبس والصحارى « الأذن الطويلة » شكل محور آخر من أشكال المصاداة ، وفى وقتنا الراهن ، يحصل اغلب الناس ، مهما استقر بهم المقام فى أماكن نائية ، على المعلومات ، وفى تزامن واحد مع الآخرين ، من خلال الصحف ، والاذاعة ، والتليفزيون ، وأما فيما مضى ، فكانت هذه المعلومات تنقل من فم الى فم ، ومما يدعو الى الدهشة انها كانت تصل الى اكثر « المرسل اليهم » بعدا فى شكل يكاد يطابق شكلها الأصلى بكل دقة ، وتلعب الشائعات فى المجتمعات الحديثة دورا فى السيكولوجية الاجتماعية ، ولكن قاعدتها المعادية تبلغ الدرجة التى يقدم بها كل شخص تقريبا على تغيير شىء من المعلومة التى يتلقاها ثم ينقلها لغيره .

وثمة اشتقاق آخر من المصاداة . ولنأخذ دور فريق الانشاد ، او الخطابة الجماعية فى الثقافات والطقوس القديمة . ان فرقة الانشاد لا تعدو ان تكون مصاداة تكثفت لتصبح انشادا متزامنا ، وليس هناك اى تبادل دال بين المنشدين ، لأنه ليست هناك معلومات تتنقل بينهم ، ومع ذلك ، فربما كان فريق الانشاد هو اكثر الأمثلة تجسيدا لما يسميه علم النفس الاجتماعى المجموعة « نحن » .

والنقطة الثانية التى تسلط الأضواء على الطفرة النوعية من النشاط العصبى العالى للحيوان الى الكلام والتفكير الانسانيين ، هى أن الكلام والتفكير يمثلان بنية انسانية خاصة متوارثة منذ اقدم العصور .

وأبسط أنواع الكلام الواعى (مع استثناء الأصوات الخاطفة العاطفية البحتة المعبرة عن نوع من الانفعال) هو ، من وجهة نظر علم اللغات ، فعل ثنائى ، أو يتحقق بين طرفين . فالكلام من طرف واحد لا وجود له . والكلام من طرف واحد قد يغير معنى الكلمة او المنطوق ، ولكنه لا يكفى لأن يحمل معنى ، أو معلومة ، أو مغزى .

والفعل الثنائى للكلام هو ما يسمى **بناء الجمل** (السينتاجما) وليس يعنينا فى شىء أن يكون بناء الجمل ربطا بين عدد من اشكال النطق فى كلمة ، او ربطا بين كلمات فى جملة بسيطة جدا ، او ربطا بين مركب منطوق ولحظة توقف عن الكلام ، والعلاقة بين العناصر فى بناء الجمل توصف فى علم اللغات الحديث عموما بانها ربط بين « الفاعل » و « المفعول » .

وعلى اى الأحوال فليس فى مقدورنا ، فى اطار اللغات الرسمية ، أن نقدر على نحو سليم اكتشاف ان التفكير الانسانى له بنيته المميزة منذ لحظة ظهـــوره .

ويرجع هذا الاكتشاف أساسا الى هنرى والون ، الذى يصف ويحلل فى المجلد الأول من مؤلفه الاساسى « منشأ التفكير عند الطفل » ، التفـــكير الأول ، أو حتى ما يمكننا وصفه بما قبل التفكير ، اى تكوين الاتحادات الثنائية أو الأزواج . ولكن والون يجزم بأن الأشياء والأحداث الخارجية تمثـــل بالنسبة لهذه الآلية ، سلسلة غير متبلورة من الظواهر النفسية التى تفتقر الى القاعدة الحقيقية التى تقوم على الترابط . وهو يرى ان هذه « الأزواج » يمكن التعرف عليها عند منابع التفكير نفسها ، ويقول : « ان الذرة الأولية للتفكير هى هذه البنية الثنائية نفسها ، وليس العناصر التى تكونها . فالثنائية تسبق الوحدة . **والزوج أو الثنائى هو الحد الأول للعنصر المنفصل** » (١) . فأى سلسلة يمكن فهمها ، أو اى مفهوم مشترك بشكل عام ، يمكن اختزاله ورده الى أزواج بسيطة . ويلاحظ والون هذا التفكير الثنائى الأولى فى الأطفال ، ولكنه يذهب الى انه يمثل ، بمعنى معين ، حدا لتفسخ التفـــكير لدى البالغين ، بالاضافة الى انه ظاهرة يمكن ان نضع يدنا عليها فى بعض الاضطرابات العقلية ، وبكل وضوح (٢) .

---

(١) هـ.والون ، منشأ التفكير عند الطفل ، المجلدالأول ، باريس ١٩٤٥، ص ٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

ويرى والون ، وله فى ذلك أسبابه الوجيهة ، أن هذا التكوين للثنائيات لا يشمل الربط بين الاشياء أو المصطلحات سواء بالتشابه ، أو المحاكاة ، أو التضاد . فالطبيعة المنطقية لهذه الأزواج تتمثل فى أنها بدائية وليست ثنائية ، أى ان جوهرها هو انها الجسر الموصل بين الشاطئين ، والزوج هو على وجه التحديد البنية التى يمكن خارجها تصور العناصر المترابطة أو تجسيدها بشكل مستقل ، ويرى والون أن الآلية النفسية لهذه العملية ما زالت فى حاجة الى مزيد من الشرح .

ويمكننا أن نضيف أن الفسيولوجيا ، أيضا ، لم تتوصل بعد الىفهم كامل لهذه المشكلة ، والعملية الذهنية ، والمعروفة باسم الربط الثنائى فى المنطق الوراثى ، شىء يختلف كل الاختلاف عما تصفه الفسيولوجيا بأنه الفعل المنعكس الشرطى أو العلاقة الزمانية . والعناصر التى تترابط فى علاقة ثنائية اما أن تحقق هذا الترابط من خلال علاقة موضوعية ، أو تظل اقطابا متباعدة ، أى تتحول الى سخافة ، وهى نتاج محتمل خاص للمخ الانسانى .

وسوف نعود الى هذه المشكلة الخاصة بعلم النفس والمنطق فى موقع آخر . اما الآن ، فينبغى أن نؤكد اننا نتناول ظاهرة مضادة للمعاداة بمعنى معين ، ولنأخذ **البارافازيا** (الخلط ؟) مثلا ، والتى تعنى عدم القدرة على تكرار الكلمة اللازمة واستخدام كلمة مختلفة بدلا منها ، وقد تكون هذه الكلمة الجديدة متصلة بالأولى أو غير متصلة ، ان هذه الظاهرة — البارافازيا — هى التى ارتبطت باكثر الطبقات قدما فى تشكيل المنطق الانسانى ، متجسدة فى ظهور الاتحادات الثنائية ، والأزواج ، والثنائيات . ولكننا نؤكد ، على أى الأحوال ان طبيعتها الفسيولوجية النفسية لازالت مغلفة بالأسرار بشكل عام .

---

(١) هـ. والون ، منشأ التفكير عند الطفل ، المجلد الأول ، باريس ١٩٤٥ ، ص ٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

ولكن ثمة حقيقية لا جدال فيها : **فهذه الآليات البدائية للكلام واللغة ، للتفكير والسخف ، لم تنشا فى مخ فردى منعزل ، ولا يمكن ان تنبثق من تطور وظائف الجهاز العصبى المركزى لجسم منفصل ، انها نتاج الاتصال بين الأفراد ، وهى فى التحليل الأخير ، نتاج لعلاقات بين جماعات ، وليس بين افـــراد .** ؟

ومن الممكن بالنسبة للباحث فى مجال اللغات (والذى يتركز اهتمامه على الاشارات المفهومة والمعروفة وحدها) ان يتجاوز مسألة عدم الفهم ، وأما بالنسبة لعالم النفس الاجتماعى **فعدم الفهم جانب هام من الاتصـــال المنطـــوق تتميز به العلاقات الانسانية خاصـــة ،** فعدم الفهم جـــزء من العلاقة بين اللغات والثقافات .

ويمكن تقسيم عدم الفهم الى اربعة انواع :

١ ــ **الصوتى** : عندما تختلف مجموعة الوحدات الصغرى للكـــلام التى تساعد على تمييز نطق لفظة ما عن نطق لفظة اخرى فى لغة او لهجة ، والداخلة تحت سيطرة المستمع ، عن الوحدات الصادرة عن المتكلم ، **فتتخلط الأصوات لدى السامع لتشكل تدفقا صوتيا غير قابل للفهـــم .** ويتراوح ذلك من عدم الفهم اللفظى البسيط (مثل النطق المختلف لبعض الكلمات) الى عدم الفهم على الاطلاق ، مع ما يؤدى اليه ذلك من **حمـــاية** لمجموعة (أ) فى اطار معين ، من التأثير الصوتى لمجموعة (ب) وقد تؤدى الكلمات غير المفهومة الى الضحك أو التأفف بدلا من ان تنتج ردود الفعل التى يسعى المتكلم الى اثارتها .

٢ ــ **عدم الفهم المرتبط بدلالات الألفاظ** : عندما تستخدم مجموعة من الناس تتكلم العامية أو لهجة ، كلمات تقليدية للدلالة على معنى آخـــر أو فكرة أخرى ، او عندما يكون لنفس الكلمة معنى مختلف فى لغتين بينهما نسب ، مثل الروسية والبولندية . واذا عممنا هذين المثالين فسوف نتوصل **الى ان عدم الفهم التابع من دلالات الألفاظ نوع مصطنع او وسيلة تطورت تاريخيا وقصد بها عرقلة الاتصال المنطوق .**

٣ — عدم الفهم المرتبط ببناء الجمل : عندما يكون المستمع ملزما بأن يفهم ، ومن ثم لا يستجيب بالرد أو بأداء فعل من الأفعال الا لما يوجه اليه من كلام مسموع يقابل بنية مقبولة لغويا . واذا عجز المتكلم عن تحقيق هذا التوافق ، يصبح من حق المستمع ان يعامله كشخص غريب عنه أو كجاهل ، بل ويمكن فى حالات الخروج على الأعراف المستقرة أن لا يجد أى معنى فيما يسمع وأن يتجاهل ما يوجه اليه من كلمات .

٤ — عدم الفهم المنطقى : عندما لا يكون هناك ما يلزم المستمع بأن يهتم أو ان يلتفت الى كلام المتكلم اذا كان كلامه لا ينطوى على أى منطق ، فالكلام غير المنطقى ، التناقض ، يثير الضحك والاشمئزاز . **انه اشبه بالقبض على « عدو » أو « دخيل » متستر .**

والاختلافات الصوتية واللغوية ، والنابعة من دلالات الالفاظ ، هى المسئولة فى بعض الأحيان عن عدم الفهم الجزئى بين الجماعات اللغوية والثقافية المتجاورة ، ولكن كلما ازدادت هذه الاختلافات تعمقا كلما ازداد ارتفاع الحواجز التى تمنع الاتصال الصوتى — ولهذا السبب يركز علم النفس الاجتماعى اهتمامه على تعدد اللغات واللهجات ، أو على ذلك الخليط المعقد من « نحن » و « هم » ، **فاللغة التى يتعلمها الطفل من والديه ليست وسيلة للاتصال فحسب ، وانما هى ايضا حماية (عن طريق عدم الفهم) ضد التأثير الصوتى لكل من ليس منا** . وعلم اللغات لا يتناول موضوعه ابدا من هذه الزاوية .

٤ — العدوى : المحاكاة والايحاء

كما سبق أن اشرنا ، تفتح أكثر مجموعات « نحن » بساطة فى بنيتها الباب واسعا أمام العديد من الآليات الاجتماعية النفسية مثل تبادل العدوى . وقد ادى ذلك فى الغرب الى نشأة مدرسة تحقر موضوع علم النفس الاجتماعى فى دائرة ضيقة واحدة ، هى مشكلة العدوى (١) .

---

(١) ج. تاردى ، « قوانين المحاكاة ، دراسة اجتماعية » باريس ،

ولكن لعل السمة المميزة للحياة الاجتماعية المعاصرة هي رفض الفرد ان يذعن للعدوى التي تفرض عليه قسرا . وكلما ارتفع مستوى المجتمع الانساني كلما تميز افراده بروح النقد والحساسية ازاء القوى التي تحاول دفعهم لأداء أفعال معينة بطريقة آلية ، وقد سبق أن أشرنا الى ان كل فرد ينتمي في نفس الآن ،لعديد من الجماعات ، لعديد من المجموعات « نحن » ، ولذلك **لا يمكن لأى من هذه الجماعات ان تحتكر عقله وان تستبعد الاخرى استبعادا كاملا ، انه ، اذا جاز القول ، لا يتوقف لحظة عن انتقاء مجموعة « نحن » تحدد سلوكه ومشاعره في اللحظة المعينة** . وبعبارة أخرى ، فالانسان المتعلم لابد من اقناعه أولا ، وفي هذه الحالة ، تصبح المحاكاة الآلية بالغة الضعف ، بل وتفقد فاعليتها تماما . ومهما يكن من امره فعندما تتلاقى هذه المحاكاة الآلية مع ما يؤمن به ، فهو يستسلم طائعا لمحاكاة البيئة الانسانية ، أي للمجموعة « نحن » .

ولا شك ان ذاكرة القارىء تختزن العديد من الأمثلة التي تؤكد ذلك ، ابتداء من اكثرها نبلا ، مثل البطولة على جبهات الحرب والتي تتالق نتيجة لمثال فردي أو لصيحة قتال ، أو مثل حماس العمل بين العمال في مواقع العمل والمصانع ، الى بعض الحقائق النفسية ضئيلة الشأن مثل المحاكاة المتبادلة للاثارة في مباراة لكرة القدم ، والمحاكاة موجودة أيضا في شكل أضعف ، وغالبا ما يكون اقل سفورا ، في حياتنا اليومية ، على امتداد التاريخ كله ، وكلما أوغلنا في التاريخ الى الوراء كلما كانت أشكالها اكثر بروزا للعيان .

ويمكننا التمييز بين ظاهرتين مختلفتين بالضرورة — وهما اللتان تعرفان بالمحاكاة والايحاء — في العدوى النفسية للجماعات والمجموعات البشرية .

١٨٩٠ ، ج . تاردى ، « رأى المخبول » ، باريس ١٩٠٥ ، ل. فواتولفسى ، مقالات عن علم النفس الجماعي ، في جزئين ، الجزء الأول ، موسكو — بتروجراد ، ١٩٢٤ ، الجزء الثاني ، موسكو — لينينجراد ، ١٩٢٥ ، أ. س بوجاردوس ، مأسس علم النفس الاجتماعي » ، الطبعة الثالثة ، نيويورك — لندن ، ١٩٤٢ ، هـ. هيرزنر ، « العلاقات الانسانية » ، برلين ، ١٨٦١ .

والكلام هو الوسيلة الوحيدة تقريبا للايحاء . والمحاكاة فى العادة محاكاة لأفعال ، او لسلوك عملى ، او لحركة صامتة ، او لثياب ، أما محاكاة الكلام — سواء كانت غير ارادية (المصاداة) أو متعمدة — فهى لحظة خاصة من المحاكاة . وبعبارة أخرى ، فالايحاء انسانى بحت ، بينما يمكننا تتبع نشأة وتطور المحاكاة كظاهرة نفسية مشتركة لكل الحيوانات العليا ، رغم ما قد يكون لها من طبيعة انسانية خاصة .

ولقد تعمق علماء النفس فى مناقشة فعل المحاكاة فى اطار آلياتها . والحيوان لا يرى الا كيف يستجيب كائن مماثل آخر لحافز خارجى ، ولكن اثر هذا الحافز لا يمتد اليه مباشرة . وهذا يكفى ، على أى حال ، لاغرائه على الاستجابة برد فعل آلى مماثل . ؟

والواقع انه ليس من الواضح كيف تتحول مشاهدة حيوان آخر الى حافز يدفع الى الاستجابة برد فعل « مماثل » ، « بنفس » الطرف ، أو الرأس ، أو الجسم كله ، فكيف يطابق جسم بين نفسه وبين الجسم الذى يجاوزه ؟ . ان كانت الاجابة الناجمة على هذا التساؤل لم تتوفر بعد ، الا أن **المنفعة البيولوجية والأثر المكيف لهذه الآلية على درجة كبيرة من الضخامة والوضوح وتساعد هذه الآلية فى المحافظة على النسل ، وهى اقوى فى صغار الحيوانات منها فى البالغ منها فى عديد من الانواع** . ونظرا لاهتمام علماء الحيوان والمهتمين بسيكولوجية الحيوان بدراسة عزيزة المحاكاة هذه ، فهى توصف فى بعض الأحيان بأنها « **غريز القطيع** » .

وعلماء النفس البورجوازيون يطبقون على المجتمع الانسانى المفهوم البيولوجى لغريزة القطيع والمسلك القطيعى للحيوانات — ولكن هذا الاستخدام الغوغائى للمفاهيم البيولوجية وتطبيقها على ظواهر مختلفة نوعيا ، ما كان من الممكن أن يتمخض الا عن الحاق أفدح الاضرار بالعلم . فالانسان انحدر من الحيوان ، هذا صحيح ، وهو ينتمى الى المملكة الحيوانية بحكم السمات الاساسية لتنظيم جسمه ، **ولكنه يمتلك ايضا آليات سلوكية**

معدلة معينة ، استغرقت نشأتها وتطورها ملايين السنين . والذى يعنينا على وجه الخصوص انها كانت تتغير ، والأكثر أهمية هو انها كانت تستكمل ، او تختفى لتحل محلها آليات اخرى ، أو تطغى عليها آليات أخرى يتفرد بها الانسان الاجتماعى وتميزه هو وحده .

ومجال المحاكاة واسع ممتد بشكل ملموس ، ولكن كل ما هنا لك اننا لا نلاحظ أن ثمة عناصر من المحاكاة ينطوى عليها اى اتصال عادى . فنمط حياتنا اليوميـــة يقوم الى حد كبير على المحاكاة ، الطعام الـــذى نأكله . والثياب التى نرتديها ، والمساكن التى نقطنها ، والأدوات التى نستخدمها كلها قائمة على المحاكاة . والناس يتبعون ، بدون وعى ، سلوكيات وعادات الآخرين ، ويتبدى ذلك على نحو اكثر تكثفا فى الأطفال ، ثم يأخذ فى التناقص بالتدريج كلما تقدمت بهم السن . والتعليم يقوم جزئيا على المحاكاة ، تكرار شرح المعلم ، ومحاكاة التلاميذ الآخرين ، واحتذاء حذو الأمثلة الطيبة، وتعلم الكلام وتعلم اللغات الأجنبية أيضا محاكاة . وتعلم المهنة ، او الفن ، أو اللعبة الرياضية يقوم فى الجانب الأكبر منه على « العرض العملى » ، وهو آلية من آليات المحاكاة . والواقع أن المحاكاة عنصر لا غنى عنه فى العديد من ظواهر العمل والحياة الاجتماعية .

أما العدوى الصوتية ، اى الايحاء ، فتعتمد على آلية نفسية أشد تعقيـــدا .

ولذلك ، فمن الطبيعى لعلم النفس الاجتماعى أن يركز الى درجة اكبر على العدوى الصوتية أو الايحاء ، وليس على العدوى غير الصـــوتية أو غير المعتمدة على الاشارات ، رغم أن هذه ايضا تلعب دورها ، عن غير وعى فى بعض الأحيان ، او متكسرة فى أحيان اخرى من خلال منشـــور الوعى والاقناع .

وجوهر الايحاء هو انه اذا توفرت الثقة المطلقة وغير المشروطة — اى المجموعة « نحن » المطلقة — فالكلمات تنقل حتما كل ما يعنيه المتكلم

من صور ، وأفـكار ، وأحاسيس ، ويثير الوضوح الصريح لهذه الأفكار الموحى بها وما تتضمنه من قوة ردود فعل تتمثل فى أفعال تبدو بالضرورة وكأنها تولدت عن الملاحظة الخاصة والمعرفة المباشرة وليس من خلال وساطة طرف آخر .

ان كل متكلم يوحى بشىء ما ، وان كان ليس كل ايحاء صوتى يقبل فى حد ذاته ، لأن الأدلة متوفرة ، دائما تقريبا ، على وجود نشاط نفس مضاد أى التقيم النقدى والمقارنة مع شىء آخر .

وهكذا ، نعنى مصطلح « الايحاء » بمدلوله الواسع يختلف عما تعنيه الكلمةفى أستخدامها الدارج.والايحاء ، بشكل عام ، يتضمن شيئا ليتعلق بالطب ، والأكثر من ذلك ، أنه عادة ما يتم الخلط بينه وبين التنويم المغناطيسى . ولكن الايحاء الطبى (بالتنويم المغناطيسى أو بدونه) مجال له أبعاده وخصائصه المميزة . وأما من الناحية الطبية ، فهناك ثلاثة أنواع من الايحاء :

١ — أثناء التنويم المغناطيسى .

٢ — أثناء النوم الطبيعى . ٣ — فى حالة اليقظة .

والنوع الثالث من الايحاء ، وهو أوسع من أن تستوعبه الحدود الضيقة للطب بمعناه الدقيق ، هو الذى يعنى علم النفس الاجتماعى بشكل مباشر . اما الشكل الأول والثانى فنحن لا نذكرهما هنا الا لمجرد تقديم **مثال لحالة مصطنعة تقوم على الغياب الكامل لأى موقف نقدى من الكلمات** — ويمكننا وصف ذلك بأنه وسيلة فسيولوجية خاصة تولد ثقة مطلقة ، أو ثقة تكاد ان تكون مطلقة ، بين الناس ، عندما تكون قوة الايحاء الكامنة فى الكلمة فى أنقى درجاتها . ولكن ليست هناك أى علاقة بين النوعين الأول والثانى من الايحاء وعلم النفس الاجتماعى ، الذى يتركز اهتمامه كله على الايحاء فى حالة اليقظة (١) .

---

(١) أنظر ف.م. بختريف ، دور الايحاء فى الحياة الاجتماعية ، سان بطرسبرج ١٨٩٨ ، ف.ن. توليكوف ، قضايا سيكولوجية الايحاء فى الحياة الاجتماعية — مشكلات علم النفس الاجتماعى ، موسكو ١٩٦٥ .

وهناك شكل آخر من الايحاء يعرف بالايحاء الذاتى . وعلم النفس الفردى يعترف بالتشجيع الذاتى ، والسيطرة على النفس ، والاثارة الذاتية ، او باضدادها ، مثل التحكم فى الأعمال والمشاعر لجوءا الى الحديث مع النفس ، سواء كان هذا الحديث الذاتى هامسا أم مسموعا . ويرجع بنا ذلك مرة اخرى الى الفقرة السابقة : فالكلام ، وهو فى العادة وسيلة خارجية للاتصال بين الناس ، يمكن ان يتخذ ايضا شكل ما يسمى الكلام غير المنطوق — او دون الصوتى — ، وهذا دليل اضافى على أن قوة الايحاء الصوتى لا حدود لها طالما استبعدنا تماما انعدام الثقة او المعارضة .

والايحاء ، بمعناه الواسع ، وسيلة عامة للعلاقة النفسية ، تطابق فهم الكلمات والكلام : فاى كلمة فى لغة « معروفة » لابد بالضرورة أن تثير صورة ذهنية مقابلة ، تتحول بدورها الى حافز لفعل وكلما ازدادت الصورة وضوحا كلما كان الحافز للفعل اكبر . والكلمة المعروفة ، أو الصورة الموحى بها ، هى نفس الشىء .

وبناء على ذلك ، فالكلام الموجه الى الفرد أو الى مجموعة هو ايحاء « كثيرا ما يولد استجابة » سالبة ، ومنذ الطفولة .

وفقدان القدرة على الايحاء هو انعدام للثقة . ورفض الاستجابة الموجبة للايحاء الصوتى لا يتحقق الا فى حالات ثلاث دون سواها :

١ — استخدام لغة اجنبية (فقدان الربط بين الصوتيات والصور) .

٢ — اللحن من جانب « الموحى » ، مع ما ينجم عن ذلك من غياب الاتصال الدال والمنطق .

٣ — رد الفعل ظاهرى التناقض ، والسالب منه على وجه الخصوص ، والذى يميز الاضطرابات الوظيفية للجهاز العصبى أو العصاب . واما فى جميع الحالات الأخرى فالتاثير الصوتى لا يقاوم ، انه « قاتل » ، لو لم يواجه بانعدام الثقة — وهى الفعل النفسى للرفض .

والفهم والسلوك العملى اللذان لا يمكن مقاومتهما هما ، من جانب معين ، القاعدة ، بينما رفض الفهم ، او عدم الموافقة أو الامتناع عن

التنفيذ ، هى الظاهرة الثانــوية ، او هى نمط نفسى مركب على هذه القاعدة البسيطة .

وهذه ، على أى الاحوال ، خطوط عامة فحسب ، ولكنها تفيدنا كنقطة انطلاق نحو دراسة المشكلات النفسية الكامنة وراء مواقف محددة ، مثل الفارق بين الايحاء من الفرد الى الجماعة ، ومن الجماعة للفرد ، ومن الجماعة للجماعة ، ومن الفرد الى الفرد داخل الجماعة .

والايحاء بكافة اشكاله فصل من أشد فصول علم النفس الاجتمـــاعى أهمية وحيوية .

ونحن نلاحظ درجات متفاوتة من التقبل غير النقدى للايحاء بين جميع الناس ، وهى اكثر لدى الأطفال منها لدى البالغين ، واكثر لدى معتلى الصحة منها بين الاصحاء ، واكثر لدى من يعانون من كبح الوظائف التى يمارسها المخ او الذين يستبد بهم الخوف او يسيطر عليهم القلق ولا يثقون بأحد منها لدى الاشخاص ذوى المعنويات الجيدة او السوية . ولكن هناك من المواد المتاحة ما يحدونا الى القول بأن العامل الرئيسى هو مـــكانة « الموحى » لدى « الموحى اليه » . وتتمثل هذه المكانة فى جانبين : ثقة الموحى فى نجاح مسعاه ، واستعداد « الموحى اليه » للاستجابة الموجبـــة للمؤثر الخارجى،أى ثقته وغياب أى«الولوات ولكنات»من جانبه ifsand buts

والواقع أن هناك دائما درجة ما من انعدام الثقة أو القلق . ولذلك ، ما زال التحايل على مقاومة الموحى اليه ، وتبديد شكوكه بالاقناع والشرح ، يلعبان دورا هاما فى الحياة الاجتماعية ، وبعبارة أخرى ، فالايحاء يرتبط بالاقناع والشرح . وكلما ازداد التعارض بين الفكرة الموحى بها أو الفعل الموحى به ، من ناحية ، وبين ما يؤمن به الموحى اليه ، من الناحيـــة الأخرى ، كلما ازدادت مقاومته قوة ، وكلما اشتد رد فعله الدفاعى . ولذلك ، فكلما كانت الحجج التى يقدمها « الموحى » مما لا يمكن دحضه ، كلما ارتفعت مكانته ، وكلما ازدادت ثقة الموحى اليه به ، وكلما كان الاعتراف به كشخص « ينتمى لى شخصيا » « حاسما » . والخطيب يملك وفرة من الوسائل ، ابتداء من الحجج التى لا يمكن دحضها منطقيا حتى الأســاليب

النفسية البارعة ، يستخدمها من اجل خلق المناخ الذى تسود فيه المشاركة والاتصال الشخصى بالمستمعين ، وكلا هاتين الحالتين المتطرفتين لهما اهميتهما بالنسبة لنظرية علم النفس الاجتماعى وتطبيقاته العملية .

• وتوضيحا لهذه النقطة ، نورد تقريرا سجل فيه المخرج السينمائى السوفيتى ميخائيل روم وقائع لقاء القى فيه ف.ا. لينين خطابا ، كان جميع المستمعين له من الجنود الجياع ، الذين يرتدون الأسمال ، وانحطت معنوياتهم الى الحضيض . كان هذا اللقاء فى عام ١٩٢٠ ، فى احدى دور العرض السينمائى ، وحاول قائد الفصيلة ، وكان أول من تكلم ، عبثا ، أن يصمد أمام ما استقبل به من تهكم وتحديات وأسئلة غير ودية . ولكنه لم يتمكن . هنا نهض لينين ، واتجه نحو خشبة المسرح ، واستفاد من غياب الاتصال بين القائد والجنود .

يقول روم : « وعلى الفور ، أحس لينين بما يسود الجو من توتر ، وتفهم مزاج المستمعين . وتقدم نحو حافة المنصة ، فأطبق الصمت على على الجميع . وقال القائد : وصلت فى اللحظة المناسبة يارفيق لينين ! اننى اترك لك المنصة . وراح لينين يحدق بعينه الثاقبتين وهو يتجه الى حافة المنصة ، **وبدا وكأنه يمعن النظر ، ويعمق ، فى كل فرد منا** . ثم توقف ، وغمز بعينه يبحث لايراه القائد ، وقال له بينما هو يركز نظره علينا : لماذا ؟ لقد بدأت . ولابد أن تواصل . قل ما تريد ، وسوف نستمع . وهنا سمعت ضحكات صادرة من بعض الاشخاص . وكسب لينين ، الذى لاحظ اننا لم نكن نستمع للقائد ، الحاضرين بملاحظته المرحة ، واخذ يعاملنا كحلفاء : « فنحن » ، أى هو وجميع الحاضرين (سوف نستمع) . وأنهى القائد خطابه على وجه السرعة ، ثم بدأ لينين . تكلم بكل بساطة ، وبنبرة جادة تبعث على الثقة . وحدثنا عن الأسبا بالتى حتمت علينا أن نخوض الحرب ضد بولندا ، ولماذا لا نستطيع توقيع معاهدة سلام فى ذلك الوقت ، ولماذا يتطلب الموقف المزيد من القوات ، ولماذا سيستمر النقص فى المواد الغذائية لمدة سنة اخرى على الاقل . وربما كان سير لينين ذهابا وايابا على حافة المسرح أثناء حديثه ، وعيناه مركزتان على المستمعين ،

هو الذى جعلنا نشعر بالاتصال الوثيق به . فكان يتوقف من وقت لآخر ليرنو عن كثب الى المندوبين . وعندما كان يتكلم ، كان ثمة شعور يسيطر علينا بأنه لا يكف عن سؤالنا : هل فهمتم ؟ وهل توافقون ؟ . فكان كل منا يشعر وكأن عينى لينين مركزتان عليه » (١) .

يبين هذا الوصف كيف يرتبط العاملان المؤثران فى حجج مفهومة واضحة ، وأنه بقدر ما كانت الوسائل التى استخدمها لينين للاتصال بالمستمعين مباشرة ، بقدر ماكانت حدة شعورنا بأننا جميعا ننتمى لمجموعة « نحن » واحدة . ونتيجة لما كان يتمتع به من قدرات عالية كمثقف ، بالاضافة الى موهبته القيادية ، تمكن لينين من أن يصبح « واحدا منا » بالنسبة للعمال والفلاحين والجنود ، وهو ما يعنى ، فى خاتمة المطاف ، الثقة ، ثم الثقة بلا حدود فى نهاية الأمر .

وكما سبق ان عرفنا ، فالثقة بلا حدود والايحاء مترادفان . والثقة هى شعور وادراك للانتماء « لشىء منا » لشىء ينتمى لنفس المجموعة « نحن » .

وعلى اى الأحوال ، فالظواهر المرتبطة بالايحاء يمكن اختزالها فى مجال علم النفس الاجتماعى الى ثلاث فئات : الثقة العمياء (غير النقدية) ، والنقد وعدم الثقة ومقاومة الايحاء ، والاقناع من أجل ازالة الاعتراضات سعيا الى استرداد الثقة .

ولنرجع الآن الى المفهوم السابق ذكره للاعلام : وها هو ك. ا. شانون، مؤسس نظرية الاعلام الحديثة ، ومن ثم فهو ايضا احد مؤسسى علم الضبط (السبرانية او الاسبرناطيقا) ، ينفض يده من الانسان وخصائصه كحلقة فى اى نظام للاعلام ، وفى مرحلة تالية ، صنف علم النفس الهندسى الانسان كعنصر يستقبل الاعلام ، مع رفض السمة الاساسية له ، وهى انه مصفاة الثقة وعدم الثقة التى « تغربل » ما يجرى تبادله من معلومات بين الناس .

---

(١) م. روم ، احاديث حول السينما ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٣٦ — ٣٧ .

وهذه الصفاة تتغير وفقا للظروف التاريخية والثقافات والحضارات والجماعات .. والثقة المطلقة وانعدام الثقة المطلق هي القطبان المتضادان . **والاعلام يمكن ان يكون منافيا للحقيقة كلية ومع ذلك يتقبله الناس ، بينما هم يرفضون الحقيقة الصريحة فى بعض الاحيان**.وفيما بين هذا الموقف وذاك ، تمتد العديد من درجات الثقة التي تتطلب اشكالا مختلفة من السيطرة على الاعلام . ومما لا شك فيه أن الثقة تعادل الاستعداد لتقبل أى سخف ، واذا انتقلنا من المنطق الى مصطلحات علم النفس يمكننا القول بأن السخف هو الاستجابة الموجبة للايمان Centum est quia impossiblieest)

وكلما ازدادت المجموعة « نحن » بدائية وعزلة ، وكلما كانت أكثر نقاء ونمطية وتعبيرا محضا عن نوعها ، كلما تشكل نسيج بنيتها الداخلية من خيوط الثقة ، أى الثقة فى الكلمة المجردة لشخص ما . ولا شك أن مثل هذا الوضع يفتح الباب واسعا أمام ترويج الاعلام الزائف ، حتى وان تردى الى مستوى السخف ، والجماعات الدينية تنجذب نحو هذا النوع من المجموعات « نحن » المقفلة . واما عندما يقتحم عدم الثقة هذه الجماعة المغلقة ، فهو يوقظ الفكر ويجعل فى الامكان تنقل الاعلام بين الناس . **فالفكر ينبثق من ضرورة الاختيار بين ايحائين ، او ثقتين ، او جماعتين ، أو اكثر .**

ومن المعروف انه من الممكن توفير الظروف الملائمة لنشأة الثقة المطلقة من خلال تجارب الايحاء التى تجرى فى مجال التنويم المغناطيسى . وفى هذه الحالة يصدق الشخص الخاضع للتنويم ما يوحى اليه به حتى وان تعارض ما يصله من جهاز اشاراته الاول . ويكمن جوهر الايحاء فى هذا التناقض فى الاعلام المباشر ، لأنه لا معنى لان توحى بشيء يعرفه الموحى اليه أو يشعر به سلفا ، أو هو على استعداد لانجازه دون هذا الايحاء . وليس هناك أى دليل يشير الى قيام أى ايحاء فى هذه الحالة ، وان كان الأمر أكثر تعقيدا فى واقع الحياة . ومن الواضح أن الثقة تنبثق من موضوع الايحاء ، أو أنها تكيف بردود فعل الموحى اليه ، سيطرة ، أو شكا ، أو تفكيرا ، وبعبارة أخرى ، فحالة التنويم المغناطيسى تقضى على اى احتمال لوجود مجموعات « نحن » التى يمكن أن يطابق الشخص الخاضع للتنويم بينها وبين ذاته . واما فى حالة

اليقظة ، فالايحاء يواجه دائما بدرجة معينة من عدم الثقة ، اى بالتعديلات والمعالجة التى تستهدف التحقق مما اذا كان الموحى ينتمى الى مجموعة « هم » ام لا .

ونخلص من كل ذلك الى تعريف أقرب الى الغرابة لعملية الاقتناع من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى : **فالاقتناع هو ازالة الحاجز ، او ان شئتم ، هو ازالة الجدار الصلد الذى يحمى الشخصية من الايحاء .**

٥ ــ السـلطة

والموقف الاجتماعى ــ النفسى الذى تنقله « نحن وهم » لا يعد اطلاقا ، فى أغلب الأحيان عن مجرد علاقة خارجية بين جماعات . وانما ثمة تلاحم متبادل يتحقق . وهو لا يقتصر على تبادل الناس ، وعناصر الثقافة ، والسلع (موقف « نحن وهم ») . والبنية الداخلية للمجموعة « نحن » تنعقد نتيجة لوجود افراد داخلها يمثلون شيئا مختلفا عنها ، فى نفس الوقت الذى ينتمون فيه اليها .

وينطبق هذا القول على اى فرد داخل اى جماعة ، ولكن التحليل النظرى ينبغى أن يبدأ من موقف مضاد : فكيف يمكن أن تتشخص « هم » فى « هو »؟ وكيف يمكن أن تتشخص « نحن » فى « أنت » أو « أنا » ؟

لنتصور « نحن » و « هم » على شكل دائرتين (وقد تكون احداهما مجرد قوس) . ولنتصور بعدئذ أنهما غير متباعدتين وغير متقاطعتين فى نفس الوقت ، ولنتصور وجود تماس بينهما ، تماس فى نقطة واحدة دون سواها . هذه النقطة هى بداية جدلية العلاقة المتبادلة بين الدائرتين . **وتماما كما ان النقطة هى نقيض الخط والمسطح الذى ينطوى عليه ، فكذلك الذات المميزة (الشخصية المفردة) هى نقيض الجماعة الأولية البحتة** . انها نقطة اتصال الدائرتين التى تمثل هذا التحول لمجموعة « هم » الى « هو » . وبعبارة أخرى ، فان أحد اشخاص المجموعة « هم » لم يعد عدوا أو غريبا بالنسبة للمجموعة « نحن » . ونقطة الاتصال هى الذات المميزة (الشخصية المفردة) .

ن « هــو » الآن يدور فى فلكنا وينتمى الى جماعتنا ، فى نفس الوقت الذى لا يزال يقف فيه فى مواجهتها ، ويقدم عالم الأجناس البريطانى ج . ج . فريزر فى كتابه « الغصن الذهبى » دراسة تفصيلية مدعمة بوفرة من الحقائق المادية لشخصية من هذا النوع فى العصر البدائى (١) . **أن هذه الشخصية سجين مقدس حكم عليه بالموت ، ولكنه حظى بالتبجيل والاحترام كله ، كرئيس ، لفترة قصيرة . وكانت القبيلة تتشخص فيه ، وتمثل القطب المضـــاد له فى نفس الآن .**

وباختصار ، فتماما كما أن « هم » فى صيغة الجمع أكثر أولية من « نحن » (حيث « أنتم » هى الفئة الناتجة عن تغلغل كل منهما فى الاخرى أو تفاعلهما) فكذلك ينبغى أن تبدأ جدلية تشكيل الشخصية فى صيغة المفرد بالمقولة « هو » . وعلى أى الأحوال ، فالنقطة التى تتماس عندها الدائرتان ، ذات طبيعـــة ثنائية ، **لانها تنتمى لكلتا الدائرتين معا** . ومازال « هو » ينتمى بالضرورة الى الدائرة « هم » ، حتى ولو تداخلت هذه الأخيرة مع « نحن » . ولكن النقطة نفسها تنتمى الى الدائرة « نحن » ، ولذلك فهى أيضا « أنتم » ، فاذا امكن الاتصال بهذا الفرد المنعزل بمفرده ، واذا كان كفوا للآخرين من بعض الجوانب ، ففى هذه الحالة تتغلغل احدى الدائرتين فى الأخرى . وهذه مرحلة هامة فى تشكيل الشخصية . ومع ذلك فمازالت « انت » و « أنا » قطبين متباعدين ، بينما تحولت « هو » و « أنت » بالفعل الى وسيلة ملائمة للتحديد الاجتماعى — النفسى (أى لتحديد وضع) للسلطة ، اى رئيس الجماعة ، او زعيمها .

وليس من غير المألوف الا يكون للجماعة زعيم أو قائد . فالجماعات الهلامية الأقل تنظيما تجسد نزعتها الرافضة أو نقمتها وتعبها على شخص ما ، بدلا من أن تتخذ لها زعيما . واما فى الجماعات الاكثر ثباتا واستقرارا ، وحتى اقلها حجما ، والتى لا تتلاحم وشائجها الا بمجرد التعاطف المتبادل ، فهناك من الأدلة ما يثبت الهيمنة عليها من جانب فرد واحد من أعضائها ، بينما تحتـــاج

---

(١) انظر ج . ج . فريزر ، الغصن الذهبى ، دراسة الســـحر والدين ، لندن ، ١٩٢٤ .

الجماعات الأكبر حجما ، والتى لا يمكن لجميع أفرادها ان يرتبطوا ببعضهم البعض ارتباطا شخصيا أو حتى ان يعرفوا بعضهم بعضا ، الى اشـخاص أو هيئات للتعبير عنها كظاهرة خارجية .

ونحن نتحدث عن السلطة أو الزعيم بصيغة المفرد لمجرد التوضيح . ولكن الواقع ان هـذه الحالة القصوى لا تعـدو ان تكون مجرد نمط ذهنى مبسط . فأولا وقبل أى شىء ، فالسـلطة أو الزعيم أو الرئيس لم يكن من الناحية العملية شخصا واحدا ، بأى حال من الأحوال ، فى أعين الجمـاعة المتجانسة المتكافئة فى علاقتها بذلك الشخص . وقد تتمثل السلطة فى مجموعة من الأشخاص . ومن المناسب هنا أن نؤكد أن النظريات السياسية كانت تفرق منذ القدم بين الملكية (حكم الشخص الواحد) ، من ناحية ، والأوليجاركية أو الجمهورية (حكم عدد قل أو كثر من الأشخاص) ، من الناحية الاخرى . ومهما يكن من امر ، فالخط الفاصل بين هذين الشكلين من الحكم خط اصطلاحى الى أقصى حد ، لأن هناك أمثلة للثنائيـة (حكم الشـخصين) ، وللحكومة الثلاثية ، الخ ، وثانيا ، فالسلطات ، والزعماء ، والشخصيات المسئولة فى جماعة متطورة ومعقدة لدرجة او أخرى ، تشـكل نوعا من السلم أو الهرم الوراثى ، وهذا يعنى أن الجماعة ، ولدرجة معينـة ، تتكون من جماعات متساوية فى الرتبة على عدة مستويات . ولكن سواء كان هذا السلم أو الهرم الوراثى سياسيا ، أو دينيا ، أو من أى نوع آخر ، فزعماء كل مستوى ، باستثناء أعلى المستويات ، لا يستمدون صلاحيتهم من الجماعة ، وانما من السلطة العليا ، أى أنهم مندوبون لهذه السلطة العليا وتشخيص لها. وتتميز هذه السلطة العليا بالمفاهيم التشريعية القديمة عن السيادة والمشروعية : وجوهرها أنها تحظى بالطاعة داخل الجماعة (« نحن ») ولا تحظى بهـا خارجهـا .

والسلطة (ومنها تنبثق المكانة ، وخضوع الفرد خضوعا تاما لمصلحة الجمـاعة ، والديكتاتورية) تعقد كثـيرا من موضوع ومنهج عـلم النفس الاجتمـاعى .

وهناك جانبان لمفهوم السلطة (الزعيم ، الحاكم ، القائم بالتنفيذ) : أولهما انه لا طاعة له خارج الجماعة ، والثانى أن كلمته هى القانون داخل الجماعة . وكلا الجانبين يقوم على الايحاء .

وثمة علاقات على مستوى أدنى من مستهل الايحاء ، بينما يحتل البعض الآخر مستوى أعلى من الايحاء احادى الجانب ، اى انها تمرر عبر مصفاة النقــد .

والسلطة ، أو حامل القوة والتأثير ، محاط بعدد كبير من الاشــخاص الذين يرتبطون به بعلاقة من النوع الاول . وهذه العلاقة ليست فراغا ، وانما هى علاقة قائمة على عدم الايحاء .

وبصرف النظر عن كبر حجم الجماعة أو تواضعه (« نحن ») ، فالأعداء دائما هم الأكثر عددا . وكل جماعة منظمة تشكل نفسها أولا بعلاقة عدم ايحاء مع هذه الأغلبية الساحقة .

و « عدم الفهم » (على مختلف المستويات) نمط من أنماط هذه العلاقة . ولعل من المناسب هنا أن نتذكر أن عديدا من الزعماء والملوك والحكام كانوا من الأجانب ، وغالبا ما كانت الاسوار والجدران تفصل فصلا تاما بينهم وبين أغلبية الناس وتعزلهم داخل قصورهم وقلاعهم ومعابدهم المشيدة ، مع التفاف جيش من الحراس والأتباع والمريدين من حولهم . كانوا منعزلين عن ســائر العالم بحواجز لا سبيل الى تخطيها . ولم تكن لديهم لغة يتكلمون بها الا لغة السلاح . وكثيرا جدا ما كان الأفراد الذين يتم اختيارهم زعماء ، كنوع من الانتقاء (ما لم تكن سلطتهم وراثية) ، **أدنى من المستوى المعتاد ، بمعيار ميولهم النفسية** ، وفيما يتعلق بحسن المعاشرة ، والقــدرة على الايحاء ، والروح الاجتماعية ، وكان الراعى الشيوعى الفرنسى العظيم جان مسلييه (القرن الثالث عشر) يردد دائما **ان الملوك مجرمون ، وانهم اســوأ انواع الرجال ، وان المجتمع العقلانى الذى سيتمخض عنه المستقبل هو وحده الذى سيختار حكامه من بين اكثر الرجال قدرة ، واكثرهم حكمة .**

وعلى أى الأحوال ، فالجماعات المنظمة (ذات الزعماء) تقف دائما فى مواجهة « كل الآخرين » . وبعبارة أخرى ، فالاشخاص الذين يشكلون هذه

الجماعات ، ويطيعون زعيمهم لدرجة أو اخرى ، ويتبعونه ، ويتأثرون به ، هم الاستثناء الذى يؤكد القاعدة : انه ذلك الذى لا يطاع ، وكل ما هنالك اننا « نحن » نفعل العكس .

ووضع السلطة فى أى جماعة مفعم دائما بتناقض داخلى ، فالسلطة ، أو الزعيم ، أو الرئيس ، يتميز دائما عن سائر الناس ، والناس يعزلونه ذهنيا عن المجموعة « نحن » . ومن الناحيــة الاخرى ، فالســلطة أو الزعيم أو الرئيس ، ودائما ، مثال ينبغى أن يحتذى ونمط يتعين أن يحاكيه الجميع ، **ومن ثم فمن المحتم ان يحدد من هالة « التفرد » بمنزلة خاصة** . ويتخذ هذان الاتجاهان المتضادان العديد من الأشكال المختلفة وفقا للظروف التاريخيــة والجماعات الاجتماعية المختلفة .

واقامة السلطة أشبه بادخال جسم غير متجانس ومختلف تماما ظاهريا ، فى الجماعة ، والثقة فى هذه السلطة من جانب جميع الأعضاء الآخرين للجماعة تحث خطى التدعيم الداخلى لها فى مواجهة العالم الخارجى . ورفع أى شخص الى موقع السلطة يسمو به الى مستوى أعلى ، بلا شك ، من الجمــاعة ، وعندما يؤتمن شخص من الأشخاص ، وتضع الجماعة ثقتها فيه ، فهذا يربطه بالمجموعة « نحن » أكثر وأكثر . ومن الحالات القصوى أن تفرض السلطة قسرا على الجماعة . بل ويحدث أحيانا أن يكون حامل السلطة عدوا ، أو أجنبيا ، أو غريبا ، والحالة القصوى المقابلة هى وضع زعيم الحركة الجماهيرية (مثل العمل الواعى من جانب الطبقة العاملة أو الحركة الفلاحية التلقائية ، أو حرب التحرير) والذى يتميز بالحــرية ، والاختيار ، والثقة المطلقــة ، والطاعة الكاملة .

ويمكننا أن نسمى هذه الحالة الأخرى أرقى أشكال المكانة والسلطة ، ويقودنا ذلك ، من الناحية النظرية ، عبر خطين : محــاكاة اكبر للسلطة ، وتنامى انعدام الثقة بها .

سبق أن تحدثنا عن محاكاة السلطة عندما ينبثق من الثقة ، ففى العمل ، وفى المعارك ، وفى المجالات السياسية والفنية والعملية ، لا يفرض القائد أو

الزعيم سلطته بمجرد اصدار الأوامر وممارسة العمل القيادى ، وانما أيضا بما يراه الناس منه رؤى العين ، **بقوة المثال . ولكن تزايد انتشار « عدوى » الخصائص المميزة للسلطة فى جماعة من الجماعات تسلب هذه السلطة تفردها.** وقد يصبح الزعيم هو « الأول بين اكفاء » ، بل وقد تهبط مكانته أى أيضا الى مستوى « الكفؤ بين اكفاء » ، أى انه يذوب فى الجماعة التى تمثلت واستوعبت سماتها الخاصة التى لا تشاركها فيها أى جماعة اخرى . **ومن اجل الحيلولة دون ذلك ، ظهرت فى المجتمعات القديمة مجموعات او طوائف خاصة من الحواريين ، والمريدين ، والكهنة ، والارستقراطيين ، لم يكن لهم من شاغل الا صنع محاكاة الحاكم من جانب عامة الناس** . وكان من المحظور على أحد **ان** يراه . ورغم ذلك ، ظل الاتجاه العام نحو « التوحيد القياسى » ، أو محاكاة النمط الواحد ، يتنامى حثيثا : فبدأت الطبقات العليا من اجل تدعيم دورها الاجتماعى بالتشبث بالحقوق التى تنفرد بها السلطة الحاكمة ، ثم حذت حذوها الفئات التى تليها فى السلم الاجتماعى ، وهكذا ، **الى ان اصبح كل ما كان خاصا وتنفرد به السلطة شائعا بين الجميع** . وفى بادىء الأمر ، مثلا ، كانت الكلمة الروسية جوسودار Gosudar لا تدل الا على القيصر ، وبعد عدة قرون أصبح مصطلح ميلوستيفى جوسودار Milostivy - gosudar شائع الاستعمال بين المثقفين رغم انه لم يمتد بعد الى الفلاحين فى ذلك الحين ، كما أن الناس فى اغلب البلدان يخاطبون بعضهم البعض بلقب « السيد » . وكان على الحاكم ، من جانبه ، أن يتكيف فى بعض الأحيان مع الفئات الدنيا وان يمارس نمط حياتها العادية حتى يبدو اكثر شبها بالانسان العادى .

ويمكن لهذا الانتشار الاجتماعى أن يفضى الى تفويض السلطة وزعزعة قواعدها ، ولكن العامل الذى يفوقها ويزعزع قواعدها اكثر من سواه هو الثقة (اى الاحساس المباشر بالمجموعة « نحن ») فى سلطة جديدة من نوع ما.

ومن الخطأ الا نرى الا الجانب السالب وحده فى جميع افعال عدم الطاعة . فعدم الطاعة للسلطة هو نوع من المطالبة بالسلطة ، أو هو الحد الأدنى العملى الذى تتمثل فيه مطالبة شخص أو آخر بالسلطة .

وهكذا نصل الى ختام دراستنا للآلية الاجتماعية — النفسية للاذعان الاختيارى والثقة غير المشروطة ، ويبقى ان تلقى نظرة على الآلية المضادة — وهى تشكيل عدم الثقة ورفض الاذعان .

ويمكننا الحصول على المعلومات التى تستند الى التجربة ، والتى تسلط الأضواء على هذه الآلية على مستويات مختلفة ، ابتداء من ملاحظة مجموعات الأطفال وحتى الحركات والمواقف الاجتماعية السياسية المعقدة .

والآليات الاجتماعية النفسية للثقة وعدم الثقة ابعد ما تكون عن البساطة ، والترابط الوثيق والمحكم بينها هو المسئول عن ازدحام الحياة الاجتماعية — النفسية بالتيارات المتباينة والمتلاطمة . فالثقة وعدم الثقة تشكلان المحتوى النفسى الذى لا يتوقف عن التغير للحياة الداخلية للجماعات ، والمجتمعات . ولا شك أن اكتشاف المعايير التى يمكننا استخدامها لقياس الثقة وعدم الثقة يساهم كثيرا فى تقدم العلم . وقد يبلغ انعدام الثقة فى السلطة ، أى رفضها ، درجة من القوة بحيث يتحول الى عامل يلحم وشائج الجماعة ، أى يدعم وحدة المجموعة « نحن » .

والطبقات ، وحتى الشعوب ، تعرف عادة ، وعلى وجه الدقة ، أى السلطات تتقبل بلا تحفظ وأيها ترفض وتسحق فى مجرى الهبات الثورية والحركات الجماهيرية ، بينما يتمزق الوعى العام والفردى فى أوقات أخرى نتيجة للنزاعات الصريحة او الكامنة حول تحديد من ينتسب الى مجموعتنا « نحن » ، وحول أى المفكرين والزعماء يجسد مفهوم هذه المجموعة ، وأى شكل منها هو الذى يسلم به أعضاؤها . **وكان التساؤل فى الحركات الدينية القديمة يدور فى خاتمة المطاف حول : « بمن نكفر ؟ » . وأما السؤال الأساسى بالنسبة للمنطق والعقل فكان دائما : « بمن نؤمن ، ولماذا ؟ » .**

والايحاء هو الآلية النفسية الأكثر عمقا للدكتاتورية . وكبت المعارضة ، والتسلط الفردى ، آلية للكبح والقيادة ، تدفع بأنواع شتى من العواطف والمشاعر الى دائرة الظواهر الاجتماعية النفسية . ولكن يجب علينا الا نتصور أن السلطة ليست الا تركيزا للقوة فى قبضة فرد واحد او بضعة افراد .

وسوف نتبين اذا تناولنا هذه القضية بنظرة اكثر تعمقا ، أن السلطة ، بمعنى معين ، علاقة عكسية : **ففى التحليل الأخير ، لا يمكن لأحد ان يوحى للناس الا بما يتمشى فى مجموعه مع دينامية مطالبهم ومصالحهم ، ومع معتقداتهم وارادتهم** ، ولذلك ، ونظرا لأن السلطة تنطوى على جانب من الاستمالة النفسية ، فهى تنبثق من مجموعة او جماعة . وقد يبدو ذلك متناقضا ، **ولكن** السلطة ، او الزعيم ، لا يعدو أن يكون عبدا للمجموعة حقا كان **رؤساء الجماعات فى العصر القديم يقدسون بل ويؤلهون ، ولكن واقع الأمر انهم كانوا عبيدا للطقوس ، وكانت حريتهم الشخصية تختزل الى حد التلاشى الكامل ، ولم يكونوا افرادا وانما دمى تحرك خيوطها الحاشية المحيطة بهم ، لينفذوا الطقوس الالزامية . وهذا جانب آخر من جدلية الدكتاتورية والتسلط .**

وفى الوقت المناسب ، تنقسم الدكتاتورية الى سلطة ومعاداة للسلطة ، الى تشبث بالتقاليد وخروج على التقاليد ، الى مكانة وازدراء . ولا يجرى ذلك فى النزاع مع الخصوم فحسب ، **وانما داخليا ايضا ، وبحكم طبيعة الدكتاتورية نفسها .**

وكلما كانت السلطة مما يتعذر ازالته واقعيا واجتماعيا ، كلما تعاظم ثقلها النفسى . ويرتبط هذان الجانبان — الذاتى والموضوعى — ببعضهما البعض أوثق الارتباط . فما هو « السيد » ؟ انه سلطة لا يمكن ازالتها ، وارادتها ملزمة آليا ، وهذا يعنى ، من ناحية المبدأ ، ايحاء بلا حدود ، فالسيد تجسيد للاستمرارية وعدم القابلية للتغير . اما اذا كان من الممكن ازاحته او حلول غيره محله ، أو استقر فى يقين الناس انه يمكن ازاحته او حلول غيره محله ، فتهتز قوته النفسية ، لتخلى مكانها لآلية الاختيار : من هو الأقرب لمطابقة معايير السيد ، هو أم شخص آخر ؟

وعلى خلاف ذلك تماما ، فالديموقراطية مرادفة بالضرورة للقابلية للتغيير ، وبلا حدود . والديموقراطية تنسجم تماما مع الاتجاهات الموضوعية للحياة المعاصرة ، والاحتياجات النفسية للانسان الحديث ، بينما ترتبط الأشكال النفسية القديمة بعدم القابلية للتغيير (للسادة واصحاب السيادة) ، والتمسك بالمشروعية القائمة ، والسلطة الوراثية ، وتسلط الاسرة الواحدة ، والنزعات الارستقراطية ، والتسلسل الهرمى لشكل الحكم .

ولننتقل الآن الى الجانب النفسى لعمليات تاريخية موضوعية مثل نضال الفلاحين ضد القنانة ، فلوقت طويل ، لم يكن فى مقدرة اغلبية الفلاحين الروس ان يحلموا ، مجرد الحلم ، بامكانية زحزحة مالك الأرض من موقعه ، ومع ذلك ، وعندما دفعتهم التطورات الاجتماعية الاقتصادية دفعا الى ادراك العكس ، تمخض هذا الادراك الجديد عن انفجار نفسى تبلور فى شق عصا الطاعة . وسوف يظل اى تحليل لهذه العملية سطحيا وقاصرا اذا تغافل جانبها النفسى .

وعدم القابلية للزوال هو المسئول عن القوة النفسية الهائلة للأبوين : فلا يمكن لأحد أن يحل محلهما ، ومركزهما بالنسبة للفرد يتحدد سلفا ، مرة والى الابد ، بحكم مولد الفرد نفسه كابن لهما . ولكن هذا الوضع ليس مطلقا ، لانه يمكن ان يتغير سواء ذاتيا أو موضوعيا ، فهناك التبنى ، وهناك زوج الأم الذى يحل محل الأب وزوجة الأب التى تحل محل الأم ، وهناك اللقطاء واليتامى ، وقتلة أبائهم ، والهاربين من الأبوين ، الى غير ذلك من الاشكال التى لا نهاية لها من الانفصال بين الاطفال والأبوين . وعلى هذا النحو ، كان الزوج هو السيد الذى لاينازعه احد قبل ان يعرف الطلاق (بما فى ذلك الطلاق بحكم الأمر الواقع) . ولكن التاريخ يسجل بالفعل ان ممارسة الزوجة للزنا كانت منذ القدم جريمة تستوجب العقاب ، الأمر الذى لا ندرك منه أن رباط الزوجية كان هشا فحسب ، وانما ندرك أيضا أن ثمة معارضة نفسية كامنة لرأس الأسرة ، ومن اجل أن يصارع المرء ضد من يفرض سلطته عليه قسرا،ينبغى ان يجعله قابلا للتغيير والازاحة على الأقل ، حتى وان كان ذلك فى اطار تفكيره فحسب .

وباختصار ، فحقائق التاريخ تؤكد أن مفهوم عدم القابلية للتغيير كان دائما مزعزع الأركان ومحفوفا بالمخاطر ، ويحمل فى طياته نذير التحول المباشر للارادة الى محاولات للمراوغة والتحايل ، فى مجال الفكر ، سعيا الى التغيير .

ومن أجل تحقيق التوازن مع هذا الاتجاه ، خلق الانسان القدرة السرمدية التى لازوال لها للآلهه ، خلق كائنا بعيدا عن متناول البشر . انه هناك

فى أعالى السماء ، التى لا سبيل اليها ، حى ، خالد ، لا يموت ، وليس لو كفوا احد . **ولكن الالهة فى اغوار العصر القديم ، كانت قابلة للتغير والاحلال بمعنى معين ،** ولنسترجع تاريخ انتصارات وهزائم الآلهة فى مبحث أصل الآلهة وتحدرهم كما يرد فى الأساطير ، **فلتمعن النظر قليلا فى حقيقة تعدد الالهة .** ومهما يكن من أمر ، فمفهوم عدم القابلية لتغير سلطة عليا ، أى للزعيم أوالقائد الذى لايتبدل ، لم يتطور بالتدريج الا جنبا الى جنب مع سقوط وتحول السلطات الدنيوية . فر بالمجتمع الوسيط ، وآله الأديان العالمية فى عصرنا الراهن ، وخاصة المسيحية ، هما اللذان حققا التوازن مع تزايد حركة المؤسسات الدينوية والزعماء الدنيويين ، وقابلية هذه المؤسسات وهؤلاء الزعماء للتغيير والتبديل . **وهذا الاله هو الذى يحافظ على القاعدة التى ترتكز عليها الية الايحاء سليمة ويمنع عنها الأذى ، وهى قاعدة للايمان والثقة بشكل عام ، لأن اى سلطة دنيوية ، مهما تضاءلت حجما وسطوة ، فهى شبيهة — بشكل من الأشكال — بالقوة الالهية المتفردة السرمدية التى لا تزول . ولكن سقوط الزعماء الدنيويين كفيل بان يكتسح هذا التعويض الالهـى .**

ولا يمكن لسلطة أن تستند الى الأبد الى الآلية النفسية الأصلية للايحاء ، والزعماء والقادة الوحيدون الذين يستمرون هم الذين تتعذر ازاحتهم ، وهم :

١ — الزعماء والقادة الذين يستندون الى قوة السلاح ، الذين لم يعودوا يعتمدون على الآلية الاجتماعية النفسية وانما على القهر .

٢ — الزعماء والقادة الذين يستمدون وجودهم من القوة التى لا يمكن أن تقهر ، قوة الحقيقة والمنطق والاقناع ، والتى تعنى بالضرورة حلول الوعى والتفكير العلمى محل النزعات التسلطية والديكتاتورية .

ويتضمن الوعى والتفكير العلمى ، بالتدريج ، المعرفة التى يحصل عليها الناس بقوانين سيكولوجية الانسان .

٦ — الاغتراب ، او عزلة الفرد داخل الجماعة

ينبغى على علم النفس الاجتماعى ألا يقتصر على الأنماط ذات البنية الاجتماعية المتماثلة او المتجانسة لدرجة أو أخرى ، ولقد حطمنا نمطا من هذا النوع عندما تناولنا السلطة والدكتاتورية ، لأنها عزل لفرد عن سائر المجتمع ، والآن ، تحتم علينا هذه المرحلة من البحث أن نتناول القضية على مستوى أكثر اتساعا .

وكما سبق أن ذكرنا ، فالبيئة الاجتماعية أو الجماعة المتجانسة ، يمكنها ان تقوى وأن تدعم البواعث والأفعال . وينطبق ذلك ، من ناحية المبدأ ، على اى انفعـال ، وبالتالى على كافة الأفعال سواء جلبت للمجتمع نفعـا أو ضـررا .

ففى الحالة الأولى ، تستفيد القوانين والاتجاهات التى تمثل التقدم من هذه الآلية النفسية ، وتكتسب الآليات الأولية للسيكولوجية الاجتماعية قوة موجهة مشتركة لها قوانينها الاجتماعية والتاريخية . ويتجسد ذلك ، ضمن أشياء أخرى ، فى العمال عندما يشتركون فى اضراب ، أو فى البذل العـارم للطاقة والمألوف فى مباراة العمل الاشتراكية .

ولكن نفس الآلية النفسية يمكن أن تعرقل التغيرات التقدمية الناضجة موضوعيا ، وبعبارة أخرى ، ففعل هذه الآلية يمكن ان يواكب حركة التاريخ أو أن يجرى مضادا لحركة التاريخ .

ولسنا فى حاجة الى ايراد أمثلة خاصة تؤكد هذا الاحتمال الأخير ، فهى عديدة وواضحة على نفس النحو الذى وجدنا عليه أمثلة الفئة الأولى . وأن كان لابد من ذكر بعض الصور البارزة ، فهاهى الوحشية العنصرية ، والنزعات الدينية المتطرفة ، والاتجاهات المذهبية المتعصبة ، والظلاميـة السياسية ، او النزعة التى تسعى الى اعاقة التقدم ونشر المعرفة .

وفي ايجاز ، فالنمط النفسي يمكن أن يسهل التقدم أو أن يعرقله ، ومن الواضح أن قوة التاريخ التي لا تقهر تعرف ، في الحالة الأخيرة ، كيف تتوصل الى الوسائل التي تمزق وتكتسح كل الحواجز والسدود .

وهانحن نكتشف أن عزلة الفرد أو الشخصية (أو الجماعة المتناهية في الصغر أو الاسرة المحدودة العدد) قوة تعرقل التقدم ، أو اذا جاز القول ، هي الجانب العكسي العدوي في الجماعة .

ويقول علماء النفس البورجوازيون أن الشخصية والجماعة ، أو الفرد والجماهير ، قطبان متعارضان لأسباب يستمدونها مما وراء الطبيعة ، أي ميتافيزيقيا . وهم يكيلون المديح للنزعة الفردية ويصبون اللعنات على النزعة الجماعية . ونحن نعترض على هذه المواجهة المفتعلة بين الفرد والجماعة ، ويزداد اعتراضنا شدة لأن أي جماعة انما تتكون من أفراد ، بينما الشخصية ، بدورها ، هي نواة العلاقات الاجتماعية .

والعدمية لا مكان لها في علم الاجتماع السوفيتي عند تعرضه لمشكلة الفرد والجماعة . ولكن من الخطأ أن نتصور أن هذه المسألة من صنع علماء النفس والاجتماع في الغرب ، ومن ثم يجب أن ينأى العلم السوفيتي عن مناقشتها . فنحن لا نعتبر ما ينادون به مواجهة مطلقة . ولكن ينبغي علينا أن نصل ببحثنا الى أعماق كل من التناقضات المحددة والقابلة للتغير تاريخيا ، ونظام الظواهر النفسية الخاصة الذي يتكون من مجموع العلاقات القائمة بين الفرد والجماعة .

والحاجة قد تدفع الناس في ظروف اجتماعية تاريخية خاصة الى أن يهبوا ضد الجماعة عندما تقيدهم بالأغلال ، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لنفي الذات في الجماعة . ونفي الذات على وجه التحديد هو الذي دك معاقل الأشكال القديمة البالية من الجماعة وما تحويه من علاقات داخلية ، لتحل محلها أشكالا وعلاقات أخرى تلائم الظروف الموضوعية والمتطلبات الحيوية الجديدة .

والعلاقة التى تنشأ بين الجماعات والأفراد الذين ينعزلون بأنفسهم (بشكل أو بآخر) تزيد مما يواجهنا من تعقيدات فى هذا المجال . والأفــراد يستخدمون آليات نفسية معروفة لنا بالتفصيل ، مثل السعى لتحقيق المــكانة والنفوذ ، ورفض السلطة ، والموقف السالب من جماعة يعتبرونها ممثلة

جنب

فى مجمو

لم يعد مجرد

الى اتحاد لمهارات م

والطبيعة الاجتماعية د

من الرأسمالية ، ولكنها غيرت كثير

العمال فى الفرق ، والورش ، والمص

العمال والمؤسسات نوعية جديدة تماما ع

العمــل .

ومن الطبيعى ان هذه الاشكال من التنظيــم الم

الموضوعية للأخذ بها ، **لم تكن اثرا للاستجابات الموجبة لسيكو**

فى الجماعة ، وانما كانت سببا لها . ومن الخطأ أن نتصور أن ع

القديم كان **بطبيعته** نزاعا الى الجماعية ومن ثم مارس العمل فى جماعا

بينما كان الفلاح والحرفى فى العصور الوسطى من ذوى النزعات الفرديــة

ولم يعد العمل الجماعى الى الظهور من جديد الى ان اوشكت شمس العصر الاقطاعى على المغيب . **كان العمل الفردى قد استنفد دوره التقدمى ،** باتت قــوى الانتاج الجديدة تلح فى المطالبة بالعمل المشترك وحلول الانتاج الكبير محل الانتاج الصغير ، وليس فقط بالمعنى الاقتصادى ، وانما ايضا فيما يتعلق بتنظيم المجتمع ككل .

وانتقل اسلوب الانتاج الرأسمالى بالعمل من التعاون البسيط والصناعة اليدوية والورش الى العمل الجماعى ، وازاح الحرفى الماهر الذى يساعده عدد قليل من الصبية والمساعدين (وهو الذى قام من قبل بتوسيع دائرة الانتاج وتحسين نوعيته) ليحل محله آلاف من العمال الذين يعملون جنبا الى ، ، **لأن الفردية فى الانتاج لم تعد ثورية ، بعد ان ولى زمانها .** وفتح العمل ـات كبيرة الباب واسعا امام امكانات مغرية بلا حدود ، رغم انه نوع واحد من العمل يؤديه عديد من العمال ، وانما تحول ختلفة تشكل بنية مركبة لنظام موحد .

'لانتاج هى الشىء الوحيد الذى ورثته الاشتراكية
. ا من تنظيم العمل . فازداد التضامن بين
انع . واضفت المباراة الاشتراكية بين
ـلى التنظيم الاجتماعى لعلاقات

ـ، نضجت الضرورة
ـلوجية الفــرد
ـد العصر
ـت ،

والطوائف مثلا) ، بينما كان عبيد العصر القديم عازفين بكل وضوح عن « الزمالة » و « الحياة الأسرية » .

والغرض الوحيد من ايراد هذه الأمثلة هو أن نبين أن اساليب الانتاج المختلفة تولد وتستخدم بدائل وبنيات مختلفة من علاقات الفرد بالجماعة ، حتى فى عملية العمل التى لا غنى عنها فى أى مجتمع .

كما تبين لنا هذه الأمثلة أيضا ان عزلة الفرد ليست الا شكلا من أشكال الانفصال عن الجماعة ، أو هى الشكل المضاد للمشاركة أو النفى الذاتى للمشـــاركة .

ولننتقل الآن الى الذاكرة ، تلك الآلية الأولية لسيكولوجية الفرد » . وبالرغم من أن هذا الفصل الكلاسيكى من علم النفس سبق التعمق فيه الى أبعد الحدود ، الا انه لازال فى مقدورنا التوصل الى المزيد من الحقائق اذا تناولناه فى اطار على النفس الاجتماعى . ورغم ماقد يبـدو عليه الأمر من غرابة ، فالتركيز ينتقل الآن من التذكر الى النسيان .

ان مخ الحيوان أو الانسان لا يحتفظ بكل اثارة للخلايا العصبية المركزية والطرفية . ولابد ، من الناحية الفسيولوجية ، أن تتوافق مكانا وزمانا مع اثارة مجموعة أخرى ما من الخلايا العصبية لانتاج ارتباط زمنى جديد ، وأما اذا لم يحدث ذلك ، فهى تتبدد . ومع ذلك ، فهذا لا يعنى أن كل اثارة تم تشربها على هذا النحو تختزن فى الذاكرة النشطة ، وانما تتعرض أغلب الاثارات لعملية خاصة من النسيان تبدو من البساطة وكأنها لاتحتاج لأى تفسير . ولكن ليس هناك من دليل على أن الحيوانات ، أيضا ، تملك ملكة النسيان بهذا المعنى الانسانى المألوف . ونحن نستطيع باستخدام التنويم المغناطيسى ان ندفع انسانا الى تذكر ماتم تحويله الى دائرة الانطباعات المنسية ، مما يثبت انه ليس هناك ما يضيع بشكل مطلق . فالنسيان ليس فقدانا لشىء . ألا يعنى ذلك ان النسيان خاصية أو ملكة يتفرد الانسان الاجتماعى بامتلاكها ، أو نوع من التعامى المقصود يساعده على التعـرف على ذاته وماذا تـكون ؟ ان هذا النفى للذاكرة (أو فقدان الذاكرة) جزء من الفسيولوجيا النفسية

للانسان . ولناخذ مثال التوصل الى نوع جديد من الحركة الذاتية ، فبصرف النظر عن مدى دقة التدريب ، من المحتم أن يقع عدد معين من الأخطاء . وهنا سيسارع المحتالون المحترفون فى مجال علم النفس الى الاستناد الى هذه الحقيقة لتاكيد أن الأخطاء يمكن ن تقع حتى عند أداء حركات احسنا التدريب عليها الى حد الاتقان . ولكن هذا الهامش الطبيعى ، والحتمى والمتغير من الخطأ ، عامل نفسى هام ، وليس انهيارا نفسيا .

ولنعبر الآن عن هــذه المسالة باستخــدام مصطلحات علم النفس الاجتماعى : ان تكرار حركة من الحركات حتى تتحول الى حركة آلية لا يسيطر عليها الوعى ، عملية أشبه بالايحاء ، والايحاء ، كما سبق أن عرفنا ، يرمز الى ما وصفناه بانه المجموعة « نحن » ، أو مفهوم « نحن » فى أنقى وأقصى أشكالها . والايحاء الذاتى هو تذويت (أو اضفاء الصفة الذاتية) نفس الشيء . فالرجل الذى يتعلم حرفة من الحرف ، يطيع معلمــه بلا وعى ، ولا يمكن أن يكون فشله فى أداء العمل العضلى اللاارادى الا تعبيــرا عن رفضه للايحاء . والأمر يبدو فى ظاهره وكأن هذا الرجل « نسى » ما تعلمه ، ولكن هذا النسيان هو نواة الرفض ، انه التمرد فى أبسط أشكاله .

وفى هذا الصــــدد ، فالنسيان ملكة عقلية انسانية بحتة ، وهو يعادل انسحاب الفرد من نظام نفسى - صوتى ، من جوقة للانشاد ، من « نحن » من نوع خاص . ومن الناحية الأخرى ، فالتذكر هو التغلب على النسيان - هو الانتصار على النسيان من جانب الطبقة الثانية للكلام ، سواء كان هذا الكلام خارجيا أم داخليا . **والذاكرة الانسانية هى نفى للنفى ، هى العودة مرة أخرى ، استنادا الى قاعدة جــديدة ، الى العمل العضلى اللاارادى ورفض المؤثرات التى تشربت بهــا انسجة الجهاز العصبى المركــزى .** وينطبق ذلك بنفس الدرجة على التذكر اللاارادى والارادى ، كما ينطبق أيضا على التذكر البصرى والصوتى . واذن ، فالعلاقات الاجتماعيــة .

النفسية للايحاء ، ورفض الايحاء ، وتقبل الايحاء من جديد من خلال الاقتناع أو الوعى ، هى القاعدة الأكثر عمقا للذاكرة .

ولنترك الآن موضوع الذاكرة وننتقل الى موضوع آخر يتمثل فى ظاهرة، لاتخطئها اى عين،فى العلاقات الاجتماعية ـ النفسية،**وهى رغبة المرء فى ان يكون محبوبا** . وكمايقول ليو تولستوى،فرغبة المرء فى أن يكون مقبولا محبوبا هى رغبة طبيعته تماما ، بل لعلها اكثر الرغبات ارتباطا بطبيعة الانسان . فكيف نفسر هذه الرغبة ؟ انها التوق الى التأثير على الآخرين ، والى أن يستثمر المرء لحسابه تلك الرغبة الكامنة فى الآخرين للخضوع لأى مؤثرات أفضل . والرغبة فى أن يكون المرء محبوبا هى منافســـة من أجل الايحاء ، والسلطة ، والقوة . وهناك العديد من الطرق التى تفضى لأن يكون المرء محبوبا ، بالمنطق ، أو بالتشابه ، أو حتى بالتغاير ، والجوهر دائما هو تكوين « نحن » أولية . والشخص الذى يسعى لأن يحبه الآخرون ، يرجع من حيث أتى على الطريق التى تعود به من العزلة الى الجماعة من جديد ، وعلى اى الأحوال فربما واكب السعى نوع من التهذيب لسمات شخصية جذابة حقا ، أو الاعجاب بالذات ، أو الرضا عن النفس .

والحالة القصوى المقابلة هى اذلال الذات ، ومهما كان ذلك ضئيلا ، فهو يتضمن ذلك السعى الذى ذكرناه لأن يكون للمرء تأثير ينفع الغير ، انه الرغبة فى ان تكون لدى المرء القدرة على أن يحب الآخرين ، والذى يصفه أنطون تشيكوف بأنه حالة انسانية طبيعية .

ومن العناصر ذات الأهمية العملية الجوهرية فى علم النفس الاجتماعى، أن نلم الماما دقيقا وعميقا بتلك السلسلة من العلاقات النفسية والظواهر النفسية ـــ الفسيولوجية التى تسمى بالعواطف والأحاسيس ، والتى تجسد الروابط المتبـــادلة بين الفرد والجماعة . وهذا الالمام عنصر لا غنى عنـــه فى الوقت الراهن فيما يتعلق بالتربية الشاملة للانسان الجـــديد ، انسان

المجتمع الشيوعى . وفهم هذه الظواهر وادراك طبيعتها أمر لا غنى عنه بالنسبة للمديرين ، والقيادات الحزبية والنقابية ، والقائمين بالعمل الدعائى، والكتاب والعلماء . ولكن يجب الا يغرب عن بالنا جانبان مكملان لعلم النفس، وهما الجانب الاجتماعى والجانب الفسيولوجى ، فما من مرة نلتقى فيهـــا بالفـــرد وعواطفه الا ويمتد بحثنا بالضرورة الى القاعدة المـــادية ، أى فسيولوجيا جسم الفرد .

وفى ختام الفصـــل السابق ، توصلنا الى أن السار وغير السار ، والسرور وعدم السرور ، مقولات سيكولوجية تستند الى الجانب الاجتماعى من المسألة ، وان جذورها العميقة تكمن فى التقسيم العـــام الى « نحن » و « هم » ، أو الى ظواهر تدعم « نحن » أو تدمرها . وتنبثق الثنائيـــة فى المشاعر من الثنائية الاجتماعية ، رغم أن العمليـــات الجارية داخل الجسم ليست متناقضة بطبيعتها .

والانقسام الثنائى الشائع للمشاعر الانسانية ، مثل التعاطف والرفض، والحب والكراهية ، والشفقة والقسوة ، تدخل جميعا تحت وصف الثنائية. وهى تعبيرات واشكال مختلفة لنفس التقسيم الذى يجرى فى البيئة الانسانية الى « نحن » و « هـــم » . ولكن كلما تعمقنا فى العالم المعقد للمشـــاعر والعواطف الانسانية ، كلما شحب وضوح هذه الثنائية .

ومنذ أقدم العصور ، كان علماء النفس يقسمون العاطفة الانسانية الى ثلاث فئات : الخوف ، والحب ، والغضب ، مع أعتبار كافة المشـــاعر الأخرى فروعا لهذه الفئات الثلاث . وسوف نتناول هذه القضية فيما بعد .

أما الآن ، فلنركز دراستنا على الطرف الأقصى الآخر ، أى الجانب الفسيولوجى . وهنا نلتقى مرة أخرى بآثار وبقايا من الآلية الثنائية المرتبطة، ليس بتقسيم الظواهر الى سارة وغير سارة ، وانما الى ظواهر منشطة واخرى كابحة للجهاز العصبى المركزى .

سبق أن رأينا أن العامل فى الورشة ، والتلميذ فى الفصل ، واللاعب فى الملعب ، يبدون من النشاط ما يزيد كثيرا عما يبدونه منفردين ، وعرفنا أن هذه الحقيقة تعبر عن نبرة أعلى فسيولوجيا للجهاز العصبى المركزى . والعلم يعرف الآن كل الحقائق المتعلقة ببنية النسيج الخاص والممتد للجزء المركزى من مؤخر المخ ، وغلاف المخ ، والدماغ الأوسط ، والمنطقة الخلفية من المخ الأمامى ، والجزء الأوسط من الدماغ المختص بعملية الابصار (أو المهاد البصرى) ، وهى البنية المسئولة عن نبرة المراكز العصبية وخلايا المخ كله . ويتميز هذا الجهاز بالقدرة الفائقة على الاستجابة ، وعلى وجه الخصوص للعامل الانسانى ، و للوسط الانسانى ، جنبا الى جنب مع قدرته على الاستجابة للمؤثرات الأخرى . وتحديد نبرة الفعل عملية عامة وليست خاصة : فالبراعة ، وقوة التحمل ، والشجاعة تتزايد عندما يتم التعبير عنها « علنا » .

وكما يقول المثل : « Twoin distress Makes sorrou »

حتى الحزن ، يقل عندما تكون هناك مشاركة ، وعندما نراقب متحدثا يوجه كلامه لجمهرة من الناس ، أو ممثل أو جندى أو لاعب يقوم بالأداء بين هتافات المشجعين ، نجد أن سلوكهم يتوقف على الدرجة العامة لنشاط المخ ، وبالتالى على وجود الآخرين ، والذى يؤثر على البنية المعقدة (وربما أيضا على النوايات غير المحددة النوع للمهاد البصرى) وما يتفرع عن ذلك من تأثيرات لهذه البنية العصبية على المراكز الخاصة فى المخ التى يتم تنشيطها فى لحظة خاصة معينة .

ولكن كيف يؤثر العامل الانسانى على البنية المذكورة التى تتحكم فى نشاط المخ ؟ ان المحاكاة — أى الأثر المثير للحشد المجتمع من الناس ، وتعبيراتهم الحركية الصامتة وايماءاتهم ، بالاضافة ألى وسائل التأثير الأخرى مثل الصفيق أو أصوات الاستهجان ، وما يصدر عن هذا الحشد من كلمات

فى المقام الأول ، تلعب دور الحافز الشرطى . وعلى سبيل المثال ، فاسم الفرد حافز قوى . وفى بعض الأحيان ، يستيقظ شخص على الفور بمجرد أن ينطق باسمه ، رغم عدم استجابته بالايجاب لأى كلمات أخرى توجه اليه. وجماهير المشجعين تلهب لاعبها المفضل حماسا بالهتاف باسمه كما يمثل اسم المجموعة (القبيلة ، او الجماعة ، أو الفريق الرياضى) منشطا قويا ايضا ، ويبين تاريخ الحروب أن صيحات القتال ، بما فى ذلك الصيحات التقليدية ، لها اثرها « السام » ، انها افعال منعكسة شرطية ، وحافز بالغ القوة والتأثير على البنية المعقدة ومن ثم على غلاف المخ ، وقد يتمثل الأثر اما فى نوع خاص ومحدد من الاثارة ، أو فى نوع عام لدرجة أو أخرى ، لينتشر فى الطبقات الواقعة تحت غلاف المخ والتى تعرف بالعاطفة أوالنوبة .

ولا يقل أهمية عن ذلك ، تلك الفرضية التى يطرحها عالم الفسيولوجيا الأمريكى بريبرام والتى يذهب فيها الى وجود بنية معينة فى الجزء الأوسط من المخ تحكم توقف النشاط فور تحقيق الرغبة المستهدفة ، وهذا نوع من اجهزة « الوقف » ، قادر على أن يكبح ، جزئيا أو كليا ، نشاطا له السيادة فى لحظة معينة . ولسنا نبعد عن الصواب اذا قلنا ان الافعال ، والايماءات، والتعبيرات الصامتة بتحريك بعض العضلات ، والكلمات التى تصدر عن الحشد الملتف من الناس ، يمكن أن تلعب دورها كحوافز شرطية أيضا لهذا الجهاز ، **أن لكلمة ((لا)) قوة ميكانيكية كبرى تتشكل فى مرحلة الطفولة المبكرة.** كما تنتمى التعبيرات الدالة على الاستهجان الى نفس الفئـة من العوامل الكابحة . وأحيانا ما لا يكون الحافز التقليدى كلمة ، وانما نظرة لوم أو عتاب، أو تعبير عن الازدراء ترسمه عضلات الوجه ، أو اشارة بأصبع . وكثيرا ما تكفى مثل هذه الأفعال لتحقيق رد الفعل الكابح للجهاز العصبى المركزى.

ونحن نتعرض هنا للعواطف التى تحكم العلاقة بين الفرد والجماعة .

ومن أجل توضيح هـذه النقطة ، هيا بنا نلقى نظرة على ظاهرة هامة وهى « الخجل » .

لوقت طويل ، ظل علم النفس يتناول هذه الظاهرة كنوع من انواع الخوف ، الخوف من استهجان اشخاص معينين ، اى ، الخوف من ان ينبذ المرء خارج دائرة هؤلاء الأشخاص ، خارج « نحن » ، كعقاب له على شىء مرفوض اقترفه ، وكان أفلاطون يرى أن هناك نوعين من الخوف : الرعشة ترقبا لكارثة ، وخشية تلطيخ السمعة ، أى قول أو فعل شىء سىء ومرفوض . وهذا الأخير هو الخجل . ويعرف ارسطو الخجل بأنه الخوف من الخزى أو الاهانة كشعور يرتبط بفعل ذميم جدير بتلطيخ السمعة .

وبعبارة أخرى ، فالخجل ينبثق من فهم أو ادراك عدم تقبل الآخرين لفعل ما . وهكذا ، كان الشخص الخاضع التابع فى العصور القديمة يشعر بالحياء ، والخوف من التأنيب ، والاستهجان ، وسوء المعاملة ، فى كل اتصال تقريبا بينه وبين من هم أعلى منه منزلة .

والخوف من تقبل الآخرين للمظهر الخارجى من أقوى المشاعر ، بل مكان من المشاعر الأولية فى بعض الأحيان ، سواء تعلق ذلك بالوجه أو الملابس ، أو المظهر العام ، أو طريقة السلوك ، ويمكن للخجل أن يتحكم فى الفعل وفى الكلمة المنطوقة على السواء .

وينبثق دمغ بعض الاعمال بأنها مدعاة للخجل من نمط الحياة والتقاليد السائدة فى جماعة محدودة . فليس فى السرقة ما يدعو الى الخجل بين عصابة من اللصوص . وفى بعض العصور كانت بعض القبائل تطلب من الرجال فقط أن يستروا عوراتهم ، بينما كانت قبائل أخرى تطلب ذلك من النساء ايضا . وفى روما القديمة كانت الوصيفات يخلعن ملابسهن فى وجود الذكور من العبيد ، بينما يستبد بهن الخجل من الرجال الذين ينتمون الى نفس فئتهن الاجتماعية . وكان النبلاء والارستقراطيون يخجلون من الفقر او العمل اليدوى ، لأنه يضعهم على نفس مستوى أشخاص ينتمون لفئة ادنى . وفى روسيا قبل الثورة ، كان من غير اللائق بين الطبقات الحاكمة ان يعبر

احد عن غضبه علنا ازاء الأطفال او البالغين من نفس الفئة الاجتماعية ، وأما الكلمات الحادة ونوبات الغضب الجامح فكانت مناسبة تماما اذا ماوجهت ضد الأفتان ، والعمال ، والتابعين . وكانت الدوائر الارستقراطية المغلقة ، او « الناس المحترمين » تعتبر التمثيل مهنة مشينة ، بينما كانت الأساليب الارستقراطية تدعو الى الازدراء والخزى بين الممثلين .

وقد تتبدى أمارات الخجل نتيجة للاستهجان العام أو للمديح المفرط ، طالما ان كلا المسلكين يقطع علاقة من يوجه اليه الاستهجان او المديح بجماعته « نحن» . وانه لأمر يدعو الى الارتباك عندما نعتلى المنبر فى اجتماع عام ، أو أنتتركز علينا الأنظار ، لأن المرء يجد نفسه فى هذه الحالة هو فى مواجهة الآخرين .

وللخجل اشكال ودرجات متعددة . وهو من أنبل الوسائل التى تمارس سيطرة فائقة على السلوك الاجتماعى ، وينبثق من التشكك فى الانتماء الى المجموعة « نحن » .

وينشأ هذا الخوف من ردود أفعال فسيولوجية معينة فى الجهاز الدورى وردود أفعال مساعدة على الخروج من حالة التبلد ، وفى نفس الآن من الأعراف الاجتماعية التى استقرت وتطورت تاريخيا ، ومن الأيديولوجية . والعواطف الكئيبة والكابحة هى التى تسود فى الخجل. ولكن الخجل ليس فسيولوجيا أو أيديولوجيا فى جوهره . وانما هو آلية نفسية يسيطر المجتمع من خلالها على الأفراد . وقد يدل الخجل على تجريد شخص من الأشخاص من مكانته الاجتماعية ، أو التهديد بطرده من المجموعة « نحن » أو رفضه كعضو فيها ، ومن هنا تتضح مدى الأهمية التربوية لعلم النفس الاجتماعى .

والتفاخر ، وهو الظاهرة المضادة للخجل ، لا يقل اهمية من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى . وتستند هذه العاطفة ايضا الى أساس فسيولوجى، والى النظام الاجتماعى المتغير لريخيا . مكان فخر الصانع اليدوى بما يحققه من عمله من نتاج مصدر زهو له أمام أقرانه من العمال على مر العصور .

وهو حافز مباشر للمكانة ، كما يمثل ثمة اسلسية فى سيكولوجية العمل فى اعضاء المجتمع الشيوعى : انه الفخر بالعمل وفقا لقدرة العامل ، الى الحد الاقصى من هذه القدرة .

وأساليب اثارة الخجل او التفاخر هامة فى تربية الأطفال والبالغين ، والافراد والجماعات . كالشرف ، والطموح ، والتقدير ، والجزاء ، والشهرة ، والاستهجان ، والغيرة ، والحماس ، والتحدى عناصر هامة فى علم النفس الاجتماعى بصفة عامة ، تساعد على غرس وانتشار سمات جديدة للعمل والسلوك فى انسان المجتمع الشيوعى الجديد .

وننتقل الآن الى كلمة عن التواضع ، والذى يرتبط بكل من الخجل والتفاخر ، يكمن على مستوى مختلف عن الحياء وعدم الحياء . والتواضع يرمز لغياب اى خدش من جانب الفرد لوحدة المجموعة او اتساقها . بل وعلى العكس من ذلك ، فهو يجسد هذه الوحدة بكل دقة . والتواضع هو التخلى عن اى مطالبة بالتفرد أو السلطة ، والواقع أنه يتناقض مع السلطة ويستحق بحثا عميقا ، ومما لا شك فيه ان التواضع يلعب دورا كبيرا فى الاستعداد النفسى للانسان للتطبيق العملى للمبادىء الشيوعية لتوزيع الثروة المادية وفقا للحاجة .

وهناك عواطف تلعب دورا هاما فى العلاقات بين الافراد ، مثل الرقة ، والسخرية ، والغضب . والعاطفتان الأخيرتان من العواطف المعبرة عن الرفض ، والنبذ ، والتهديد بالعقاب . اما الضحك ، فهو بشكل عام رد فعل لخرق المعايير ومبادىء السلوك التى اصطلح عليها المجتمع ، بما فى ذلك معايير ومبادىء التفكير المنطقى ، واما اذا كان هذا الخرق لمعايير ومبادىء السلوك متعمدا أو سىء النية ، فهو يثير الغضب وليس الضحك .

والغضب قد ينتج عن معارضة اهدافنا ، أو الجحود ، او الخيانة ، أو الاهمال ، أو الاهانة . واذن فالعوامل المثيرة للغضب ترتبط بشىء خارجى ، وغريب .

والظروف الاجتماعية تعلم الناس كيف يثيرون الغضب وكيف يكبحونه. ويقدم ارسطو نظرية مطولة عن كيفية تحريض حشد من النظارة او المستمعين على الغضب . وفى بعض الأحيان ، تخلف نوبة الغضب احساسا بالحنق والحزن ، أو تتخذ فى أحيان أخرى شكل الرغبة العاجزة فى الانتقام ، والتى كثيرا ماتوجه ضـــد اشخاص ابرياء . أما الغضب المكبوت فهو الكراهية . وأما عندما يرخى له العنان ، فهو يتحول الى رغبة جامحة فى الانتقام والى ثورة عارمة .

اذن فاللوحة غنية بالألوان . والغضب ، بالضرورة ، وسيلة للارهاب والقهر ، ورد فعل لشىء وافد من « هم » فى سلوك انسان آخر ، وتكمن وراء ذلك آلية نفسية للتغيير ، أثناء نوبة الغضب ، فى النشاط الحادث على افرازات الغدد لعصاراتها فى الكائن الحى ، واثارة الفرع السمبتاوى من الجهـــاز العصبى . ولكن الأكثر اهمية بالنسبة لعلم النفس الاجتماعى ، هو ان الغضب **يمكن محاكاته ، اى تمثيله من خـــلال اعراض خارجية ، دون ان تقـــابله تحولات فسيولوجية فى الكائن الحى ، كما يمكن كبحه والسيطرة عليه رغم وجـــود التغيرات الفسيولوجية العنيفة ، وينطبق نفس الشىء على كافة العواطف الأخرى .**

وعند مرحلة معينة ، يبدو وكأن علم النفس خطى خطوة كبيرة يتجاوز بها الداروينية والمادية بنقله مسألة جوهر العواطف من التجربة العملية الى تجسيد العواطف ، نوفقا لما يذهب اليه جيمس دلانج ، فجوهر العاطفة هو تغير فى نشاط الجهاز التنفسى والقلب ، وفى العمليات المحركة للأوعية الدموية والمسببة لافراز العرق ، والتى تزداد حدتها للتغيرات المـــزاجية والتغيرات فى افرازات الغدد الصماء . وبعد فترة ، انتقلت بؤرة الاهتمام الى التغيرات فى الجهاز العصبى السمبتاوى والمهاد البصرى . ولكن علماء النفس المنتمين لهذه المدرسة ركزوا جل اهتمامهم على التغييرات التى تتبدى على الوجه وغيرها من التعبيرات القادرة على الانتقال بمجرد اعمال آلياتها . ولكن هاهى هذه المدرسة تندمج ، فى خاتمة المطاف ، بالمدرســـة

السلوكية (علم النفس بدون سيكولوجية ، والذى يتناول السلوك العملى الظاهر وحده) . فواطسون ، مثلا ، يقول : « العاطفة نمط وراثى من رد الفعل ، يتضمن تغيرات عميقة فى الآلية الجسدية ككل ، ولكن على وجه الخصوص فى الجهـاز المعوى والغدد » (١) . ويتشبث دعاة النظـرية السلوكية بوجهة نظر بيولوجية بحتة عن العواطف ، ويعتبرونها أنواعا من التكيف العصبى الجدارى للجسد مع ظروف البيئة وما يطرأ عليها من تغـيرات .

ويرجع الفضل الى عالم النفس والفسيولوجيا الفرنسى دوماس فى تحقيق ذلك التقدم الكبير والذى تمثل فى التحديد الدقيق لما هو المقصـود بالبيئة أساسا ففى نفس الوقت الذى يرى فيه دوماس ان العواطف تعبيرات ظاهرية فسيولوجية ، الا انه يركز اهتماما جوهريا على التعبير الصـامت (باعتباره وسيلة للاتصال الاجتماعى بين الناس) ، والذى يعتقد أنه كامن فى الانسان بطبيعته ، وليس فى الحيوان ، مخالفا داروين فى هذا المجال ، فالتعبير الصامت (والايحاء) ، وفقا لما يذهب اليه دوماس ، ينبثق من البيئة ، وهو وسيلة للتكيف معها ، فالانسان يكتسب من المحيطين بـه انماطا وقوالب تقليدية للتعبير عن الفرح ، والغضب ، والخوف ، والامل ، والتى يمكن أن تتفاوت ، وفقا للدائرة او الفئة الاجتماعية ، او المجموعة القومية ، وينطبق ذلك على « التعبير الصوتى » ايضا ، لأن الانسان يحاكى طريقة الغناء ، وجرس الصوت ، وحدة الكلام (والتى تؤلف جانبيه الدال والعاطفى) التى يتلقاها من معلميه ورفاقه .

وهكذا ، فالتعبير بتحريك عضلات الوجه ، والتعبير الصوتى ، هما ، وفقا لدوماس ، محاكاة لأنماط جماعية ، وحتى التعبير الصامت ، الذى ورثه الانسان عن اسلافه السابقين عملية مباشرة ، يتكيف وفقا لأنمـاط

---

(١) ج . واطسون ، علم النفس من وجهة نظر النزعة السلوكية ، فيلادلفيا ولندن ، ١٩٢٤ ، ص ٢١٥ .

متغيرة اجتماعيا من خلال التعليم والمحاكاة ، بحيث يعبر الانسان عن عواطفه ، حتى وهو فى عزلة وحده ، وكأنه يعبر عنها للآخرين ، وكما يعبر عنها الآخرون .

ولعل من المناسب ، ونحن لازلنا بصدد هذا الموضوع ، ان نشير الى ان الابحاث اللاحقة اثبتت ان **الجانب الفسيولوجى للعواطف اقل اهمية بكثير بالمقارنة بالجانب الاجتماعى النفسى**. فالعواطف تنبثق من نزاعات متعددة ومتنوعة فى النشاط العصبى . والحالات الصعبة للجهاز العصبى أو النزاعات الاجتماعية — النفسية التى لا تجد حلا ، تثير أنماطا « غير ملائمة » من ردود الانفعال فى المراكز والمناطق الواقعة تحت غلاف المخ . **ولكن مهما** كان تعدد وتنوع هذه الظواهر ، فهى أقل تنوعا من العواطف الانسانية (١) . وبعبارة اخرى ، **فالآليات الفسيولوجية الانسانية للعاطفة اقل عددا من العواطف النفسية ، ولذلك ، فلابد أن يرد تنوعها الشديد الى طبيعتها الاجتماعية .**

ولكن تنبغى الاشارة هنا الى أن دراسات دوماس حول سيكولوجية العواطف لعبت دورا كبيرا فى تأكيد تلك القدرة المتوارثة فى الانسان على التعبير عن عواطف لا تنبع من ممارسة فعلية ، ففى هذه الحالة **ينتقل مركزا الثقل الى المضمون المتمثل فى الاشارة المعبرة عن العاطفة** . وهذا النوع من العواطف التى لا تنبع من ممارسة فعلية هو الذى ينظم السلوك الاجتماعى للفرد فى علاقته بالبيئة وسلوك البيئة فى علاقتها بالفرد ، وهى التى تنظم انتماء الفرد كليا أو جزئيا للمجموعة « نحن » .

وفى هذا الجانب ، كان الانفصال عن داروين خطوة تقدمية على الطريق — فقبل دوماس ، كان التعبير الصامت وللانسان والظواهر

---

(١) أ . ر . لوريا و أ . ن . ليونتيف ، دراسة فى الاعراض الموضوعية لردود الفعل العاطفية ، أنظر مشكلات علم النفس الجديث ، موسكو ، سنة ١٩٢٦ .

المتشابهة فى سلوكه تفسر تحت تأثير افكار داروين (١) ، وفقط فى اطار نشأة الانسان من الحيوان ، وفقط فى مجرى المقارنة مع التعبيرات العاطفية للحيوان . ثم جاء دوماس ليوضح ضرورة التعبير الصامت باستخدام عضلات الوجه ، والتعبير الصوتى ، والتعبير الصامت باستخدام كافة أجزاء الجسم من وجهة نظر التفاعل الاجتماعى الانسانى فى جميع متغيراته التاريخية والثقافية .

ولكنه لم يحقق أى تقدم فيما يتعلق بالأنماط الاجتماعية أو النفسية ، واقتصر ، كما فعل جيمس ولانج قبله ، على دراسته الشكل المعبر عن العاطفة ، واعتبر أن هذا الشكل المعبر هو جوهرها ، بينما كان من الأسلم أن يفسر تجربة المشاعر والعواطف نفسها استنادا الى مظاهرها المكبوتة ، والتى تتركز حول الذات . ويلاحظ دوماس ان النماذج التى تحتذى قاعدة تقليدية للتعبير عن العواطف تنسجم مع الكياسة ، والتواضع ، والمسلك الحميد ، وأما المغلاة فى التعبير الصامت أو التعبير الصوتى فيمكن أن ينسب الى نقص التعليم ، وهى مغالاة تنتهى بالحكم على من يمارسها بالتخلف من جانب الجماعة التى يعيش بينها ، ولقد تطلبت هذه الحقائق دراسة دقيقة ، فالتعليم لا يعلمنا كيف نعبر عن عواطفنا فحسب ، وانما يعلمنا أيضا ، والى مدى بعيد جدا ، كيف نكبح هذه العواطف ، ولما كانت المشاعر الداخلية ممارسات عملية بالمعنى السيكولوجى الدقيق ، فهى لا تظهر الا بمقدار ما تواجهه انعكاساتها الخارجية من معوقات ، أو عندما يتم كبحها تماما .

والتفاعل الاجتماعى يعلم ضبط النفس والأساليب التربوية المختلفة ، ومنها اسلوب التوبيخ العلنى والمكافأة العلنية ، تغرس فى الانسان الشجاعة ، والقدرة على التحكم فى المشاعر ، والتماسك ، وعدم التأثر

---

(١) س . داروين ، التعبير عن العواطف فى الانسان والحيوان ، لندن ، ١٨٧٢ .

السريع بالأهواء ، ورباطة الجأش ، والبرود ، والتواضع ، وانصار المدارس الملتزمة ينشئون نمطا خاصا من الانسان بغرسهم الجدية والصراحة في الأطفال منذ نعومة أظافرهم ، ومنعهم من الضحك واللعب . وهنايدون داخل كل طفل صراع بين الرغبة في الاندماج مع الآخرين وما يحول دون ذلك من قيود ونجله يحتجب عن الزوار أو أي غرباء بالنسبة له بين طيات ملابس امه ، ويتلصص نظره لهذا الغريب من حين لآخر ، ثم يرتودون أي بادرة من خوف أن تردد الى اى علامة في هذا الغريب تنتمى لنفس الجماعة ، أما النظرة المباشرة للغريب ، أو تعريفه باسمه ، أو مصافحته باليد ، فلا يقوم عليها الطفل ازاء الغريب ، الا عندما يكف عن أن يكون غريبا .

ويعمد البعض أحيانا الى عدم الافصاح عن التعبيرات الخارجيـــة للعواطف امام « الآخرين » . وهذا هو التحفظ أو النفاق — ولكن التدريب المستمر طريق ينتقل بمن يسلكه من كبح التعبير الى تعطيم المشاعر ، أى الى معاناة داخليـــة ، وفي بعض الأحيـــان تؤدى السيطرة على النفس أن توجه النشاط العصبى ، استنادا الى أساليب ملتوية معقدة ، لتجعل منه شحنة خلاقة من المعاناة الداخلية المحيطة .

وعلى اى الاحوال ، فالتحفظ الخارجى البحت له اهميته ، أيضا ، بالنسبة لعلم النفس الاجتماعى ، ولما كان التحفظ نقيضا للتجاوب الصريح ، فهو يعبر عن رفض الفرد لجماعة معينة يعتبرها غريبة بالنسبة له . وكلما احس بالغربة ازاء البيئة كلما تزايد ما يبذله من جهد داخلى من اجل أن يتحفظ ، أو يتحايل ، أو يخادع . وهذه العواطف ، شأنها شأن العواطف الاخرى الى حد كبير ، تستند الى آلية فسيولوجية معينة . واذا كانت الثقة والصدق هما اللذان يعملان على ارساء معالم الاطار العام الأولى للجماعة ، فالتحفظ والنفاق يجسدان تعقد بنية الجماعة ، ويعينان رفض الفــرد لها . ومن الواضح أن هذا الجانب من الظاهرة يربطها بعلم الاجتمـــاع ،

كما أن للمؤرخ كل الحق عندما يقوم بدراسة تحفظ الجاسوس أو عـزلته الروحية أو نشاطه الخاص وفقا لقوانين علم الاجتماع .

وثمة دراسات للتحفظ والنفاق نعتمد ، في حدود معينة ، على الاساليب الفسيولوجية الكهربائية والتفاعلات الكيميائية .

ومجمل القول ، ان عدم المصداقية المعبر عنه في الكذب الصراح ، وعدم المصداقية المعبـر عنه بالصمت ، يمثـلان نوعين من العـلاقات الانسـانية ، ويجسـدان عزلة الفرد داخل الجماعة .

ويصدق عكس ذلك بالنسبة للثقة والمصداقية . وابسط التعبيرات عن الالفة بين الناس — مثل تبادل النظـرات والابتسامات — ليسـت الا رموزا لمشاعر « نحن » . وتبين ضحكة الطفل ذلك الاتصال الناشئ والمتطور مع من يحيطون به من بالغين ينتمون لنفس المجموعة « نحن » .

وهذا المناخ المحيط بالمجموعة « نحن » البحتة لا وجود له الا في المراحل المبكرة من العالم الداخلي للطفل الذي لم ينطو على نفسه بعد . **وهذا يعني ان هناك مجموعتين من المجموعات « نحن » على الأقل تتقاسمان الفرد فتوتران جهازه العصبي وتكونان هما العـلة في ظهور العواطف التي يقوم الفرد بتذويبتها فيما بعد — فالفرد ليس « نحن » المكثفة البالغة الصغر وانما هو نقطة تقاطع عدد كبير من علاقات « نحن » و « هم »** . وهو يتدبر الأمر مليا قبل أن يختار ، وتساوره الشكوك ، وهو يربط نفسـه ، أو يقترب على الأقل ، خطوة خطوة ، من مجموعة ، أو اثنين ، أو ثلاثة من المجموعات « نحن » . وهذه المحاولة ، وما قد يتعرض له في مجزاها من خطأ ، هي التي تشكل عالمه الداخلي ، بما في ذلك سماته الخاصة الداخلية ، الوعي ، التفكير ، الارادة . **ومن السليم تماما ان نقول ان وعي الفرد يزداد ارتفاعا كلما ازداد عدد المجموعات « نحن » المتنافسة داخل هذا الوعي ، أي كلما اتسعت دائرة العلاقات الاجتماعية — النفسية .**

والارادة تستمد أصولها من هذا الاختيار ، لأنها تتشكل عند موقع عميق من الشخصية ، هو نقطة التقاطع . وعلى الارادة الانسانية لا يمكن أن ينعزل عن علم النفس الاجتماعى . والخطوة الأولى فى تحليل الارادة هي دراسة العناد ورفض الطاعة الآلية ، وبالتالى دراسة المساندة (الحقيقية أو المعتمدة) التى يمكن أن يجدها الفرد من جانب جماعات أو سلطات أخرى . **والارادة تبدأ فى التشكل كفعل سالب ، فعل ينم عن عدم الطاعة ، وعدم الاذعان ، عن النفى .**

وهى لا تظهر كسعى دؤوب من أجل تحقيق أهداف موجبة يحددها الفرد لنفسه الا فى مرحلة أعلى ، أى عندما يستقر اختياره على هدف دون سواه من بين كافة الاحتمالات المتاحة ، وأخيرا ، عندما ينتهى الفرد من اختياره لهدفه انطلاقا من تفكيره المستقل دون أى تدخل لعناصر أخرى .

وعلى نفس النحو ، فسيكولوجية التفكير ترتبط ارتباطا عضويا بالسيكولوجية الاجتماعية بل وتنبع منها .

فكلما ازداد عدد المجموعات « نحن » المتقاطعة داخل الفرد ، وكلما ازداد عدد الحدود الفاصلة بين « نحن » و « هم » ، كلما تضاءلت الفرصة أمام الاندفاع والعواطف العمياء ، أو نصف الواعية ، وكلما ازدادت اهمية التفكير . ورغم تعدد هذه الجماعات المتقاطعة الا انها تشكل فى مجموعها ما يعتبره الفرد « الشعب ككل » . وعندما يرى الفرد هذه الجماعة بوضوح ، ومن خلال ما اكتسب من وعي ، فهو يكف عن التردد : فهاهو ، لأول مرة ، يجد فى متناول يده معيارا واضحا لا غموض فيه للانتقاء : انه الدليل العام ، أو بعبارة أخرى ، الدليل العلمى .

والتاريخ الذى انقضى ، لم يكن كله الا ذلك الطريق الذى أفضى الى هذا الموقف . ولكن الدليل العام مازال بعيدا جدا عن أن يسيطر على عقولنا

ومشاعر جميع الناس على الأرض ، وحتى فى عصرنا الراهن ، عصر المنجزات العلمية والتكنولوجية . ويرجع ذلك الى ان البشرية ككل ما زالت بعيدة عن اعادة تشـــكيل نظامها الاجتماعى استنادا الى قاعدة عمليـــة رشـــيدة .

والتربية الشيوعية والوعى الشيوعى يرتبطان ارتباطا لا ينفصـــم بانتصـــار النزعة الجماعية الواعية فى الانسـان ، ويمكننا تصـــور الزمالة والتآخى كعودة للفرد الى الجماعة الانسانية ليندمج ، بعد عصور من العزلة والجهود الرامية لوضـع « أنا » فى موقف التضاد والمواجهة مع « نحن » . مع « نحن » .

وسبق لنا أن تعرضنا للخطر القاتل للنزعات الفردية المطلقة ، فالانسان لا يوجد منعزلا عن المجموعات « نحن » . وحتى عندما يكتفى بالموافقة أو عدم الموافقة على منحى معين من التفكير ، فهو يشايع أو يلتحم فى نفس اللحظة مع مجموعة « نحن » تتخذ موقف الموافقة ، تعارضها مجموعة « هم » تتخذ موقف عدم الموافقة ، والعكس بالعكس ، وهذا هو الوضع الذى ستكون عليه جوانب معينة من السيكولوجية الاجتماعية للانسان ، على الارجح ، فى المجتمع الشيوعى المقبل الزاخر بالحركة والتفاعل ، وهو مجتمع لن يتصور فيه أى فرد انه يقف فى مواجهة أى فرد آخر كما سيتزايد اتجاه الجمـــاعات جميعا نحو التحول الى جماعات تتكون من أفراد يجمعهم فكر واحد . وسوف تضم الجماعة « نحن » أولئك الذين نجحوا فى أن يروا ، مثلا ، الامكانات الكامنة فى نظرية ، أو على العكس ، خطأ فى تطبيقاتها ، بينما ستضم « هم » أولئك الذين يتعين مواصلة بذل الجهد من أجل اقناعهم . وقطعا سوف تنبثق عواطف سالبة قوية من التصور الفكرى لدى البعض والذى ينتهى بهم الى عدم الفهم ، لأنه كلما قل فهم الفرد كلما ازداد اقترابا من « هم » البدائية .

ولكن هذا ، ليس الا حلما .

الفصل الرابع

علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الوراثي

١ — تاريخ الوعي :

عندما طرحنا بعض افكار لينين حول التلقائية والوعي ، في الفصل الأول ، قلنا انها لا تقع على مستويين مختلفين فحسب ، وانما ايضا على مستويين متضادين . وهكذا ينكشف امامنا النزاع الجدلي العميق بين السيكولوجية الاجتماعية والايديولوجية ، وهو نزاع يمكننا وصفه بانه انقسام في الوعي الاجتماعي ، او بعبارة اخرى ، وحدة وصراع بين الأضداد .

ولما كان الأمر كذلك ، فلابد بنا من رجعة الى الوراء لنرى ما هي التلقائية (« النزعة الغريزية » وفقا لتعبير لينين المرادف) الذي يظهر من وقت لآخر وكثيرا ، في الظواهر الاجتماعية — النفسية .

السمة المميزة للتلقائية هي غياب النقد والفهم ، والذي يتحول ، في صورته القصوى ، الى عدم وعي ، وعلم النفس الاجتماعي الماركسي لا يقتصر على دراسة الظواهر القصوى (غير الواعية ، اللاعقلانية ، اللامنطقية) في الجماهير والمجموعات من الناس ، والتي تحظى باهتمام علماء النفس في الغرب . ولكننا لا نستطيع في نفس الوقت ان نتجاهل هذه الظواهر ، لانها عنصر لا غنى عنه عند وضع نظرية لعلم النفس الاجتماعي .

ونكرر : من الخطأ ان نقيم حائطا صينيا بين الظواهر الاجتماعية النفسية التلقائية وغير الواعية من جانب ، والظواهر الاجتماعية النفسية الواعية على الجانب الآخر . ونحن لا نتفق مع المدارس المختلفة لعلم النفس الاجتماعي في الغرب التي تؤكد ان « العالمين ببواطن الأمور » فيما يتعلق بأسرار الظواهر النفسية غير الواعية ، هم الذين يمكنهم أن يسيطروا على الجماهير . وعلم النفس الاجتماعي الماركسي لا يهدف الى معارضة التركيب النفسي غير الواعي للجماعة بالتركيب النفسي الواعي للأفراد الذين تتكون منهما هذه الجماعة ، وانما يهدف الى تزويد هؤلاء الافراد بما يمكنهم من ادراك وفهم العمليات العقلية الخاصة بالجماهير ، ومجموعات وجماعات الناس .

وترى : هل ستضعف المباراة الأشتراكية لو ان كل عامل وفلاح تعرف منذ أيام المدرسة الأولى على القوانين النفسية الأولية التي تحكم حركة فريق العمل ؟ واذا كان من المسلم به انه من الأسهل على المعلم ان يغرس المعرفة والأفكار في التلاميذ وهم معا في مجموعة ، اكثر مما يفعل لو انه بذل محاولته مع كل تلميذ على حدة ، فما هو الضرر الذي يمكن ان ينجم لو انه وجه انظارهم الى الحقيقة ؟ اليس في ذلك مايغرس في الجماعة — وهي اكثر وسائل التنظيم قوة — احترام العلم الذي يدرس التركيب النفسي للانسان على نفس النحو الذي يدرس به الطب امراض الانسان ؟

ويجب الا تخشى اى مناقشة لمفهوم « اللاوعى » ، لأنه يمكننا وصف ظواهر وآليات السيكولوجية الاجتماعية ، الى حد كبير ، بأنها لا ارادية ، وغير متعمدة ، وتلقائية ، وأما ان « اللاوعى » ليس خيالا وانما هو واقع ، فمسالة يسهل فهمها حتى ولو لم تستند الا الى الحقيقة المعروفة من انه يمكن لأى شخص ان يتذكر اى شيء ، ثم ينساه ، اى يزيله من وعيه ، ثم يعود ليتذكره من جديد ، او يسترجعه من اللاوعى . ومن الواضح ان كلمة « اللاوعى » ينبغى الا تفهم بالمعنى الفرويدى الخاص . حقا ان

التحليل النفسى لفرويد يحوى عنصرا من الايمان بقوة العقل البشرى : الايمان بان « اللاوعى » فى كل انسان يمكن ان تفشى كل اسراره الى وعيه باستخدام التحليل العلمى . وبهذا المعنى ، يتعين على علم النفس الاجتماعى ايضا **ان يفسر بعض العوامل الكامنة خارج اطار الوعى** والتى تحكم السلوك الانسانى التلقائى فى المجموعة ، أو الجماعة ، من أجل التعرف على هذه العوامل ، وتقييمها ، والتنبؤ بها ، والسيطرة عليها .

ويمكننا أن نتتبع طبيعة اللاوعى والتلقائية من خلال قابلية التركيب النفسى للتغير على امتداد التاريخ ، وأما الظاهرة المضادة — أى التفكير المنطقى أو المعرفة العلمية — فهى متسقة مطردة بالضرورة فى مختلف الحضارات والثقافات التى عرفها التاريخ ، بينما محتوى المعرفة والتفكير هو وحده الذى يتغير . وعلى عكس ذلك ، يبدو عالم الظواهر النفسية الاجتماعية التلقائية اللاوعية ، أو الواقعة خارج اطار الوعى ، قابلا للتغير بلا حدود ، والى الدرجة التى تبعث على الحيرة لشدة ما هو عليه من تنوع . ان الأمر يبدو هنا وكأن الطبيعة الانسانية ليست جوهرا واحدا دون سواه ، وانما هى طبيعة لا ينضب معين لتعددها .

وقد اهتمت مدرسة اجناسى ميسرون ، عالم النفس الفرنسى الشهير ، وهى من مدارس علم النفس فى الغرب ، اهتماما عميقا بهذه القضية ، وانتهت الى القول بأن التاريخ الاجتماعى يحدث تغيرات لا تتوقف فى الطبيعة الانسانية .

ولعل أفضل شرح لهذا المفهوم هو الذى يقدمه ميرسون نفسه : « ... ويؤدى تحليل السلوك باستخدام الحقائق التاريخية الى تغيير منظور عالم النفس . وينبغى على عالم النفس ان يتعامل ، ليس مع انسان مجرد ، وانما مع انسان ينتمى الى بلد معين وزمان معين ، ومحكوم بالظروف الاجتماعية والمادية لعصره ، ويتعامل مع أناس ينتمون هم ايضا لبلد معين وزمان معين . واذن فالمجال مفتوح لاجراء الابحاث النفسية ذات الطبيعة

التاريخية . وان كان هذا المنحى يثير متاعب جديدة فى مجال علم النفس ، الا انه يفيدنا كمصدر جديد للمعرفة » (١) .

وتتركز ابحاث مدرسة علم النفس التاريخى هذه ، مدرسة ميرسون ، على دراسة الانفعال ، وانماط السلوك ، بما فى ذلك على الناس ، وتتركز على وجه الخصوص على دراسة منجزات الناس بصفتها المصدر الرئيسى للحقائق . ولكن ميرسون حريص على أن يبتعد تماما عن المادية الغوغائية ، ويؤكد أن التـــأثير المباشر لتكنيك العمل على التطور الفـــكرى ، وخاصة فى عصور ما قبل التاريخ ، لايمكن تصوره علميا .

وليس من الصدفة أن ينظر علماء النفس السوفيت بعين الاحترام الى مدرسة علم النفس التاريخى التى يقف على راسها ميرسون (٢) .

وتطبق النتائج التى توصلت اليها هذه المدرسة بنجاح فى مجال علم الأجناس وعلم الآثار (لأنها تعتبر منجزات الانسان المصدر الرئيسى فى ادراك التركيب النفسى) ، وفى دراسة التاريخ القديم ، والوسيط ، والحديث. ولكن مما يؤسف له أن ميرسون يفتقد ، فى أغلب الحالات ، النظرة العلمية عند التصدى للتاريخ ، والقوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى ، والسبب والأثر فى الحياة الاجتماعية . ولكن هناك عددا من المؤرخين الماركسيين ، منهم أ. سوبول ، يساهمون فى اصدار مجلة دورية يتولى رئاسة تحريرها ميرسون ، ولعل فى ذلك ما يشير الى الامكانية المتاحة لتحول هذه المدرسة من علم النفس الاجتماعى الى المادية التاريخية — وان كان هذا ليس الا مجرد احتمال علمى ، حتى الآن .

---

(١) ا. ميرسون ، الوظائف النفسية ، باريس ، ١٩٤٨ ، ص ١١ .

(٢) أ. م. توتوينان ، الاتجاهات التقدمية فى علم النفس التـــاريخى لاجناسى ميرسون ، المجلد ٣ ص ١١٨ — ١٢٤ من مجلة علم النفس ، ١٩٦٣ ، المؤلفات الاساسية لميرسون ومدرسة فى علم النفس التاريخى ، مجلة علم النفس ، ١٩٦٣ ، المجلد ٤ ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

وجنبا الى جنب مع أجناسى ميرسون صاحب النزعة التاريخية ، تنبغى الاشارة الى جان بير فيرنان ، وهو مؤرخ يهتم بعلم النفس الاجتماعى ، ويتخذ من بلاد اليونان القديمة موضـــوعا اساسيا لدراســـته ، وفرنان ماركسى — وقد ساعدته معرفته ببلاد اليونان القديمة على تطوير المفاهيم الاساسية للمادية التاريخية ، مع التركيز على مشكلة دور الفرد فى التاريخ — ويرى فرنان انه من الخطأ اعتبار السمة النفسية سمة ثابتة وغير قابـــلة للتغير على امتداد حياة أى فرد . فكل شىء يتغير فى الانسان مع تغير الاطار التاريخى الذى يعيش فى خضمه . « فالفرد نفسه نتاج اجتماعى ، ويمكننا أن نستخدم جميع ثمار نشاط الانسان ، وكل القيم الأدبية والمادية ، التى تظهر وتجسد الوظائف النفســـية الانسانية كمصـــادر أولية فى دراســـة السيكولوجية التاريخية لعصر من العصور ، بما فى ذلك سيكولوجيـــة العمل » (١) .

ومن المؤسف أن فيرنان يركز اهتمامه اساسا على الفرد وليس على المجتمع ، رغم أن علم النفس التاريخى ، الذى تطور أساسا بل وربما كلية فى فرنسا ، يرتبط أوثق الارتباط بعلم النفس الاجتماعى ، بل وهما تياران ينبثقان من منبع واحد .

ولنحاول الآن أن نعبر عن مفاهيم نشوء الشخصية الفـــردية ، أو الفرد ، تاريخيا ، باستخدام المصطلحات الخاصة بالنظرية العامة للجماعات النفسية .

يبدأ نشوء الشخصية الفردية بامتصاصها للعناصر القائمة فى العالم المحيط بهـــا . وكانت الشخصية الفـــردية أو الفرد فى الأصـــل منليثا (Monolyth) [وهو الحجر الضخم المفرد ويكون عادة على شكل

---

(١) يشتمل مقال ج . ج . جويلوت « التاريخ وعلم النفس » ، فى مجلة لى باسينه ، ١٩٦٥ ، العدد ١٢٤ ، على عرض مركز لمؤلفات فرنان .

عمود أو مسلة — المترجم] بالمقارنة بالشخصية الفردية أو الفرد بالمعنى المعاصر للكلمة ، ويوضح ليفى — بروهل ، فى مقال خاص ، أن فكرة الفرد فى المجتماعات البدائية كان من المستحيل فصلها عن ممتلكاته ، وحليه وأدواته ، ومسكنه ، وملابسه ، وما يملكه من أرض وحيوانات مستأنسة ، وبنفس الدرجة أيضا كان من المستحيل فصله عن بيئته الجغرافية ، أو أقاربه ، أو اسمه — فكان الاضرار بأى جزء من بيئته يعنى توجيه الطعنة الى جسمه . **وبعبارة أخرى ، كانت ((الأنا)) علـى درجة من الاتساع والشمول بلغت حد عدم الوجود** . وبمرور الوقت ، أخذت الحواجز بين الفرد والبيئة تضيق ، فظهرت ((الأنا)) (وكذلك ((هو)) و ((أنت))) . فهل كان ذلك عملية ملازمة للتطور الذاتى ؟ **كلا ، وانما هى ظاهرة ترجع الى تطور وتعقد العلاقات الانسانية ، والعلاقات المادية اساسا** : تحديد الأراضى المجاورة وما يقابل ذلك من حقوق اقتصادية ، وتكاثر الاشكال المختلفة للعداء ، وانتحال الفرد للمكونات المادية ((للأنا)) السابقة ، مثل المواهب ، والتحولات ، والاحلالات ، وكانت هذه الافعال فى العصر البدائى **داخلية فى الأساس** ، وقاصرة على المجموعات والقبائل ، ولكنها كانت ، ان جاز القول ، **تعرى جسم الفرد من كافة الحراشيف التى تغطيه** . فليس التطور الذاتى للتفكير البدائى الى تفكير حديث ، كما يزعم ليفى بروهل ، هو الذى جرد الشخصية الانسانية مما يطمسها لتقف عارية ، وانما تنامى تملك الأشياء والاستحواذ عليها بالتدريج هو الذى حقق ذلك ، وعلى نفس النحو ، كان من المحتم على أى فرد فى العصور القديمة ، ينتقل من مجموعة اعمار الى أخرى ، أو من مجموعة قبيلة الى أخرى ، ان يغير اسمه : لقد اختفت الشخصية القديمة وحلت محلها شخصية جديدة (بينما تتجسد الاستمرارية ، ان وجدت ، فى الممتلكات الشخصية القلية وحدها) . وانتهى الاندماج المتزايد بين المجموعات فى خاتمة المطاف الى اضعاف نسبى للاسم كصفة مميزة ، وغير قابلة للتحويل ، للفرد . وبالرغم من أن الانسان كان يتخلى عند بدء انهماجه فى الجماعة ، أو الزواج ، أو تحوله الى عبد ،

او الى شخص متبنى ، أو الهجرة ، عن اسمه ، ويتخلى مع اسمه ايضا عن نمط ملبسه ، وطريقته فى تصفيف شعره ، وفى آلتزين ، وعن أدواته وأسلحته ، الا ان ذاته ظلت على ما هى عليه ، او بعبارة اكثر تحديداً ، **فهذا التحرر من الخصائص المميزة الخارجية هو الذى جعل منه بالتدريج « ذاته نفسه »** . وفى مرحلة تالية ، اختزلت هوية الفرد بحيث لم تعد تعنى الا جسده العارى واستمرارية الذاكرة والوعى . **وبهذا المعنى كان العبد الكلاسيكى القديم شخصية فردية قائمة بذاتها اكثر من الانسان البدائى** . ولكن الجسد العارى ليس هو « الانا » غير القابلة للتغير ، فالانسان قد يفقد ساقيه أو يديه أو أذنيه او اجزاء اخرى من جسده ، وعندما كان ينتقل من مجموعة اجتماعية الى اخرى ، جرت العادة على خلع احدى اسنانه ، كتطهير لروحه او للتمثيل به ، على نفس النحو الذى كانت تجدع به انوف العصاة والمتمردين فى عصور لاحقة .

وعندئذ لم يعد الجسد هو السمة المميزة التى يعولّ عليها فى الحركات المعقدة بين المجموعات « نحن » و « هم » ويرفضه مفهوم نشأة الشخصية . وهكذا انتقل جوهر الشخصية الى « الانا الداخلية » ، او « المحتوى الداخلى » ، وعند هذه المرحلة فقط ، اخيرا ، اصبحت الشخصية مطابقة لذاتها نفسها ، وظهرت « أنا » الحقة ، تحيط بها هالة من الفردية والتفرد ككائن انسانى متناهى فى الصغر .

ولكن هذا الجانب الذاتى من التكوين التاريخى للشخصية يرد الى التبادل الانسانى : فالأشياء الداخلية ، المتعلقة بصميم الفرد ، والذاتية ، تنبثق من ظاهرة التكتم ، اى التخفى والتستر ، او بعبارة اخرى من الكبح المفروض على الحلقات الختامية فى سلسلة السبب — الأثر فى السلوك ، ولا يمكن لأحد ان يقف عاريا امام « هم » . وهنا يتبدى امامنا ما وصفه العالم الطبيعى ا . م . ستشينوف بانه **الفعل المنعكس المتبور او الكلام غير المنطوق** ، تتبدى امامنا الحركة الداخلية ، او التفكير . وهذا التكتم هو فى

منشئه ظاهرة اجتماعيـــة بحتة : فالفرد يعتبر الآخرين المحيطين به منتمين لمجموعة « هم » ، او هى على الأقل تراوده الشكوك بذلك ، أى أنه يشك فى ان كل من حوله اغراب مستترون . وعندما ينعزل انسـان بنفسـه ، فهو اشبه بمن ينسحب من جوقة للانشـاد ، اى من مجموعة « نحن » أولية . **وهكذا ، فتطور العالم الداخلى فى الأشخاص هو ايضا تبادل انسانى ، تبادل له اهميته الاجتماعية الكبرى ، كما انه تبادل عرضة للتطور منذ مطلع التاريخ .**

وبعد أن تتخلص الشخصية من كل ما يحيط بها من اغلفة ، تصبح وظيفتها الأساسية هى **اختيار** الأفعال . **وكبح فعل من الأفعال هو المقدمة المنطقيـــة للارادة** . ولما كانت الشخصية لاتتوقف ابدا عن اتخاذ القرارات ، بسماحها ببعض الأفعال وكبحها للبعض الآخر ، فالارادة ، اذن هى احدى الســمات المميزة للشخصية . ولكن الاختيار والقرار يعنيان ان **ثمة مرحلة من الشــك سابقة عليهما ، وهى التردد بين البـــدائل الممكنة** . واذن ، فالفـــرد ينتمى ، للحظة أو لفترة أطول من الزمن ، لمجموعتين من المجمـــوعات « نحن » ، فى نفس الوقت الذى لا يستبعد فيه احتمال أن تكون أى منهما « هم » . وهذا هو التجسيد الذاتى لما هو معروف من تداخـــل وتفاعل وامتزاج الجمـــاعات المختلفة ، وعلى نطاق متزايد الاتسـاع ، مع تقدم التاريخ . والشخصية نتاج تشكل تاريخيا الى الدرجة التى تزاوجت معها مجموعات « نحن » مختلفة ، وأصبح عليها أن تفاضل بين قيادات هذه المجموعات ، لتختار . ولكن المعادلة العكسية صحيحة أيضا ، بمعنى معين : فالمجموعات « نحن » يتزايد تداخلها كلما اخذت الشخصية فى التشكل تاريخيا . وأما فى المجتمع المغلق ، فيجرى امتزاج الجماعات على نطاق أضيق ، ومن ثم يصبح مستوى الشخصية على نفس مستوى الجماعة .

وجملة القول ، ان ما يعنى علم النفس التـــاريخى ليس هـــو تكوين الشخصية ، وانما هو **المقطع المستعرض لمراحلها المختلفة** ، والذى يســـمح بالكشف عن الخصـائص النوعية المميزة للتركيب النفسى للانسـان .

وهناك من الأدلة ما يؤكد ظهور عديد من المفاهيم ، فى هذا الصـــدد ، فى علم النفس التاريخى الفرنسى — ابتداء من ا . ديرونت الذى حاول ارساء قواعد علم نفس جمـــاعى تاريخى فرويدى ، الى د . ماندرو الذى تركزت محاولاته ، مقتفيا فى ذلك اثر لوسيان فيفر ، من أجل تقديم تصور سيكولوجى شامل للمجتمع الفرنسى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

والنقطة الوحيدة الجديرة بالاشارة هنا هى ان علماء النفس أصـــحاب التوجه التاريخى لم يكتشفوا تنوعا فحسب فى مظاهر التركيب النفسى ، وانما اكتشفوا أيضا تعددا فى اطار النوع الواحد من المظاهر . وبدا الأمر وكأن هذه المظاهر ، وعلى خلاف مظاهر التفكير العلمى والمنطقى ، لا يمكن ردها الى قاسم مشترك . وهى تسمى « ثقافة » فى بعض الأحيان ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالتمايز بين « الثقافة » و « العلم » .

والثقافة بمعناها الدقيق ليست مطابقة للسيكولوجية ، ولكننا يمكننـــا وصف السيكولوجية الاجتماعية بأنها احدى جوانب الثقافة الروحية ، أو انها تلامسها على الأقل : فالأذواق ، والعادات ، والأعراف ، والطرق التقليدية للكلام والتعبير عن العواطف ، ترتبط بالثقافة الروحية للجماعة وبسيكولوجيتها الاجتماعية ، معا ، ولهذا السبب تقدم لنا الصروح والآثار التى خلفتها الثقافة معينا لا ينضب لدراسة السيكولوجية . وبشكل عام ، فالثقافة والايديولوجية تتقاطعان مع التفكير المنطقى وتتغلغلان فيه ، من ناحية ، كما تتقاطعان أيضا مع العمليات الاجتماعية النفسية وتتغلغلان فيها ، من الناحية الاخرى .

وبناء على ذلك ، فللثقافة — من وجهة نظر المؤرخ — جانبان : أحدهما هو تطور العلم والتكنولوجيا ، وهى عملية مشتركة بالنسبة للبشرية كلها ، ترفض الانصياع للعواطف وصولا لهذا الموقف الأقصى أو ذاك ، وهى لا ترفض الجانب العاطفى للعمل العلمى الخلاق أو للأفكار الجديدة ، ولكنها تعبر عن عدم رفضها هذا باعترافها بأن **المصداقية والمنفعة لا عواطف لها ولا تنحازان** . وعلى نقيض ذلك ، فالفن ، والدين ، والأخلاق تتضمن النزعات العاطفيـــة

والانفعالية ، وتنجذب نحو الطرف الأقصى الآخر . **وبعبارة أخرى ، فالتفكير المنطقى العقلانى يعمل ضد مبدا مايعارض بطبيعته مايجرى من عمليات داخل العقل ، ويمكن للتفكير المنطقى العقلانى اما ان يخمد هذا المبدا المضاد او ان يخضعه .**

ولذلك ، فكل ما يمكننا قوله فى هذا الصدد هو أن هذا المبدأ المضـــاد لا يرتبط بمجال العاطفة فحسب ، بل وهو أشبه بالمنطق العقلانى والادراك المنطقى كمفهوم ، ان شئنا استخدام لغة الرياضيات ، **يحمل اشارة مضادة .** وهذا هو على وجه التحديد ما يعنيه علماء الأجناس بالتفكير « قبل المنطقى » ، وعلى أى الأحوال ، فهذا التعريف السالب لا يكفى ، وهـــو مشـــوب بنفس القصور الذى تشوب مصطلحات مثل « قبل الراسمالى » و « قبل الاقطاعى » التى ابتكرها المؤرخون . وينبغى علينا أن نعرف طبيعـــة هـــذه الظاهرة ، ولا نكتفى بمجرد القول بانها سابقة لظاهرة أخرى معروفة .

٣ — مشكلة التفكير قبل المنطقى

قلنا فى الفصل الثالث ان علم دراسة السيكولوجية الاجتماعية يرجـــع منابعها الفسيولوجية والسيكولوجية العميقة الى أدنى درجات الاتصـــال الاجتماعى ، اى الى آليات التأثير المتبادل بواسطة الكلام ، والتعبير الصامت، والايماء ، والتعبير عن العواطف .

ولكن هذا لا يعنى ، على أى الأحوال ، ان الآليات الأساسية للاتصال كانت تربة مثالية للتفكير المنطقى منذ بداية الزمان . ويبين تاريخ اللغات أنها تجورت وتكيفت بالتدريج من اجل أداء وظيفتها على نحو افضل فى ادراك الانسان للعالم الموضوعى . وكانت اللغة فى المراحل المبكرة غير ملائمة بعـــد لتحقيق هذا الغرض ، لأن وظيفتها الرئيسية كانت تختلف عن ذلك : كانت هى الوسيلة التى يؤثر بواسطتها الناس على بعضهم بعضا .

وفسيولوجيا النشاط العصبى الأعلى والعلاميات (علم نظم الاشارة) لم يقتحما بعد سر منشأ نظام الاشارة الثانى فى الانسان فى مجرى عملية تطوره كنوع له سماته الخاصة : اى كيف ولماذا تولدت اشارات تنتسب الى الانسان على وجه الخصوص (على شكل ايماءات ورموز) من الاشارات والايماءات التى يتعرف بها الحيوان على الأشياء . فرنين جرس بالنسبة للكلب هو اشارة تعنى تناول الطعام وتؤدى الى افراز غدده للعاب ، كما يمكن التوصل الى فعل منعكس شرطى مماثل فى الانسان ، ولكننا نجد فى هذه الحالة ان كلمة « جرس » تنتج نفس الأثر دون أن يكون هناك جرس أو رنين . واصوات الكلمات ، كقاعدة عامة ، لا علاقة لها بأصوات الجرس أو اى أدوات أخرى تدل عليها الكلمة (وتتبدد الأوهام التى تدور حول تسمية الاشياء والافعال وفقا للصوت الصادر عند نطق الكلمات الدالة عليها ، اذا قارنا بين الاسماء التى يحملها نفس الشىء فى اللغات المختلفة) .

وثمة وجهة نظر يمكن طرحها ، وان كان فى حذرة فالخصوصية المميزة لهذه الاشارات التى تنتسب للانسان وحده تتمثل فى ان أى شىء أو اى سمة حقيقية تحمل على الأقل اشارتين صوتيتين قابلتين للتبادل ، الأمر الذى يبرر تسميتها اشارات أو رموز . فهل يمكن الربط بين هذا وبين الثنائية الانسانية القديمة الممثلة فى « نحن » و « هم » ؟ الأرجح أن هذا الربط ممكن ، وان كنا لا نستطيع له تفسيرا حتى الآن .

وتنتشر وظائف الفعل المتبادل للناس على بعضهم البعض فى أقدم نظم الاشارة الانسانية . أما وظيفة الادراك فلم تظهر الا فى مرحلة تالية . والأرجح ان الفيض الزاخر المذهل من الحقائق التى جمعها علماء الأجناس حول حياة الشعوب البدائية ، والتى توصف أحيانا بأنها « التفكير قبل المنطقى » ، تقابل مرحلة عدم الانسجام النسبى بين هاتين الوظيفتين ، اى الوقت الذى كان الكلام لا يزال يمثل فيه أداة غير ملائمة أساسا للادراك والتفكير .

فما هو المعنى المتضمن فى « التفكير قبل المنطقى » عند أصحاب هـذا المصطلح ؟ ردا على هذا التساؤل يلجأ ا . دورقايم ، و ج . ج . فريز ، و ل . ليفى — بروهل والعديد غيرهم من علماء الأجناس فى الغرب ، وكذلك الأكاديمى ن . ى . مار واتباع مدرسته العديدون فى الاتحاد السـوفيتى ، الى استخدام عملية من عمليات التركيب العقلى : فالتفكير البدائى ، أو تفكير الكائنات البشرية فى المجتمع البدائى ، يتعارض جوهريا مع التفكير المنطقى للانسان المعاصر لأنه محكوم بقوانين مضادة ، ناهينا عن اختلافها ، وقـد بذلت محاولات عديدة من أجل تحديد هذه القوانين استنادا الى المواد الوصفية الوافرة المتاحة .

ولسبب غير معروف لم يتجاسر احد على القول بأن هذه القوانين هى قوانين ملكة الخيال . والأرجح ان الكلمة نفسها تتضمن التحليق فى عالم المجهول ، وهو تحليق غير محكوم بأى عامل طبيعى ، وباختصار ، كان الرأى المستقر هو اعتبار « الخيال » مناقضا « للنمط العلمى المتماسـك » ، أى القـانون .

وتركزت محاولات دورفايم لاكتشاف قوانين التفكير قبل المنطقى فى مجال السيكولوجية الاجتماعية ، وانتهى الى القول بان كل الأفكار والطقوس غير العقلانية فى المجتمع البدائى كانت تشخص الجماعة ، واذن فالأرجح أن وجود الجماعة كان يطابق « الأفكار الجماعية » ، التى كان من المحتم ، بناء على ذلك ، ان تختلف عن جميع الظواهر الطبيعية الحقيقية والممكنة منطقيا .

واما فريزر فيرى أن التفكير قبل المنطقى ينبع من القوانين السيكولوجية البحتة التى تحكم تداعى الأفكار : فالظاهرتان المتشابهتان تعتبران فى التداعى « المثلى » أو « المتشابه » ظاهرة واحدة ، حتى وان تناقض ذلك مع التجربة والفطرة السليمة ، بينما يعتبر الجزء هو الكل فى تداعى الأفكار « الذى ينتشر كالعدوى » أو « المنحاز » حيث يعتبر أحد العناصر الثانوية المكملة للظاهرة وكأنه هو الظاهرة نفسها ، وايضا بما يتجافى مع التجربة والمنطق . فهنـا تصبح الصورة ، او الظل ، أو الاسم ، مساوية للانسان الذى تنتمى اليها ،

او الذى هو صاحبها . ويؤدى ذلك الى أن الأفعال لا توجه الى الشيء نفسه ، وانما الى شيء آخر يشبهه ، او يرتبط به بعلاقة ما . ويصف فريزر ، وعديد غيره من علماء الأجناس ، ذلك بانه السحر ، بينما الأفكار المقابلة هى التفكير السحرى .

ثم جاء عالم الأجناس والفيلسوف الفرنسى ، ليفى — بروهل — ليمتد بأبحاثه الى ما هو ابعد من ذلك واشد عمقا . وهو يطرح نظرية عامة تتناول خصائص الوظائف التى يمارسها التفكير الانسانى فى المجتمعات البدائية .

ويغطى ليفى — بروهل جميع العمليات الذهنية التى تتناقض مع منطق الانسان المتحضر الحديث فى قانونه ، « قانون المشاركة » ، الذى يصف فيه التفكير البدائى بانه قبل منطقى او غامض . وهو لم يزعم ابدا ، كما يقال احيانا ، ان الانسان البدائى كان عاجزا ، بشكل عام ، عن فهم البيئة الطبيعية والتصرف بطريقة عقلانية . **ولو كان ذلك صحيحا لما تمكن هذا الانسان البدائى من تحقيق اى هدف عملى ، وبالتالى لما امكنه ان يستمر فى البقاء محافظا على نوعه .**

ويرى ليفى — بروهل ان الانسان البدائى كان يؤدى الأفعال العقلانية آليا ، على نحو يشبه الى حد كبير لاعب البلياردو عندما يصوب العصا الى الكرة ثم يضربها ، ويحسب زاوية السقوط وزاوية الانعكاس دون حتى أن يفكر فيهما . ويضيف ليفى — بروهل ان هذه المبادىء قبل المنطقية كانت هى السائدة فى التفكير . ومع ذلك فليفى — بروهل لم يكن عنصريا ، ولم يؤمن ابدا بان هذه الخصائص المميزة للتفكير فطرية ومتوارثة فى الشعوب المتخلفة ، وانما كان من رايه انها مرحلة نوعية من تطوير تاريخى .

وما أن توصل ليفى — بروهل الى هذه النتائج حتى وجد نفسه أمام مفترق طريق : فالنظرة التاريخية الحقة تحتم عليه ان يرفض المفهوم الذى لا معنى له عن « التفكير الباطنى » ، وان يحلل سيكولوجية وفسيولوجية

التفكير الانساني فى المراحل المبكرة تحليلا أكثر دقة وعمقا . ولكن هنري والون، وهو من علماء النفس الماركسيين اللبنيين والمنتمين الى المدرسة المادية ، والذى يعتبر حقا أعظم علماء النفس فى القرن العشرين ، هو الذى سار على هذا الدرب وليس ليفى — بروهل ، الذى ظل على مثاليته ، مما كلفه غاليا فى خاتمة المطاف . فهو ينادى بأن التفكير الباطنى والتفكير المنطقى ليسا مرحلتين من التطور ، وانما هما مبدآن أبديان متناقضان كامنان فى الروح الانسانية بطبيعتها ، ويقابلان الايمان والمنطق . وهو يضفى طبيعة غير تاريخية على هذين العنصرين من عناصر الابهام اللاعقلانى واللامنطقى . وفى أواخر سنى حياته ، اقدم على الاختيار الأخير (كما يتضح من المذكرات التى نشرت بعد وفاته) بين تعريفيه القديمين للتفكير البدائى : وبدلا من رفض التعريف « الباطنى » الأجوف والاستناد الى المحتوى العلمى لتعريف « ما قبل المنطقى » ، اختار ليفى — بروهل الموقف المضاد ، فتخلى عن فكرة « التفكير قبل المنطقى » ، ولم يتبق الا الجانب الباطنى الذى زعم انه كامن فى الروح الانسانية بطبيعتها ، وأنه يظهر واضحا وبكل جلاء فى الثقافات البدائية .

ولكن بالرغم من ذلك ، فلا شك أن ليفى — بروهل (الذى واصل جهود عدد من ابرز علماء الانسان) ساهم بنصيب فى اثراء الفكر العلمى ، وهذه هى المساهمة هى التى التقطها هنرى والون ليعيد صياغتها وينقيها من الشوائب المعادية للعلم ، وان لم يكن هو وحده الذى بذل جهوده فى هذا الاتجاه .

فما هى الوسائل التى ينبغى علينا استخدامها لتحليل هذه الظاهرة الغريبة ، والمتمثلة فى الكنز الذى تم اكتشافه عن طريق الملاحظة والتعميم العلميين ؟ . هناك بعض علماء الأجناس ، من أمثال فريزر ، وقيبر كانت ، وليفى — بروهل ، لم يعرفوا من هذه الوسائل الا **سيكولوجية التداعى المعاصرة** ، ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن سيكولوجية النشاط العصبى الأعلى ، وعلم اللغات ، ولا عن الفسيولوجيا النفسية للكلام ، ولكن ليس هناك من سبيل يمكن تصوره لحل هذه المعضلة الا بدراسة تكوين نظام الاشارة الثانى ، بما فى ذلك تكوين هذا النظام فى الطفل الحديث .

واما أن الاجابة على الألغاز التي يطرحها الخيال الانساني القديم مسألة ترتبط بالمشكلات اللغوية ، فهي حقيقة ادركها ماكس موللر ، مؤسس المدرسة الاسطورية ، والذي نادى بتفسير ظهور الأساطير القديمة بأنها « أمراض أصابت اللغة » . ولكن أحداً لم يفكر في ذلك الوقت في أن كلمـــة « مرض » سوف تنفجر بدورها مشـــكلات جديدة ، **لأن الأمراض محكومة هي الاخرى بقوانين مازال علينا أن نكتشفها .**

ثم جاء عالم اللغات السوفيتي الاكاديمي ن . ى . مار ، وهو على الأرجح من أبرز خلفاء ليفي — بروهل ، ليركز أبحاثه في اتجاه لم يسبقه اليه أحد من قبـــل .

وليس هناك ما يدعونا هنا الى التوقف عند مفاهيمه اللغوية ، ولكن كل ما يعنينا هو أن نؤكد أن مار لم كن يبحث عن القوانين الشكلية للغات بشكل عام ، بصرف النظر عن الزمان والمكان ، وانما كان يبحث عن العـــلاقة **بين تطور اللغات والتطور التاريخي للمجتمع ، وتطور اسلوب الانتاج في المقام الأول .** ويرى مار أن **الجانب النوعي في اللغة يتغير بتغير العصور** ، وكانت فكرة ليفي — بروهل القائلة بأن التفكير في الماضي يختلف جذريا عن التفكير المعاصر ، ومن ثم فليس من المتصور وضع نظرية عامة للتفكير ، كانت هـــذه الفكرة هي التي دفعت مار الى استخدام نفس النظرة فيما يتعلق باللغة . وبالاضافة الى ذلك ، كان مار يرى أن **جذور تحول التفكير تكمن في تحـــول جوهر اللغة والكلام .**

ولكن كل ذلك لم يكن الا حدسا وتخمينا . ولم تتوفر أي أدلة قاطعة . وبذل ، وهو الضليع في علوم اللغة والآثار ، جهودا خارقة من اجل تكديس كميات هائلة من المعرفة والفرضيات والحقائق والتخمينات في سلة واحدة . وبالرغم من أنه كان معاصرا لبافلوف ، الا انه لم يكن يعرف شيئا ، أو لا يعرف الا القليل ، عن سيكولوجية وفسيولوجية النشاط العصبي الأعلى . ولهـــذا السبب لم يتردد في استعارة آراء ليفي — بروهل غير العلمية ، وآراء عدد من الباحثين المنتسبين لمدرسته عن « سحر » و « باطنية » التفكير البدائي .

والواقع أن الصيغة الجوفاء عن الوظيفة السحرية للكلام فى حياة الانسان البدائى ومسلكه العملى لا تحوى الا مضامين سالبة فقط : **لأنه بالمعنى الذى نقصده بالتفكير فهى لا تفكير ، بينما كانت اللغة لا لغة فى تلك الأيام .**

وانتهى المنهج الذى اتبعه مار فى أبحاثه اللغوية : الى التوصل الى بعض النتائج المثيرة وان كانت مبعثرة لا يربط بينها قاسم مشترك . وأما « التحليل الباليونتولوجى » (أى التحليل المستند الى مبادىء علم الأعراق والسلالات البشرية الذى يبحث فى انسان ما قبل التاريخ — المترجم) للغات الحديثة والمعروفة تاريخيا ، وهو نوع من التحليل لا يمكن القول بأن أسسه وقواعده تكاملت بعد ، فكان من الصعب حتى بالنسبة لأقرب تلاميذ مار أن يستوعبوه .

سبق أن ذكرنا أن مفاهيم مار قوبلت بنقد حاد . ولكن هل كان النقد بناء ؟ ان هذا وحده هو ما يعنى العلم الحديث . وبعبارة أخرى هل تقدم العلم أم انتكس عن مستوى الانجازات التى توصل اليها ليفى — بروهل ومار ؟ بصراحة ، ارتد العلم خطوة الى الوراء فيما يتعلق بعلم النفس (علم النفس الوراثى وعلم النفس الاجتماعى) . والنقد غير الموضوعى لا يبدى الا المساوىء ، ونسى نقاد مار أحد المبادىء الأساسية للفلسفة الماركسية والذى يؤكد أن **دراسة طبيعة التفكير الانسانى تعنى دراسة تاريخ التفكير ، لأن طبيعة التفكير قابلة للتغير تاريخيا** . ولسنا نعنى بذلك مجرى التغير البسيط فى محتوى التفكير ، أى مجرد جمع وتراكم المعرفة ، **وانما نعنى بنية مختلفة نوعيا** ، ان لم يكن لجميع العمليات العقلية للانسان البدائى فعلى الأقل للعديد منها ، بالمقارنة بالعمليات العقلية للمنطق المعاصر .

ونظرا لما قوبلت به مفاهيم مار من نقد ، ارتد المؤرخون وعلماء الأجناس الى الفكرة السطحية المفرقة فى التبسيط ، والمعادية للتاريخ بطبيعتها ، والقائلة بأن كلمة « الدين » هى الترياق الشافى الذى يفسر كل الخصائص وكل الهراء الذى يزخر به العالم الروحى للعصور البدائية . حقا كانت ردة ، بل

هى بالاضافة الى ذلك ردة يمكن تصور جـذورها ومنابعها بالمقارنة بذلك المحتوى الهزيل حتى لمفاهيم مثل « سحر » و « باطنية » التفكير البدائى . ولكن الاستخدام الواسع لمصطلح « الدين » يطرح معضلة جديدة : **فلمـاذا يتكشف لنا المزيد والمزيد من « الدين » كلما توغلنا الى مدى أعمق فى المـاضى السحيق ، وكلمـا انتقلنا بابحاثنا من المجتمـع الطبقى الى مجتمع ما قبـل الطبقـات ؟** .

ان اى علوم تتناول « المصداقية » الكامنـة وراء المنجزات الرائعـة للسبرانية التكنيكية ، مثل المنطق ونظرية الاعلام ، والمنطق الرياضى ونظم الاشارات ، ستظل ناقصة مبتورة ما لم تساندها وتستكملها العلوم التى تتناول « اللامصداقية » . فقدرة العقل الانسانى على أن يخضع للأوهام والسخافات والتناقضات ، اى قدرته على الخضوع لما يشوه الحقيقة ، لا يمكن أن تفسر فقط بلغة السقطات الآلية لأداة التفكير ، وانما تنبع هذه القدرة من « التفكير قبل المنطقى » .

٣ ــ المستوى الأدنى للأفعال العقلية

يشير بعض علماء السبرانية الى انقطاع غريب فى الاستمرارية : لأنهم مازالوا عاجزين عن تحليل جميع المستويات الوسيطة فى التركيب النفسى ، والتى تتراوح عن الأفعال المنعكسة الشرطية فى الحيوان ، الى الوظائف العقلية العليا فى الانسان .

وها هو الأكاديمى السوفيتى ا . ن . كولموجوروف يختار عنوانا لفقرة من مقال له هذا السؤال : « لماذا الحالات القصوى فقط ؟ » . وهو يعنى بذلك ان التحليلات السبرانية الراهنة للنشاط العصبى الأعلى لا تتركز الا فى الحالتين القصويين : الأفعال المنعكسة الشرطية فى الحيوان (مع الاستفادة من هذا النشاط الأولى فى غلاف المخ لوضع برامج سطحية تعرف باسم النظـرية الرياضية للتعليم) من ناحية ، و (بمساعدة الرياضيات) العمليات المنطقية

الشكلية للعقل ، وهى أرقى وظيفة لعقل الانسان ، من الناحية الاخرى . ولكن الصور شديدة التنوع الممتدة بين هذين الطرفين — بين اشـــد أنواع الأفعال النفسية بدائية وأكثرها تعقيدا — لم تخضع بعد ، من الناحية العملية، للتحليل السبراني . وكولموجوروف لا يخفى حيرته أمام هذا الوضع ، فيقول : « ان الأفعال المنعكسة الشرطية كامنة فى جميع الفقاريات بطبيعتها ، وأما التفكير المنطقى فلم يظهر الا فى مرحلة حديثة جدا من تطور الانسان . ومع ذلك ، لم يتم حتى الآن تناول النشاط التركيبى للوعى الانسانى (بعيدا عن الأفعال المنعكسة الشرطية) الذى سبق التفكير المنطقى ، بلغة السبرانية .

وهكذا يتضح لنا جوهر المسألة بكل عمقها ، ومع ذلك ، فليس فى امكاننا أن نلقى باللائمة فى هذا الصدد على الباحثين فى مجال السبرانية . فكيف يمكنهم وصف ما لم يتم تصنيفه منهجيا وتحديد سماته المميزة من جانب العلوم المتخصصة ؟ ان الأمر غامض ومحير .

ويقسم بعض علماء النفس النشاط العصبى الأعلى فى الانسان الى ثلاثة قطاعات : (أ) فسيولوجى ، و (ب) نفسى ، و (جـ) ادراك . ورغم ما تبدو عليه المصطلحات فى هذا التقسيم من قصور فى الدلالة المحددة ، الا ان جوهر ما تهدف اليه هو تضمين مصطلح « التركيب النفسى » كل الفيض الزاخر من صور التفكير الممتدة من الأفعال المنعكسة الشرطية على مستوى جهاز الاشارة الأول ، الى التفكير العلمى المنطقى للانسان . ويصف كولموجوروف هذا التفكير العلمى المنطقى للانسان بانه « نشاط تركيبى للوعى الانسانى » يتجاوز حدود الأفعال المنعكسة الشرطية البسيطة ، ولكنه يفتقد التفكير المنطقى الشكلى . ويقال فى بعض الأحيان ان السلسلة دون المنطقية تغطى الظواهر العاطفية والارادية .

وربما كان من الأسهل اختيار مصطلحات وتعريفات قاطعة اذا تناولنا المسألة من وجهة نظر التطـور . فمن الواضـح أن الأنواع المتحجرة من الحيوانات كانت لها أفعال منعكسة شرطية قبل ظهور التفكير المنطقى للانسان

بوقت طويل : افلا يحق لنا ، اذن ، أن نفترض ان المستوى الثانى « النفس » ظهر فى شبيه الانسان ، وهو اقرب الأسلاف البيولوجيين للانسان كنوع ، قبل ظهور الانسان كنوع بوقت طويل ؟ . ا الواقع ان كولموجوروف يميل الى الاخذ بهذا المفهوم التطورى التاريخى ، ويقول : « ظهر التفكير المنطقى فى مرحلة حديثة جدا من تطور الانسان » . وأما جميع أنواع النشاط الواعى الاخرى فهو لا يعتبرها مجرد مستوى ادنى ، وانما هى « سابقة » (أى هى أشبه بالعنصر الشرطى فى القضية المنطقية — المترجم) .

ولذلك ، يصبح فى امكاننا أن نربط بين المستويات الثلاثة للنشاط العصبى الأعلى — للانسان وبين طبقات جيولوجية . والجيولوجى يرى قشرة الأرض على شكل تكوين تاريخى ، وهو ينسب كل ما يكتشفه من صخور أو تركيبات جيولوجية لفترة خاصة ومحددة فى مجرى تكوين قشرة الارض . وعلى نفس النحو ، يمكننا القول بأن المستويات والآليات المختلفة ، التى تشكل الآن نشاطا عصبيا نفسيا انسانيا موحدا ، ظهرت ، هى الاخرى ، على فترات مختلفة : ظهر بعضها فى البرمائيات والزواحف التى انقرضت منذ وقت طويل ، وظهر بعضها الآخر فى مرحلة بعد ذلك بكثير فى الانسان القرد . ولكن ، على خلاف الطبقات الجيولوجية ، كانت هذه المستويات والآليات تعدل ما سبقها من تكوينات . واستقبل الانسان ، كنوع بيولوجى ، طبقات جديدة . والمستويات النشوئية الدنيا فى الوعى الانسانى المعاصر ، وعلى خلاف الطبقات الجيولوجية ، كانت دائما عرضة للتغيير بفعل المستوى الذى يعلو كل منها — وهو **التفكير المنطقى المفاهيمى** (أى ذو علاقة بالمفاهيم او يتألف منها — المترجم) . والمستويات الثلاثة كلها مثليثية (أى منكشفة عن وحدة متراصة وتناغم كلى — المترجم) ومترابطة على النحو الذى تسبب حركة اى جزء منها حركة سائر الأجزاء . وهى لا تظهر كل على حدة ، اى منفصلة عن بعضها البعض فى طبقات اصلية ، الا فى التصور والتنميط المجردين . ومع ذلك ، ففى مقدرة عالم النفس ان يبدأ أيضا بتحليل نشوئى للتركيب النفسى

الانسانى المعاصر ، وهو تحليل تطلق عليه تسمية مثيرة حقا للصور الذهنية ، هو « البكتنولوجيا » ، أى **علم استخلاص الصور القديمة من اعماق وعينا .**

وهذا الجانب من فسيولوجية النشاط العصبى الأعلى والسيكولوجية من الصعب استيعابه وتمثله ، لأنه يتطلب درجة عالية من التجريد . ويجب على الباحث هنا أن يفكر فى الظواهر المألوفة كمتفرج ، مجردا نفسه من المفاهيم الجارية . فالمرشد الوحيد الذى نهتدى به الآن هو التفكير العلمى المجرد .

كان على المعلم دائما أن يناضل ضد **عزو الصفات البشرية لغير العاقل** ، كما كان عليه دائما ايضا أن يناضل ضد النزعات التى تذهب الى أن كل شىء واضح وبين ، اى كان عليه أن يناضل بلا توقف ضد قياس الظواهر الانسانية بالمعايير العادية ، او بالادراك الحسى المباشر . وكم وضع التمثيل مقارنة بشىء آخر ، والقول بوضوح كل شىء ، والأخذ **بنظرية التوازى** (اى القول بأن العمليات العقلية والجسدية متلازمة ، وأن احداها تتغير بتغير الاخرى دون أن يكون بين سلسلتى التغير أى علاقة سببية — المترجم) وتطبيقها على الممارسات اليومية ، من عراقيل على طريق تقدم العلم . ولكن العلم نجح فى أن يثبت ، بشكل حاسم ، أن الشمس لا تدور حول الارض ، وأن هناك كائنات دقيقة تسمى الميكروبات لا يمكن للعين المجردة أن تراها ، وأن هناك قوانين اجتماعية مستقلة عن ارادة الانسان ، **ومع توسع العلم لأبعاد الانسان بوصفه صورة مصغرة للعالم ، واكتشافه للاتساع الفائق للكون ، بل ولا نهائيته ، دفع الانسان دفعا الى ان يجرد نفسه من ابعاد جسمه كمقياس للكون .** وانتهى العلم بالانسان الى تقبل الأفكار التى لا سبيل الى اثباتها واقامة الدليل عليها اعتمادا على المشاهدة الحسية ، والتى تقوم عليها الفيزياء الكمية ونظرية النسبية . ولكن ربما كان اشق الأمور هو أن نتوصل الى درجة مماثلة من التجريد فيما يتعلق بالأعماق الدقيقة لروحنا ، حقا كانت اكتشافات بافلوف الرائدة فى مجال فسيولوجيا النشاط العصبى الأعلى خطوة جسورة على الطريق . وها هى الظواهر السلوكية التى كان يبدو انها يمكن ردها الى

عواطف « واضحة » ، ينتهى بها الأمر لأن تغلف بالغموض والطلاسم بفعل هذه العواطف « الواضحة » نفسها ، ولا ينقشع عنها هذا الغموض وهـذه الطلاسم ، لتعود الى الظهور ، الا بعد أن اصر بافلوف بكل حسم على تجاهل هذه العواطف الانسانية الذاتية . ولكن هذه الخطوة المتقدمة أرجأت الى حد ما ، التوقيت الذى استقر فيه الراى على ان تجريد بافلوف ينطبق على الحيوانات وحدها ، وانه لا يدع أى مجال لأن نطبق على الحيوانات أوجه الشبه الخارجية الخادعة للبواعث النفسية للأفعال الانسانية .

كلا ، ان العلم لا يكل ابدا من الصعود والرقى من قمة الى قمة . ولكن أصعب القمم التى أراد بلوغها هى ادراك الوعى وفهم طبيعته . ولم يحـدث أن واجه العلم مشكلة اكثر تعقيدا من ان يتغلب ، بشكل كامل ، على الذاتية الانسانية ، والنزعة الساذجة لغرو الصفات البشرية الى غـير العاقل ، وخاصة على الآلهة .

ولهذا السبب فالمعضلات النفسية ليس لها من حل الا بالتغلب على عقبة تلو اخرى ، الا بالتغلب على الآراء الدارجة ، واعمال العقل الى اقصى حد . وانه لتجريد صعب حقا ان نستنتج انه لابد وان كانت هناك حلقـة وسيطة — هى الآن جزء من النشاط النفسى العقلانى للانسان — بين النشاط العصبى الأعلى للقردة والتفكير العقلانى للانسان المعاصر .

وتنبثق هذه الحلقة من الخصائص المميزة للنشـاط العصبى الأعلى للكائن المسمى سلف الانسان أو انسان نياندرتال (انسان ما قبل التاريخ) والذى يحدد سلوكه الجنسى موقعه بين القرد والانسان الحديث .

وتثبت الادلة المستمدة من الجماجم المتحجرة ، أن بنية المخ الذى كانت تضمه تفتقد « قليلا » ما يمثل المناطق الانسانية على وجه الخصوص فى غلاف المخ . ومازال من الاسئلة الحيوية المطروحة حتى الآن ان نحدد ما اذا كانت « قليلا » هذه هى التى يمكننا الاستناد اليها للقول بامكانية ممارسة المـخ

الانسانى للوظائف العقلية الأعلى . ومما يجافى المنطق أن نتصور أن هـذه البنيات الصغيرة فى الانسان كانت نوعا من انواع الترف أو التزود الذى لاغناء عنه . انها ليست ملحقات يمكن الاستغناء عنهـا ولا هى نمو طرفى يمـكن الاستغناء عنه . وكم تؤدى ازالتها أو تدميرها الى مآس وأنواع من الفشل المنجع . **ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لانسان ما قبل التاريخ ، لأن اداته السلوكية صممت وفقا لخطوط مختلفة جوهريا .**

وكان من الممكن للنقد الذى يوجه للفرويدية فى الكتابات السوفيتية فى مجال علم النفس ، بما فى ذلك علم النفس العرقى ، أن يكون أكثر فعالية لو أن هذا الفهم الممعن فى الاعتماد على تفسير السلوك بالبواعث الجنسـية طبق على الظواهر التى ذكرناها ، ولأمكن للدراسات التى قام بها المحللون النفسيون أن تنتهى الى تفسيرات مختلفة لو انهم انتقلوا بأبحاثهم الى الاطار التطورى التجريبى الآتى : الميول المكبوتة بواسطة التركيب النفسى للانسان ، او الغريزة الجنسية عالية التطور ، **هى بقايا ما كان قاعدة سلوكية فى سلفنا ، انسان ما قبل التاريخ** (انسان نياندرتال بالمعنى الواسع للكلمة) ، والتى بدونها ، فى بيئته الخاصة ، كان لابد له أن يغامر بالفشل فى المحافظة على نوعه . **والانتقاء الطبيعى لم يدمر كل الميراث المنتقل من سلف الانسان ، انسان ما قبل التاريخ ، نظرا لسرعة تحوله الى الانسان الحديث . واذا سلمنا بهذه الفرضية ، فسوف تبـدو ضرورة ابطال أو تسـامى ميراث انسـان النياندرتال اكثر عقلانية واستنادا الى المبرر التاريخى .**

وهكذا ، فالتركيب النفسى الانسانى الحقيقى — يشمل طبقات قديمة وأخرى جديدة ، أشبه ما تكون بقشرة الارض ، مع فارق محدد ، وهى أنهـا ليست مجرد طبقات مرصوصة الواحدة فوق الاخرى ، وانما هى طبقـات متداخلة متشابكة فى تفاعل معقد ، **واذن « فاللاوعى » ، ايضا ، يمكن تفسيره بانه طبقة مقابلة لمستوى التركيب النفسى لانسان ما قبل التاريخ .**

والفرويديون يسمون « البوابة » الموصلة من اللاوعى الى الوعى بما قبل الوعى . وهذا قول يحتاج الى اعادة التقييم والدراسة وليس الرفض .

فالبوابة هى بؤرة التفكير « الرمزى » : أى استبدال وتحديد هوية الأشياء المختلفة ، وتحويلها الى بعضها البعض فى الخيال . وليس من العسير أن نتعرف هنا على مرحلة « الأزواج » القديمة التى حدثنا عنها والون ، مرحلة الارتباطات الثنائية ، وهى أبعد المراحل عن المحتوى الواقعى ، ومن الممكن أن تكون هذه المرحلة هى التى يمكن القول بأنها توازى الخطوات الأولى فى تطور التركيب النفسى لنوعنا ، الانسان .

وكان لوالون كل الحق فى أن يتساءل : اذا كان « الزوج » من الشكل الأولى للتفكير يقابل مراحله البدائية ، افلا يقتضى ذلك أن يوجد أيضا فى تفكير وكلام أكثر الحضارات الانسانية تأخرا ؟ و والون لا يعنى بذلك قطعا الانسان المتحجر الذى وجدت بقاياه فى الكهوف ، لأن أبحاثه لا تدور الا فى اطار علم الاجناس . وهو يستند على وجه الخصوص على ملاحظات لينهارت عن انسان نيوكاليدونيا . ولهذه الملاحظات أهمية كبرى بالنسبة لموضوعنا وبالنسبة للمشكلة الأساسية فى علم النفس الاجتماعى ، لأن لينهارت اكتشف فى لغة وتفكير سكان نيو كاليدونيا العديد من بقايا كل من « الأفكار الثنائية » والاشكال اللغوية النحوية التى تجسد ، من وجهة نظره ، ما يسمى التنظيم الثنائى للمجتمع .

ويهمنا أن نذكر هنا ان علم الأجناس السوفيتى توصل الى فكرة التنظيم الثنائى ، اى أن القبيلة كانت تتكون من عشيرتين أو مجموعتين متعارضتين ، وهى أكثر المراحل ايغالا فى القدم للنظام الشيوعى البدائى . ويقدم ا . م . زولوتاريف شرحا مفصلا وشاملا لهذا الرأى فى دراسته الاساسية .

كما يمكننا أن نعتبر التنظيم الثنائى أبسط نمط اجتماعى ، وأكثرها دلالة وقدما ، لما نعرفه ، كجنس ، بالجماعة « هم » والجماعة « نحن » .

وهكذا نرى أن الابحاث التى تجرى فى اطار أكثر طبقات التركيب النفسى للانسان قدما ، تكشف عن وجود هذه المقولة الأولية لعلم النفس الاجتماعى .

ووالون ، وبالرغم من انه يتلمس طريقه وهو معصوب العينين بحثا عن تفسير تاريخى واجتماعى نفسى لهذه الظاهرة المميزة للتفكير فى طفولته ، يحقق تقدما واضحا فى هذا الاتجاه ، ويقول : « وهذه الأفكار غير المتمايزة ،

---

(١) ا . م . زولوتاريف ، النظام القبلى والاساطير البدائية ، موسكو ، منشورات ناوكا ، ١٩٦٤ .

وحيث يتعايش مصطلحان معا ، والتى تتسم بالاختلاط وامكانية التفرقة بينها فى تزامن واحد ، هذه الوحدات — الازواج ، الى جانب سيادة « النظام الثنائى للعد اللفظى (فى الشعوب البدائية — المؤلف) ، يذكرنا بالأزواج التى تعوق الفكر فى طفولته الى أن يتمكن من صياغة تفسير محدد للمصطلحات . أفلا يوحى ذلك بوجود اتجاه ينزع الى استخدام التركيبات الثنائية ، وهى مظهر اولى للفكر فى طفولته ، كخطوة اولية للخروج من الخلط والتشويش العام والاتجاه نحو التمييز المحدد والادراك الحسى للعلاقات المتبادلة ؟ وتكفى هنا مجرد الاشارة لهذا التشابه الى أن يفسر الباحثون فى مجال اسلاف الانسان واللغات القديمة هذه الأزواج التى امكن اكتشافها فى المظاهر المختلفة للتفكير الجماعى (١) .

فماذا يقدم لنا والون حتى نتمكن من التغلغل فى طبيعة التفكير الجماعى ؟ انه يقدم أكثر اكتشافاته اهمية ، وهو ان الفكر فى طفولته يخضع منذ البداية لقانون « الأزواج » او التركيبات الثنائية ، والذى سبق شرحه فى الفصل السابق . يقول والون : « ورغم أن الافعال الذهنية من خلال الازواج تفتقد المطاوعة فى العلاقة بالواقع ، الا انها عالية الفعالية فى الأطفال ، وان كانت غالبا ما تصيبهم بالارتباك » (٢) .

وترجع التركيبات الثنائية فى البالغين المتخلفين او المصابين بالأمراض النفسية او العقلية اما الى تماثل أصوات الكلمات أو الى سمة من السمات المتعلقة بدلالات الالفاظ (تماثلا أو تضادا) . ويدعم والون ابحاثه استنادا الى تواريخ الحالات النفسية المرضية ، فيقول : « اذا كان الزوج هو البنية الأولية لتفكير الطفل ، والذى لازال يلعب ، بلا شك ، دورا فى تفكير البالغ (مهما كان دورا خاضعا وثانويا وللدرجة التى قد يلاحظها أحد) ، فهناك من الأسباب ما يدعونا الى أن نتوقع عودته الى الظهور فى بعض النكسات أو حالات الانفصام الوظيفية .

والمصابون بالامراض العقلية يبدون أحيانا وكأنهم يرفهون عن انفسهم بالاجابة على ما يوجه اليهم من كلام باستخدام كلمة تجعل كلامهم غامضا ،

---

(١) هـ . والون ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

شاذا ، وغريبا ، وان كانت ليست بعيدة عن الموضوع كل البعد (١) .

ويقول والون انهم سواء كانوا يفعلون ذلك من عمد أو من غير عمد ، فهذه الالية قابلة للتفسير ، لانها شبيهة بالية التفكير في طفولته .

وكان والون يجرى دراساته وابحاثه اساسا على اطفال في السادسة والسابعة من عمرهم ، ولكن الاعمال الذهنية من خلال التركيبات الثنائية تبدأ قبل ذلك . ومن المنطقى أن نتصور انه كلما ازداد عمق مرحلة (أ) التطور النفسي للطفل ، و (ب) تردى نفسية المريض بمرض عقلى ، و (جـ) نشوء التفكير في الانسان الفرد ، كلما قل خضوعها للتداعيات الصوتية او اللغوية ، بل ويمكن في الحالات المتطرفة أن تكون اقل العناصر اعتمادا على التداعيات المختلفة . ومع ذلك فمازال التركيب النفسي للانسان المتحضر يحتفظ بهذه الظاهرة ، مهما كانت ضئيلة شاحبة . ولا شك أنها واضحة تماما في بعض الاشخاص . يقول اندريه جيد : « وهل يمكن أن يكون هناك ما هو اشد ازعاجا من ذلك الهوس الذى يستبد ببعض الكتاب ، الذين ما أن يقع بصرهم على شىء من الأشياء ، حتى يعجزوا عن مقاومة التفكير في شىء آخر » .

وموضوع التركيبات الثنائية لا يغطى الكلمات والأفكار وحدها ، وانما يغطى أيضا الأفعال ، بما في ذلك الأفعال البيانية مثل تغيير طبقة الصوت وتشكيل أشياء حقيقية وفقا لأنماط خيالية .

واذا نحن ناقشنا التركيبات الثنائية في هذا الاطار الأوسع ، فسوف نجد أنها تكمن في جذر الخيال والنشاط الابداعى . وطالما ان الاشياء لا يتم ربطها بطريقة تعسفية في افكار معممة ، او في نظم وسلاسل مصنفة ، فالتركيب الثنائى يسمح باستخدامها بلا حدود : سواء بربط ما هو غير مرتبط واقعيا ، في زوج ، أو شطر ما هو وحدة متكاملة في الواقع . وكلما تقادمت مرحلة تطور التفكير ، كلما قل التحكم في التركيبات الثنائية بالمقارنة بما يجرى في وقتنا الراهن من تكوين أزواج من الصور البصرية والعقلية . وكلما اوغلنا في التاريخ الى الوراء ، كلما قلت الاتحادات الثنائية التى تجسد الواقع حقا ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

واذا حدث ذلك فهو لا يحدث الا بمحض الصدفة ، بينما تنتمى سائر الاتحادات الثنائية إلى عالم الخيال .

وفيما يلى بعض الأدوات النموذجية المستخدمة فى عملية التخيل : الربط العقلى (او الجى) بين السمات المميزة لأشياء مختلفة ، وصياغة نسخ للأشياء بتصور او ابداع انماط مصطنعة ، واقامة (عقليا او من خلال افعال) علاقة ، لا وجود لها ، بين اشياء ، وتحويل (عقليا أو تصويريا) بعض سمات الاشياء الى أشياء مستقلة قائمة بذاتها .

وعلم النفس يفرق بين الخيال الفردى ، أى المتمثل فى الخيال شديد التقلب ، أو العابر ، أو الثابت وما ينجم عنها من ابداعات فردية ، وبين افعال التخيل التى ليست فردية وليست حرة ، ولكنها تجرى بحكم العادة ، وتتكرر وتعود صورتها الى العقل فى بيئة اجتماعية معينة ، وهى التى يسميها علماء الأجناس « الأفكار الجماعية » .

واذن ، فأينما قلبنا النظر فى موضوع التفكير قبل المنطقى ، فلابد أن نتطرق الى آلية الاتحادات الثنائية ومن ثم الى التخيل . والتخيل لا وجود له على الاطلاق فى الحيوانات ، أى لا وجود له فى النشاط العصبى الأعلى على مستوى نظام الاشارة الأول . ومع تقدم الحضارة ، والتطور التاريخى للتفكير ، يوجه الخيال الطائش والذى لا سيطرة عليه لينطلق عبر قنوات ضيقة هى وحدها التى يباح له الانطلاق عبرها . **ولكن لهذا السبب على وجه التحديد ، يصبح الخيال مبدعا وبناء .**

ولهذا السبب أيضا ، ترتبط دراسة تاريخ الصدام بين الخيال قبل المنطقى والتفكير المنطقى ، بالمشكلات التكنيكية . والعاملون فى مجال السبرانية يجزمون بأن المبدأ الفعال فى آلة « التفكير » هو الانتقاء . وينهج تطور قوانين التفكير المنطقى نفس الطريق : انتقاء عدد قليل من بين الحشد الزاخر من الاتحادات الثنائية . ولكن يبدو أن السبرانية وصلت الى النقطة التى أصبحت نحتاج معها الى معرفة أعمق ببنية وطبيعة الصخور التى نستخرج منها المعدن الثمين ، معدن الحقيقة ، بنية وطبيعة الاخطاء التى تحصل عند « غربلتها » على بذور الحكم الصائب .

ومازالت هناك طبقة تحتل مكانها بين التركيبات الثنائية — أقدم ظواهر الوعى واكثرها أولية ، والتى تميز الانسان عن الحيوان — وبين تكوين

الافكار العامة . وتشمل هذه الطبقة عمليتين عقليتين متضادتين وتكمل كل منهما الأخرى فى نفس الآن ، وهما ما يسمى **التسلسل** (تكوين سلسلة من اشياء متشابهة ، مثل مجموعة من عصى العد) **والتصنيف** . وتتولد كلتــا العمليتين مباشرة من الوظيفة العقلية التى تشكل الأزواج فى الظواهر الأشد بســاطة .

والواقع أن الزوج ، فى الحالات القصوى ، يمكن أن يتكون فى مظهرين شديدى التشابه ، أو على الاقل أن تتشابه جوانب المظهرين الى حد التطابق بحيث يمكن لكل منهما أن يحل محل الآخر . وهذه هى الخطوة الاولى فى انشاء السلسلة ، والتسلسل يتجلى فى التفكير البدائى والطفولى فى تكرار علاقة ، أو فكرة ، أو ايماءة ، أو صوت ، يدل كل منها على شىء محدد . والايقــاع والتزيين ينمو ان معا على هذه الخلفية قبل المنطقية . وأما فى حالة الامراض التى تصيب الفصوص الامامية للمخ البالغ ، فتؤدى نفس العملية ، ولكن بطريقة مرضية : فنشهد تكرارا لا اراديا لا يتغير لنفس الرسم ، أو نفس الكلمة ، الخ ، وأما فى التفكير السوى ، فالتسلسل لا يكمن الا فى المرحــلة اللاحقة — مرحلة تكوين الافكار العامة أو التعميمات .

ومهما يكن من أمر ، فالفكرة العامة لا تتبلور على هذه القاعدة وحدها ، وأنما تتطلب عملية أخرى ، تعرف بالتصنيف ، وهى الشــكل الأولى لــ « هذا » و « ليس هذا » ، لــ « نعم » و « لا » . ومن السهل أن ندرك أن هذا الفعل ، أيضا ، ينبثق من حالة « زوج » محدودة ، ولكنها حالة تتعارض بطبيعتها مع الحالة التى ذكرناها من قبــل ، لأن الظاهرتين مختلفتان كل الاختلاف ، وعلى الاقل هما غير متشابهتين وليست بينهما اى علاقة . وهذه هى نقطة البداية للعملية العقلية المسماة **بالتفرع الثنائى** ، اى الانقسام الى اثنين ، والتى تبلغ فى تطورها حد التعارض مع التركيب الثنائى . وهــذا النشاط التصنيفى الأسطح المخ هو اول مراحل النضج . **والوعى فى طفولته يتقبل بسهولة وينمى تقسيم كلّ الاشياء المحيطة به الى خير وشر** . وكثيرا ما تتحدث تقارير علماء الأجناس عن بعض القبائل التى تقسم الظواهر الطبيعية الى نوعين . والتصنيفات البدائية غير واقعية بطبيعتها ، كما يتضح من احتفاظ بعض اللغات الحديثة حتى الآن بالتصنيف اللاعقلانى للأســماء الى مذكر

وبولنث . وباختصار ، فالنوع الاول من التصنيف ليس بعد ، ان أردنا الدقة ، عملية منطقية ، وانما هو مجرد تمهيد للطريق ، جنبا الى جنب مع التسلسل ، وصولا الى المرحلة الاعلى ، مرحلة التفكير المنطقى من خلال افكار عامة .

ولعل اشد ما يخدع العاملين فى مجال علم النفس الاجتماعى هو ان هاتين العمليتين قبل المنطقيتين تذكر أننا على نحو غريب بالنظام القبلى ، الى جانب ارتباطهما العميق الى حد ما بدائرة العواطف ، فكل اعضاء الاسرة يحملون نفس الاسم ويشكلون سلسلة او مجموعة من الظواهر المتماثلة . والنظام القبلى يعلمهم ان يتشبهوا بعضهم البعض فى العادات وفيما يستخدمونه من ادوات ، وهم جميعا ، بمعنى معين ، قابلون للتبادل فيما بينهم — ولسنا فى حاجة الى القول الى ان ثمة شيئا مشتركا بين الفعل العقلى الذين يتمون من خلاله عملية التسلسل وبين المقولة الاجتماعية النفسية « نحن » .

وعلى نفس النحو ، لايسعنا الا ان نشير الى أن التصنيف الاول يشتمل على نفس المواجهة التى التقينا بها فى العلاقة الاجتماعية النفسية « نحن — هم » . وكلما ازداد النشاط التقييمى للعقل (تقسيم الظواهر والافعال الى موجب وسالب والى خير وشر) ، كلما ازداد محتواه واقعية فى المجالات الثقافية مثل علم الجمال ، وعلم الاخلاق ، وفى تمييز الموجب من السالب من وجهة نظر المنفعة العملية والغرض .

وهكذا نرجع مرة أخرى الى ان تقسيم الأحاسيس والمشاعر والعواطف الانسانية الى موجبة وسالبة لا ينبثق من فسيولوجية الحيوان والانسان (حيث لا يتوفر اى اساس للبحث عن انقسام العمليات الى مجموعتين متضادتين فقط) ، وانما ينبثق من قوانين اجتماعية ، ومن قوانين اجتماعية نفسية على وجه الخصوص .

وربما كان التقييم السالب ، فى المسائل الاخلاقية والجمالية ، هو اكثر الطبقات قدما . ولقد تغافلت ابحاث نظرية الجمال والاخلاق ، بشكل ما ، مسألة ما يعتبر مجافيا للذوق او طباعا سيئة فى فترات التاريخ المختلفة . ولكن تظل الحقيقة هى ان معيار الجمال والأخلاق يتضمن دائما رقيبا خفيا

ونقيا لما هو منافٍ للذوق وقبيح ، وغير أخلاقي ، وهذا القول ليس فكرة سالبة ، لأنها غالباً ما تكون أكثر وضوحا وصراحة من الفكرة الأولى : فالقذارة ، والدمامة ، وسفك الدماء ، عناصر تتطابق دائما مع « الأعداء » ، مع المجموعة « هم » .

والمجموعات « نحن » تستمد شكلها من خلال نفي المجموعات « هم » ، والكراهية والحب يجسدان نفس الثنائية التي التقينا بها في « ماهو غيرنا » و « ما هو منا » ، رغم أن مشاعر الكراهية والحب قد ترتبط بفئة وسيطة أو مشتقة هي « أنت » (أو « أنتم ») . ومع ذلك فهذه المشـاعر خرجت الى الوجود في مرحلة سابقة كثيرا في نشأة الانسان على آلية التفكير المنطقي بواسطة الأفكار العامة .

وختاما لهذا الفصل : فالتاريخ الحافل والممتد لجنس الانسان هو في خاتمة المطاف تاريخ « نحن » و « هم » . والحد الآخر للتاريخ المواجه لنا ، هو « هم » . والتقدم التاريخي من عصر ما قبل التاريخ الى العصر الشيوعي ظل يغرس ويشـكل في وعينا التناقض بين حضارتنا وهمجتهم هم ، بين وضعنا الانساني السامق ووضعهم هم الذين ما زالوا في مرحلة ما قبل الانسان . وليس هناك « هم » أكثر صراحة من أسلافنا أشباه — الحيوان الذين انحدرنا منهم ، والذين تحولنا نحن الى بشر بالابتعاد عنهم ، وأن كل ما يثير اشمئزازنا ونفورنا أكثر من سواه ، اذا أمعنا النظر ، لا يعدو أن يكون الخصائص المميزة لهذه المخلوقات الشبيهة بالقردة الذين نشأنا نحن منهـا ، والتي ابتعدنا عنها على امتـداد آلاف السنين . ولذلك فتاريـخ العالم والتقدم الانساني ، يمكن اعتبارهما تعارضا ديناميكيا بين « نحن » و « وهم » . **وما تفكيرنا الا النفي والصورة المضـادة للنشاط النفسي لتلك المخلوقات السحيقة التي نحن أخلافها .**

الفصل الخامس

تاريخ العالم والسيكولوجية الاجتماعية

١ ـ العبودية والتحرر :

لعل القيمة الحقيقية لكل ما كتب عن الماضى ، وكل ما توصل اليه العلم من معرفة بتاريخ العالم ، هو انه يفيدنا من اجل ... التنبؤ بالمستقبل .

فهل يمكن لمعرفتنا بالماضى أن نتوصل الى تصور موضوعى تدعمه الحقائق عن اتجاه وسرعة تقدم الانسان على امتداد التاريخ ؟

ان أغلب المؤرخين البورجوازيين يرون أن هذه الفكرة من التقدم قديمة وولى زمانها ، ويعنون بذلك ضمنا أن المستقبل يتعذر ادراكه أو التنبؤ به ، وحجتهم الأساسية فى هذا الصدد هى أن الثقافات والحضارات شديدة التنوع ، على النحو الوارد بالتفصيل فى كتابات المؤرخين وعلماء الآثار والانسان . وا. توينبى وغيره من دعاة نظرية الدورات لا يعترفون الا بتقدم نسبى فى كل حضارة قائمة بذاتها ، وبتفوق نسبى لحضارة غرب أوروبا ، ولكنهم يرفضون فكرة التقدم المطلق للانسان من اقدم العصور الى وقتنا الراهن ، ويرون أن هذه الفكرة عفا عليها الدهر ، وانها ارتداد عن تعاليم هيجل عن التاريخ كتقدم فى الوعى بالحرية . وكلنا نذكر مع الأسف ، ان هيجل لم يخصص اى مكان للتاريخ ، وكان يرى أن الانسان وصل بالفعل الى الفصل الختامى ـ الادراك الذاتى للفكرة المطلقة والحرية الشاملة ـ فى دولته البروسية المعاصرة .

والواقع أن اى نظرية عن التطور تولد ميتة اذا نادت بأن الحاضر او المستقبل القريب هو خاتمة المطاف . ولكن مؤرخى الغرب لا تزعجهم

ماحاق بمختلف النظريات القديمة عن التطور من فشل واخفاق فحسب ، وهم يدركون ذلك التيار فى العلم الذى يتملك المعيار الفعال للتقدم التاريخى العالمى الموضوعى والمطلق : المادية التاريخية لماركس وانجلز ولينين ، ولهـذا السبب ، تتحول فلسفة التاريخ البورجوازية بكل اهتمامها الى محاربة الجبرية ، التى يزعمون أنها تحمل فى طياتها التنبؤ التاريخى والعلمى . ومن هنا نفهم تهافتهم للياس على الوجودية ، التى جاءت لهم بالبشير بطرحهـا فكرة البديل : فالمستقبل دائما محل اختيار ، وفى مقدورنا دائما أن نسـلك هذه الطريق او تلك ، وبالتالى فالماضى هو وحده الذى يمكن أن يكون مادة للدراسة العلمية .

ولكن الواقع أن هذه الفكرة عن البديل ، والتى تدعى أن فى مقدرة الانسان أن يختار بين بدائل متعددة ، والتى انتشرت بين المفكرين فى الغرب لاسباب لها ما يبررها ، لا تؤثر بأى حال على التعاليم الماركسية . اللينينية الخاصة بقوانين التطور الاجتماعى .

والفرد فى المجتمع الراسمالى قد يتنقل من نقيض الى نقيض (وهو يفعل ذلك حقيقية فى بعض الأحيان) عندما يختار بين غلاة المدافعين عن النظام الرأسمالى وبين أكثر المتناقضين مع هذا النظام ثورية ، وقد يفضل هذه الطريق او تلك لأن كلاهما ممكن فى ذلك المجتمع ، وأما فى غيبة النظام الراسمالى ، فتبرز بدائل أخرى يستطيع الفرد معها ، وبدون أى ذرة من الجبرية ، أن يختار بين المواقف المختلفة وطرق التفكير المتباينة — ولكن هذا الاختيار لا يمكن أن يجرى الا من بين البدائل الممكنة موضوعيا فى البنية الاجتماعية الاقتصادية المعينة ، فى المرحلة التاريخية المحددة . وقد ينضم الى اى جماعة قائمة بالفعل أو تتوفر الظروف المادية لقيامها بعد حين ، وقد يشارك فى هذه المشاعر العامة أو تلك ، ولكنه لا يستطيع ، مثـلا ، ان يتـكلم الفرنسية اذا كان يعيش فى بلد لا يعرف احد من سكانه بتلك اللغة ، أو اذا عاش فى وقت لم تظهر فيه اللغة الفرنسية بعد .

وايا كانت المبادىء التى يستخدمها المؤرخ لتحديد المراحل ، فسوف يتبين ان هذه المراحل تزداد قصرا بمرور الوقت ، فالعصر الحجرى الحديث

اقصر كثيراً من العصر الحجرى القديم ، والعصر الوسيط اقصر من العصر القديم ، الخ ، ولا شك ان فى ذلك اشارة واضحة للقانون العام للتسارع .

والفكرة المادية للتطور تقتضى اثر بعض السمات المميزة للعملية ككل .

ومن السمات المميزة للتقدم المطلق زيادة انتاجية العمل . حقا اننا لا نضع يدنا على هذه السمة الا اذا جرت المقارنة على امتداد فترات باكملها ، ولكن مما لا شك فيه أن العمل كان اكثر كفاءة فى المجتمعات الشرقية القديمة عنه فى المجتمعات العشائرية والبدائية السابقة عليها ، ويؤكد علم الآثار هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا لأى جدال . كما ازدادت الكفاءة بشكل عام فى العصور الوسطى بالمقارنة بالعصر القديم ، وفى العصر الحديث بالمقارنة بالعصور الوسطى ، فكانت لكل بنية اجتماعية اقتصادية تالية انتاجية عمل اعلى منها فى البنية السابقة عليها .

وهناك جانبان لمسالة الكفاءة ، وهما : تحسين وسائل الانتاج ، وما يرتبط بهذا التحسين أوثق الارتباط من تغيرات فى التركيب النفسى للعمال وسلوكهم ، والعلاقة بين الجانبين ليست مما يمكن تغافله ، ولا هى بالبسيطة . فعملية الانتاج الأكثر تعقيدا تعنى ، فى التحليل الأخير ، ارادة عقلانية أكبر ، لا يمكن أن تتحقق الا اذا كان العامل نفسه معنيا بالنتيجة النهائية لجهده .

ولقد تعاقبت الأجيال فى العصر الشيوعى البدائى دون أن يطرأ أى تغير ملحوظ على قوى الانتاج . ثم جاءت العبودية لتغير من الطريقة الرتيبة للانتاج : وتحول البدائيون ، بناة أضرحة ما قبل التاريخ وما يحيط بها من دوائر حجرية — بعد أن انتزعوا قسرا من بين قبائلهم وعائلاتهم وحرروا بالرغم منهم من ضرورة اطعام اقاربهم العاجزين والمقعدين — الى بناة للأهرامات ، والأضرحة المقدسة ، والمزارات ، ومدرجات الملاعب ، والقنوات ، والطرق ، والمدن ، ولكن العبد كان يقدم على المغامرة فيحطم أدواته بدلا من تحسينها . وأما فى العصور الوسطى ، فبالرغم من كل اشكال التبعية ووسائل القهر والقمع ، الا ان الفلاحين والحرفيين كان لديهم الحافز لتطوير الجزء الذى يخصهم من الانتاج ، فكانوا يعتنون بأدواتهم ويدخلون عليها بعض التحسينات البسيطة التى تراكمت على امتداد القرون لتحقق تقدما تكتيكيا تدريجيا . وفى عصر الراسمالية ، يهتم العمال بالحصول على الحد الأقصى من الأجر ، ومن هنا تنبثق عنايتهم بكمية ما ينتجون ونوعيته ، ورفع مستوى مهاراتهم ،

وتحسين تكتيك العمل باستخدام الخرطة او أى آلات اخرى . وباختصار ، كانت هذه هى نقطة البداية لنشأة التصميمات الآلية الجديدة . واما فى البلدان الاشتراكية الحديثة فتتوفر لدى العمال حوافز مادية وايديولوجية ونفسية أكثر كثيرا لزيادة انتاجية العمل .

وبعبارة اخرى ، فزيادة الانتـاج ترتبط تاريخيا بزيادة الحـوافز ، وبالتالى ، بالتغيرات فى الوضع الاجتماعى للعمال . ولقد كان فن العصور الوسطى أو فلاح العصر الاقطاعى أكثر حرية من عبد العصر القديم ، كما أصبح العامل المأجور فى ظل الراسمالية اكثر حرية من سلفه ، الأمر الذى يدفع المؤرخ الذى يركز اهتمامه على الجماهير العاملة ، وعلى فئاتها الدنيا وليس العليا ، الى ان يستنتج أن الحركة الصاعدة للتاريخ يوازيها دائما تحرر تدريجى للجماهير (رغم ما فى هذا التحرر من خداع من ناحية الجوهر الاقتصادى) ، والواقع أن معدل سرعة التحرر كان فى تزايد مستمر ، ولهذا السبب اصبح من الممكن واقتضت الضرورة فى نفس الوقت ، نفى كافة التغيرات السابقة بواسطة أول تحرر حقيقى للعمال بالانتقال الاشتراكية .

وهنا يكتشف المؤرخ السمة الثانية المميزة للتقدم على المستوى العالمى ، وهى سمة ترتبط بالسمة الأولى ، أو هى معيار ثانى لا ينفصل عن المعيار الأول : فعناصر التحرر لم يحصل عليها الناس منحة أو هبة من السادة والملوك ، وانما انتزعوها انتزاعا فى مجرى النضال العلنى أو السرى . وكان كل مستوى من الانجاز يمهد الطريق لنشاط وفعالية أكبر بدرجة او اخرى ، كما أخذ تأثير الجهود الشعبية فى التزايد مع تقدم مسيرة التاريخ .

وكان تزايد قوة ، ووحدة ، وتنظيم ، وعزيمة الجماهير فى النضال ضد من يقهرونها ويستغلونها من المؤشرات التى تؤكد هذا التقدم . فتقدم الحرية هو تقدم فعالية النضال من أجل التحرر . ففى المجتمع البدائى كان الموت او النفى فى الأرض هو المصير الوحيد لكل من يتجاسر فيعارض قوة العادة التى لاراد لها . ولم تتح للعبيد اى فرصة لمعارضته ما عاشوا تحت وطأته من استغلال بشع يقصم الظهور ، رغم ما يسجله التاريخ من أحداث تمكن العبيد فيها من بث الرعب فى قلوب سادتهم ، ثم جاء فلاح

العصر الاقطاعى ليثبت علاقته بالسيد الاقطاعى فى عقد يبره بين الطرفين ، وليهدد بترك الأرض ، معتمدا على الحقوق القانونية لجماعته ، بل ومع اللجوء أحيانا الى حرق المبانى عمدا ، والى القتل ، والتمرد . ومن بعده جاء العامل المأجور ليناضل ضد الراسمالى على نحو اكثر فعالية مستخدما الاضرابات ، والهجرة والمساهمة فى الحركات الثورية الجماهيرية .

فى المجتمع العشائرى البدائى كان « المتمرد » — ان وجد — لا يجد متنفسا لسخطه الا بالابتعاد والعزلة عن عشيرته ، وفى الشرق القديم وبعض المجتمعات القديمة الأخرى ، كانت مقاومة القهر تتبدى من جانب الجماعات ذات الأصل المشترك ، تساندها اجهزة بدائية لتبادل المساعدة مع الجماعات الأخرى ، بل وحتى مع بعض الاشكال الأولية لتجمع العبيد المستجلبين ، وشهد العالم الاقطاعى انواعا شتى من الجماعات والتنظيمات التى شكلها سكان القرى والمدن المقهورة للدفاع عن انفسهم والنضال ضد القاهرين . واخيرا ، شكل العمال فى العالم الرأسمالى نقاباتهم وأحزابهم ، والتى تمثل قوة اجتماعية شديدة الأثر .

وبناء على ذلك ، كان التأثير السياسى للمقاتلين من أجل التحرر فى تزايد مستمر على مجرى التاريخ ، ليتحول بالتدريج من معارضته للسلطات الى صراع من اجل السلطة . فكان هذا التطور يجرى موازيا فى نفس الوقت لتزايد قدرة العمال على خلق عناصر من الايديولوجية والثقافة لمواجهة الاحتكار الأيديولوجى والثقافى للطبقات الحاكمة .

ولكن هذا الضغط المتنامى من جانب الفئات الدنيا لم يكن يعنى أنها اخذت تتحول بالتدريج الى سيدة الموقف ، وانما كان التأثير التاريخى لهذا الضغط غير مباشر ، فكان يجبر الطبقات القوية اقتصاديا ، والسياسة والأيديولوجية والثقافة السائدة التى تعبر عن مصالحها ، على اعادة تنظيم صفوفها . وكلما تغير الضغط ، كلما تغيرت أيضا الافكار التى تحاول عرقلة هذا الضغط ، فكان تاريخ الفئات الدنيا التى لا تهدأ ولا تكل يدفع الفئات العليا الى مواكبة الركب خطوة خطوة — وكما يقول هيجل ، وكما يكرر ماركس فى سخرية ، فان « بؤساء المجتمع » ، اى الكتلة المكونة من الجماهير العادية غير المتعلمة ، هى التى تخلق الحركة كصدى لقلقها واستيائها ، واللذين بدونهما ما كان يمكن ان يكون هناك تاريخ .

وشهد العالم اكبر هجوم للجماهير المستغلة عندما تمت الاطاحة بالطبقات المستغلة فى عدد من بلدان آسيا وأوروبا فى الفترة الممتدة من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٤٥ ، وهنا بدأت مرحلة جديدة من التسارع الفائق فى ايقاع حركة التاريخ .

ويمكننا تلخيص كل هذه الحقائق على النحو الآتى : فقبل ان ينهض الانسان من أجل القضاء على جوهر الاستغلال ، وليس لا سقاط طبقة لتحل محلها طبقة مستغلة أخرى ، لم يكن التاريخ الا سلسلة متصلة من الجهود التى يبذلها السادة لعرقلة أو وقف مسيرة التاريخ .

ان تاريخ الفئات العليا من المجتمع ، أى التاريخ الذى مازال البعض يتوهمون أنه هو التاريخ الحق ، لا يعدو أن يكون تاريخ أولئك الذين تركزت جهودهم على تعطيل حركة التاريخ — وكلما كانوا يضطرون الى تحقيق شىء من التغيير ، كانوا يفعلون ذلك مرغمين ، ولا يقدمون الا على الحد الأدنى من التراجع ، وليس ما يزيد عن الحد الأدنى بأى حال .

ويقول أوسكار وايلد ، بسخريته اللاذعة ، أن ذلك العناد ، من وجهة نظر أى شخص يعرف ما هو التاريخ ، هو الفضيلة الأساسية للانسان . فالتقدم لم يتحول الى حقيقة الا عندما اقترن العناد بالتمرد . وقد يبدو صدور هذا القول من أوسكار وايلد أمرا غريبا ، ولكنه يحمل ومضة من الحقيقة ، على الأقل لأى شخص عرف حقا ما هو معنى التاريخ .

ويحاول علم النفس الاجتماعى الغربى أن يرد جوهر جميع الظواهر الاجتماعية النفسية الى الفعلين الأكثر اهمية ، وهما القهر والمحاكاة ، ونرى دور فايم — مثلا — يقول أن الجانب الاجتماعى الحقيقى للحالة النفسية يتمثل فى القهر ، بينما يرى ترد أنه يتمثل فى المحاكاة ، ويرى آخرون أنه يتمثل فى مزيج منهما معا .

وان كان علم النفس الاجتماعى السوفيتى لا يتجاهل هاتين الآليتين البالغتى الأهمية والعمق حقا ، الا أنه لا يكتفى بالنظرة الظاهرية ، وانما يغوص الى ما تحت السطح ، ويرى أن العناد وعدم الاذعان أكثر أهمية بالنسبة للمؤرخ من الاكراه والمحاكاة ، فهما الحافز الأساسى الذى يحقق

القوانين الاقتصادية الموضوعية لتقدم المجتمع الانساني — ويتزايد دور هذا الحافز الأساسي قوة ووضوحا في كل بنية اجتماعية اقتصادية لاحقة .

ومن المعروف أن المجتمع الانساني ظل لعدة آلاف من السنين بلا تناقضات عدائية ، اى انه لم يكن قائما على مبدأ استغلال المنتجين المباشرين للقيم المادية بواسطة من يملكون وسائل الانتاج ، ولم ينقسم المجتمع الى طبقات متناحرة الا بمقدم العبودية .

وبهذا المعنى ، فوجود نظام لا طبقى فى الماضى البعيد يؤكد الطبيعة الانتقالية تاريخيا للتناقضات الطبقية ، وهى الحجة الدامغة التى يقدمها المنطق الجدلى تأييدا للشيوعية العلمية .

ولكن مهما يكن من أمر ، فمن واجبنا عند دراسة التطور التاريخى للانسان ، أن نؤكد على مدى ما يتسم به هذا الثالوث الجدلى من تجريد شديد ، وان نلاحظ غيبة أى سمات جذابة فى الماضى البدائى ، وليس لدى الشعب السوفيتى ، بناة الشيوعية ، شيء محدد ليحاكيه أو يتعلمه من « جاهلية » و « بلاهة » الحياة البدائية . ان مصطلح « الشيوعية البدائية » الذى كانت له شعبيته فيما مضى ، يصر فى الآذان الآن ولم يعد له من نصيب الا الاهمال . ولكن طالما ظلت الرأسمالية هى الطبقة السائدة ، فسوف تظل الذكريات المثالية لدرجة أو أخرى للجماعات البدائية تستخدم كاتهامات موجهة ضد البورجوازية ، واما الآن ، وعندما تحولت الاشتراكية الى واقع ، فلم تعد هناك ضرورة لمثل هذه الذكريات .

ويتركز محور النظرية العلمية للتطور حول أن الحرية فى بعض جوانبها — وأساسا الجوانب الاجتماعية النفسية — كانت اشد قصورا وتواضعا فى الجماعات البدائية عنها فى ظل العبودية ، والواقع أن كل الاقاصيص التى تدور حول الحرية ، وحول استقلال الفرد فى مجتمع ما قبل الطبقات ، اقاصيص **تجافى الحقيقة تماما** ، فالحياة الروحية فى ذلك الوقت كانت على نفس المستوى البائس والهزيل الذى كانت عليه ظروف المعيشة . والبدائيون لا تبدو عليهم سيما المهابة والجلال الا فى حكايات الرحالة الرومانسيين وحدهم ، الذين يسبغون هم عليهم أوصافا وملامح مستمدة من مثلهم الأعلى الاجتماعى الخاص .

والواقع ان كل شيء كان مختلفا كل الاختلافات عما نتطلع اليه فى عصر

الشيوعية ، كان الانسان غارقا حتى أذنيه فى قصة البؤس والفاقة ، وكانت حبرته هزيلة ضحلة الى اقصى حد .

وفى هذه الجماعة البدائية ، كان الانسان — من جوانب معينة — اكثر عبودية من عبد العصر اللاحق . ولم يكن مستقلا ومحبا للحرية الا فيما يتعلق بالأعداء الخارجيين ، وأما فى القبيلة والأسرة فكان الخضوع والمحاكاة هما القاعدة ، بينما العناد وعدم الاذعان هما الاستثناء النادر الوجود . ويصف انجلز ، الذى أولى اهتماما كبيرا لكل ما يتعلق بالعصر البدائى ، الوضع الحقيقى للانسان البدائى والظروف التى عاش فى أسرها ، فى الكلمات القاطعة التالية : « ظلت القبيلة هى الحد الفاصل بالنسبة للانسان ، سواء فى علاقته بالأجانب أو فى علاقته بنفسه ، فالقبيلة والعشيرة وما ينبثق عنهما من مؤسسات ، مقدسات يحرم المساس بها ، انها سلطة عليا ، انشأتها الطبيعة ، ظل الفرد تابعا يخضع لها خضوعا مطلقا فى مشاعره ، وفكره ، وأفعاله . ومهما أثارت لدينا شعوب ذلك العصر من اعجاب ، فهى لا تختلف فى شىء عن بعضها البعض ، وكانت لا تزال جميعا ، كما يقول ماركس ، مرتبطة بالحبل السرى للجماعة البدائية » (١) .

ولقد ظهرت جذور ما نسميه بالعبودية قبل العصر العبودى بوقت طويل . ولم تكن قهرا أو اكراها ، وانما هى اذعان اختيارى دون أو هى بادرة من تبرم أو سخط .

ويتحدث عديد من الباحثين الذين تركزت دراساتهم حول القبائل البدائية عن **الاستعباد الداخلى** الذى استمر طويلا قبل مقدم العصر العبودى . وينتهى توماس ستريهلو ، الذى عاش لعدة سنوات بين أبناء قبيلة أرنادا الاسترالية ودرس طقوسهم وخرافاتهم المحلية ، الى ان **التقاليد الدينية و «طغيان» سندتها من كبار السن ، تحبط كل دافع خلاق وتجهض كل خيال، الأمر الذى يفضى الى السلبية والنعاس العقلى بين الجميع** ، فكانت الخرافات المقدسة تنتقل حرفيا من جيل الى جيل ، دون أدنى تغيير . ولم تظهر أى خرافات

---

(١) ك. ماركس وف ، انجلز ، المؤلفات المختارة ، المجلد ٢ ، موسكو ١٩٦٢ ، ص ٢٥٥ .

جديدة ، وظلت الطقوس دون اى تعليل . ولم يتسع الأفق العقلى للقبيلة بأى شكل من الأشكال (١) .

ونحن نقول فى بعض الاحيـان ان الخوف والقلق فى وجود السلطة عرض من الاعراض الدالة على وجود سيكولوجية العبد . ولكن من الأصح ان نقول ان « **الاسترقاق الاختيارى** » (وهو مصطلح كان لابواتييه ، وهو أحد الكتاب الفرنسيين فى القرن السادس عشر اول من استخدمه) ، أى الخضوع المسلم به كشيء طبيعي. والذى يتحول من ثم الى شيء لايدركه الفرد، يكمن فى أعماق أبعد من ذلك كثيرا . فكانت هذه هى نقطة البداية فى العملية التاريخية العالمية عندما ننظر اليها كعملية لتحرر الانسان ، **أنها — ان جاز القول — الصفر المطلق الذى استمر وقتا طويلا جدا** .

وعندما تنبع العبودية من الخوف ، اى من كبت ارادة المقاومة (سواء كان ذلك خوفا من الجلد بالسياط أو من روح غامضة) ، فهذه خطوة على طريق التقدم . فحتى هذه النقطة كانت العبودية **الاختيارية** هى التى تسيطر على حياة الجماعات والقبائل والشعوب ، وهى تبدأ بتشكيل نظام ما قبل الطبقات وتنتهى بتحلله ، وهى لا تزال عقبة تعرقل نضال الشعوب المعاصرة التى لا تـزال تحتفظ ببقايا نمط الحياة الأبـوى القديم ضـد الاستعمار والامبريالية . ولا شك ان الاستعمار وتجار الرقيق يستفيدون من هذا الاذعان ، وليس من قبيل الصدفة أن يبالغوا فى اطراء العبد المخلص المطيع « العم توم » .

اذن فمسيرة التاريخ كان يعوقها كل من يملك السلطة والنفوذ من ناحية وكان يعرقلها من الناحية الأخـرى **المستعبدون من الداخل ، المستعبدون بالروح ، رقيق الاذعان والخنوع** .

يرى ناكريانى ، وهو من الشخصيات العامة البارزة فى غينيا القصة

---

(١) ف . ج . هـ . ستريهلو ، تقاليد الأرندا ، ملبورن ، ١٩٤٧ ، ص ٥ — ٦ .

الاتيـــة : « كان أسلافى جميعا من العبيد . وانى لا تذكر جيداً ذلك الخوف الصاغر الحقير الذى كان أبى وأمى يشعران دائما به ، وكنت أعتقد دائما أن اشق ما فى الحياة هو أن نتغلب على هذا الخوف . وكنت أعتقد أيضا انهما اذا فعلا ذلك ، فسوف يشعران أنهما أكثر قوة »(١) . ويتضمن هذا القول حقيقتين على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لعالم النفس : **فالخوف خطوة الى الأمام ، لأنه من الأغراض الدالة على الصراع الـكامن بين السيد والعبد ، وهو ايضا من اعراض تراجع عادة الاذعان والاستعداد للطاعة ، والانتصـــار على الخوف الصاغر الحقير مرحلة أرقى تثبت ان الناس بداوا فى ادراك قوتهم .**

واذا عدنا الى المقولة الاجتماعية النفسية « نحن » ، يمكننا القـــول أن التقبل الخاضع المطيع لطغيان العادات انما هو تعبير عن أكثر أنـــواع « نحن » بدائية وأولها ظهورا على مسرح التاريخ ، والتى **تحولت عندئذ الى ولاء نابع من الاسترقاق الاختيارى او الخوف الذليل ، فتحولت من ثم الى نقيضها هى نفسها ، اى ليتمخض الموقف عن نبذ « نحن » والخضوع لسلطة خارجية من نوع ما .** ويتجلى ذلك فى التخلى عن ملكية الثروة المادية . ففى الأسرة البدائية أو المجموعة المرتبطة برقعة مشتركة من الأرض ، كان الناس يتخلون باختيارهم عن ثروتهم ، ثم جاءت التقاليد لتحول هذا التخلى عن الملكية الى فعل مقدس — **انه التضحية** — وبمرور الوقت ، تحول أعضاء الجماعات بالتدريج الى عبيد لطقوس التضحية ، وشهد التاريخ التخلى الاجبارى عن ملكية المنتجات قبل ظهور العبودية والاستغلال . ولم يكن التخلى عن الملكية دائما خطوة متفقا عليها من الجانبين ، وغالبا ما كانت من طرف واحد (١) . **فالغزوات التى تهدف الى السلب والنهب وفرض العبودية على الآخرين لا تظهـــر الا بعدما يرفض الناس ان يقدموا ثمار عملهم ، او**

---

(١) أنباء موسكو ، ١٥ ابريل ١٩٦١ ، ص ١٣ .

(١) م. ماووس « مقالة عن شكل ومنطق التغيير فى المجتمعات القديمة » مجلة علم النفس السنوية ، السلسلة الجديدة ، المجلد الأول (١٩٢٣ — ١٩٢٤) ، باريس ، ١٩٢٥ .

عملهم نفســه ، بلا مقابل . وهنا يبــدأ اكراههم بواسطة الخــوف ، وبواسطة القانون .

وبناء على ذلك ، فنحن ننظر الآن الى ظهور الدولة العبودية فى العصور القديمة من زاوية مختلفة ، **فالعبيد الأوائل ، من الناحية النفسية ، هم أولئك الذين قاوموا الاذعان المألوف فى ذلك الوقت ، والا لما اقتضى الأمر تحويلهم الى عبيد بقوة القانون ، وتكبيلهم بالاغلال ، واجبارهم على العمل قسرا ، ومهما بدا هذا القول متناقضا ، فلقد كان العبيد فى بادىء الأمر عصــاة ومتمردين . والنظام العبودى لم يظهر الا عندما بدا الناس فى النضال من اجل حقوقهم ، فكان ذلك عندما تطلب الأمر ان يجبروا اجبارا على الركوع .** وكان الارهاب والتخويف هما الطريقة المألوفة لاستخلاص الطاعة . وحتا كان الرعب يجرى فى أوصال عبيد روما القديمة مجرى الدماء فى العروق ، **ولكن السادة ايضا ، كان يستبد بهم الرعب من عبيدهم .** ومن أجل مواجهة الموقف ، اصدرت الطبقات الحاكمة القوانين ، وصنعت السلاح ، واخترعت الآلهة والوصايا ، **وباختصار ، لم يظهر النظام العبودى الا عندما حاول الناس ان يقاوموا العبودية .**

وما أن نستوعب هذه الحقيقة ، حتى تتبدى لنا العملية التــاريخية العالمية أكثر وضوحا من وجهة نظر علم النفس الجماعى . ولذلك ، فالتحليل النفسى للتقدم ليس مجرد تكرار لبديهيات مستمدة من عالم الاقتصاد السياسى ، رغم عدم تناقضه مع هذه البديهيات . ويستخدم انجلز فى كتابه « اصل العائلة والملكية الخاصة ، والدولة » ، تعبيرا نلتقى به كثيرا فى الترجمات الأولى تحت تسمية « ثلاثة اشكال من العبودية » ، ويعنى بها عبودية العصــور القديمة ، واقطاعية العصور الوسطى ، والعمل المأجور الرأسمالى ، وأما فى الترجمات اللاحقة فترد ترجمــة انجلز تحت تسمية « ثلاثة اشكال من الاسترقاق » ، وهى ترجمة أقل تعبيرا عن المعنى ، فالواقع أن جميــع « الأشكال الثلاثة للعبودية » ليست الا مراحل متتابعة فى النضال ضــد العبودية ، لا تتميز فحسب بتغيرات فى أسلوب الانتاج وغيرها من الظروف الموضوعية للحياة الاجتماعية ، وانما تتميز أيضا بالبعث الداخلى للانسان ،

ونظراً لأن دراستنا تصل بنا هنا الى تناول العلاقة بين العناصر الأساسية للاقتصاد السياسى وملاحظات علم النفس الاجتماعى ، يصبح لزاما علينا أن ننبه الى الخطأ الذى يقع فيه الاقتصاديون عندما يتعاملون مع ذرة غير متحركة سيكولوجيا — وهى الانسان الاقتصادى — اى الانسان الذى يدير شئونه وفقا لنفس المبادىء الأولية ، أو على نحو أكثر تحديداً ، وفقا لمبدأ أولى واحد لاختلاس ما يملكه الغير والنهم لجمع المال . فالاقتصاد السياسى يدرس العلاقات الموضوعية بين الناس فى الانتاج الاجتماعى . ولا يمكن الا لأصحاب الفكر الغوغائى أو بعض المدارس غير العلمية أن تصف هذا بأنه علم صناعة الثروة . فتلك نظرة بورجوازية ضيقة ، والعلاقات الاقتصادية الموضوعية ، وعلى وجه الخصوص فى العصور السابقة على الرأسمالية ، كانت تقوم بين أغلبية الناس — وبين كل الناس فى أوائل العصور القديمة — على اساس التخلى عن الملكية والتبديد وليس على التملك والنهم ، ومن الغريب أن يخلط البعض بين المادية ،التاريخية والراى القائل بأن الناس جميعا لا يسعون الا لتحقيق المزايا المادية وحدها ، فسيكولوجية الشراهة النفعية لاحقة لسيكولوجية التخلى المسرف عن الملكية والتوازن القائم على التشكك والحذر ، وكان الاقتصاد السياسى للبنية العشائرية البدائية يقوم على الهبات المجانية ، وأما البنيات اللاحقة القائمة على التناقضات ، فظهرت لتقلب هذه السيكولوجية رأسا على عقب ، وأصبح العمل ، ومنتجات العمل ، والثروات كلها ، موضوعا للاستغلال ، وباستخدام العنف ، وفى وثائق العصور الوسطى ما يكفى من الأدلة المتمثلة فى القوانين والمراسيم — الغريبة من وجهة النظر المعاصرة — والتى تحد من حق تقديم الهبات ، اى التخلى التلقائى عن الملكية ، ويجب ألا يغرب عن بالنا أن رجال الصناعة والتجار الروس بددوا ما حصلوا عليه من ثروات دون عناء ، وربما يرجع ذلك الى أن أجيالا من أسلافهم لم تتأصل فيهم سيكولوجية التقتير . ولكن ما هى هبات واسراف العصر البدائى ؟ انها جميعا تعبير عن الموقف المتمثل فى أن جميع المحيطين بنا انما هم « منا » وينتمون الى نفس « نحن » . وعلى خلاف ذلك ، كان التخلى عن الملكية مقابل التعويض ، والتراكم المفرط

فى الأنانية هو السيكولوجية المقابلة للموقف من « هم » ، أى من جميع الاخرين ، أو من ليسوا « منا » ، وحتى فى ظل الراسمالية ، هناك جماعة صغيرة — هى الأسرة — ما زال يسيطر عليها بشكل أو بآخر سيكولوجية « نحن » الاقتصادية ، أى التخلى عن الملكية عن رضا واقتناع وسماحة ؛ ولكن المجموعة « نحن » الصغيرة هذه يصيبها التمزق بسرعة الآن ، ويصل بها الأمر الى الحد الذى نجد فيه الأب والأم يدفعان الأجر لابنائهم مقابل قيامهم بالأعمال المنزلية ، وكلما ازداد تحول الفرد الى انسان اقتصادى لا تشغله الا عمليات الجمع والطرح ، كلما تضاءلت قدرته على فعل الخير .

وماركس يزيح الستار فى « رأس المال » عن العلاقات المستترة للسلب والنهب واختلاس الملكية والاستعباد الكامنة وراء مظاهر التعويض والمساواة . وهو يبين للعمال المأجورين انهم ما زالوا عبيدا بأعمق المعانى الاقتصادية للكلمة ، نعم كانوا يشعرون بذلك قبل ظهور الماركسية ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون تحديد هذا الشعور ، مع ما ينبنى على ذلك من عدم ادراك الجماهير الواسعة من اشباه البروليتاريين والفلاحين ، والشعوب المتخلفة اقتصاديا حقيقة ما تعيش فى أسره من عبودية .

والانسان فى وقتنا الراهن يعى هذه البقايا المترسبة من العبودية والتى لم يكن يدركها أو يشعر بها فيما مضى ومن ثم كان يتقبلها طائعا تحت تأثير سيكولوجيته البدائية المتوارثة . ولم تعد الامبريالية والاستعمار وأكاذيب السياسة والدين على ما كانت عليه من قوة ، بل وهى تفقد تأثيرها بمرور الوقت ، وتتراخى قبضتها التى تعرقل بعث الانسان ، ولهذا السبب تتسارع خطى التاريخ .

وهاهو الانسان يتحرر من العبودية المستترة ، ويميط اللثام عن العبودية المتنكرة فى ثياب الحريات الراسمالية . وهو يتغلب الآن على العبودية الخارجية وعلى البقايا الداخلية من سيكولوجية العبد ، وهناك

ثلاث قوى كبرى ، تتداخل وتتشابك بوضوح ، وتوحد وتنظم جهودها : وهى معسكر البلدان الاشتراكية ، ونضال الشعوب المقهورة من أجل التحرر الوطنى ، وحركة الطبقة العاملة والحركة الشيوعية فى البلدان الرأسمالية ».

ولكن لنرجع الآن الى ما ذكرناه فى البداية من أن دراسة التاريخ فى مسيرته الشاملة تساعدنا على التنبؤ بالمستقبل . فكيف يمكننا استقراء حركة التـــاريخ ؟

اليكم رأى روبرت أوبنها يمر ، وهو من أبرز رجال العلم فى القــرن العشرين : « اذا سلمنا بما يذهب اليه علماء الانســـان ، **كانت الوظيفــة الأساسية للطقوس والدين والثقافة فى أكثر المجتمعات بدائية هى أن تمنع أى تغيير تقريبا** ، وكان عليها أن تقدم للكائن الاجتماعى ما تقدمه الحيـــاة بطريقتها السحرية لكافة الكائنات الحية ، أى نوعا من التوازن بين عناصره المختلفة ، والقدرة على أن يظل سليما معافى ، والاستجابة فى أضيق نطاق لما يزخر به العالم من حوله من اضطرابات وتغيرات واضحة ، وأما اليوم ، فأصبح للثقافة والتقاليد هــدف ثقافى واجتماعى مختلف كل الاختلاف . فالوظيفة الأساسية لأكثر التقاليد حيــوية وأهمية الآن هى ، عــلى وجه التحديد ، أن توفر الوسائل اللازمة لتحقيق التغير السريع ، وهناك العديد من الأشـــياء التى تعمل جنبا الى جنب من أجــل انجاز هــذا التحــول فى حياة الانســـان ، ولكن ربما كان أكثر هــذه الأشياء حسما هو العلم نفســـه (١) » .

وهيا نعبر عن هذا القول بلغة علم النفس الاجتماعى : ان التاريخ لن تتباطأ مسيرته أبدا ، بل وعلى العكس من ذلك ، فســـوف يزداد ايقاعه سرعة بمــرور الوقت ، وســـوف تتهاوى وتتلاشى وسائل القهر الواحدة

---

(١) من مقال لروبرت أوبنها يمر تحت عنوان « العلم والثقافة » ، نشرته مجلة « العلم والانسانية » ، موسكوا ، ١٩٦٤ ، ص ٥٢ .

بعد الأخرى . وسوف يصبح البرهان العلمى هو الأداة الوحيدة لالزام الناس . ولايمكن لشىء أن يمنع التطور فى هذا الاتجاه . وكلما حث التاريخ خطاه ، كلما ازداد هذا البرهان صرامة ، كلما اصبح هو المعيار المطلق .

وكما سبق ان ذكرنا ، فالتاريخ العالمى لا يعدو ان يكون مواجهة هائلة بين انسان ما قبل التاريخ (« هم ») والانسان الحديث ، اذ بالأحرى بين انسان ماقبل التاريخ والعلم الانسانى الذى تتكامل معالمه بخطى متسارعة ، **ولقد ظل الانسان طيلة الاف من السنين يرفض أن يكون ما كان عليه من قبل .** وفى مجرى هذا التطور تتضاءل الحدود والفواصل بين الجماعات الانسانية المختلفة ، وتصبح اكثر عرضة للتغير والاختراق ، بينما يصبح الناس ، كل الناس ، هم « نحن » الأساسية على نحو اشد وضوحا وتحديدا ، فى مواجهة الماضى ، الذى يتم تجاوزه والتغلب على رواسبه يوما بعد يوم من خلال النشاط الانسانى الرشيد .

٢ ــ التاريخ و « التواريخ » :

والانسانية جماعة مازال علينا ان ندرسها :

انها مقولة جانبية او فكرة محدودة فى اطار الفكر الاجتماعى ككل . ولا يمكن لعناصر علم النفس الاجتماعى ان تكتمل اذا لم تشمل هذه الجماعة ، وهى كبرى الجماعات قاطبة ، والناس ينزعون الى اعتبار « نحن » التى تجمع بينهم وحدة تشمل كلا ضخما ، أى ينزعون الى الانتماء الى الانسانية التى تتسع لتشمل كل انسان حى على الأرض . والأممية تنبثق من ادراك الوشائج التى تربط بين الطبقة العاملة وحركة التحرر الوطنى والحركة الاشتراكية فى بلد من البلدان ، وبين الحركات العالمية المقابلة ، والتى تتضاعف قوتها نتيجة لايمانها بحتمية تبادل العون والدعم على النطاق العالمى .

ويمارس مفهوم البشرية كوحدة متكاملة ابلغ الاثر على الأفكار السياسية ، والاخلاقية ، والدينية ، وكذلك على الافكار العلمية والمنطقية ، وما ينبثق من كل ذلك من مشاعر .

ومنذ اقدم العصور كانت فكرة العالمية جزءا من الفكر السياسى ، ولكن كانة المحاولات التى استهدفت اقامة الامبراطوريات العالمية باءت بالفشل ، وظلت عديد من القبائل والشعوب بعيدة عن متناول الغزاة حتى من نوع الاسكندر الأكبر . ولكن بالرغم من ذلك كان الرواقيون ، ناهينا عن الشخصيات السياسية والمفكرين والطوباويين فى العصر الوسيط والحديث ، يتطلعون بالفعل الى وحدة أو توحيد البشرية .

ولما كانت الأخلاق جزءا من الفلسفة ، فهى تعنى ضمنا « الانسان عموما » ، وليس عددا من بعض جماعات « نحن » فى مواجهة جماعة « هم » معينة . والواقع انه يمكننا القول بأن السمة الفلسفية للاخلاق تدين بوجودها لفكرة البشرية كوحدة متكاملة ، وعندما تنفصل عن هذه الفكرة ، يختزل معناها الى مجرد عدد من العادات .

وفكرة البشرية تحتل مكانها بكل وضوح فى واقع العلم ، وفى كل فعل أو برهان يستند الى المنطق . والحقائق التى لا تدحض منذ ديكارت تكمن وراء أعمق حركات الفكر العلمى — فامكانية الاثبات العلمى ، وادراك الضرورة والحتمية المنطقية تتضمن دائما «انسانا» ، أى أى شخص باستثناء الطفل الصغير أو المعتل عقليا . **ولا يمكن تصور وجود اى علم بدون التسليم بالطبيعة المشتركة للعقل فى جميع الشعوب والأفراد ، بصرف النظر عن الفوارق فى السمات الثقافية والتاريخية** . أما اذا تغافلنا ذلك ، فالحقيقة تكف عن أن تكون حقيقة ، وتتحول الى مجرد اتفاق غير ملزم للجميع ، ومن ثم لا يكتسب صفة الشمولية . وهكذا ، **فمفهوم البشرية كوحدة متكاملة واحدة هو احد الممهدات اللازمة لقيام العلم ، بل والاكثر من ذلك ان مفهوم العلم نفسه ، ايضا ، يملى على العقل الانسانى ان يتعامل مع مفهوم البشرية .**

ومن الناحية الأخرى ، فبالرغم من اننا ننسب انفسنا لهذه الجماعة الكبيرة ، الى « نحن » هذه العملاقة ، انطلاقا من جوهـــر وجودنا نفسه ، الا أنه لا يمكننا تحديد ما اذا كانت « نحن » وجدت أو توجد في الواقع ، لأن التاريخ كان دائما ، ولا يزال ، هو الحصيلة الاجمالية لتواريخ البلدان ، والشعوب والحضارات . **وان كانت كلمة التاريخ تستخدم في صيغة المفرد ، او ان مضمونها يعني صيغة الجمـــع ، واما تواريخ العالم التي تقدم لنا من وقت لآخر فهي بالضرورة ليست تاريخا وانما عدة تواريخ ، تواريخ تشبه الخيوط التي تتداخل وتتشابك حينا ، او تجرى متوازية في حين آخر .**

ومن المسلم به أن هدف المؤرخ هو أن يستكشف تاريخ بلد من البلدان . ولا ريب أن المؤرخ قد يكتب تاريخ موضوع بذاته أو حتى قد تتركز كتابته حول فرد . ولكن الجميع يسلمون بأن موضوع البحث في هذه الحالات يتشكل ويتحدد وفقا لمقتضيات البيئة وتأثيراتها ، وعلى عكس ذلك ، فأي بلد على حدة لايشكل الا «جزئيا اوليا» في العملية التاريخية وكلمة « بلد » تعني الآن جماعة اقتصادية احيانا ، أو شعبا أو أمة حينا آخر ، أي جماعة عرقية ، ولكن غالبا ما تعني دولة أو أرضا معينة لها حدودها الواضحة على غرار ما تذهب اليه المدرسة الالمانية التي تتحدث عما يسمى الدولة التاريخية . وبالاضافة الى ذلك ، فالأراضي المعاصرة لأي بلد لم تتكامل حدودها ولم تتخذ شكلها النهائي الا على خلفية من الأحقاب التاريخية السحيقة في وقت لم يكن فيها للبلد نفسه وجود سواء بالمعنى الطبقي أو الإداري ، وكانت أرضه لا تزال تشغلها الولايات (والتي لا تطابق حدودها بالضرورة الحدود مثار النقاش) ، والقبـــائل التي كان مستقرة عليهـــا ، و البـــدو الرحل المهاجرين .

وجملة القول ، أن مشـــكلة تاريخ العالم تعود بنا مرة اخـــرى الى العلاقات بين « نحن » و « هم » ، والتي تشكل نسيج هذا التاريخ نفسه .

وكان لكل مرحلة من مراحل تطور البشرية وسيلتها السائدة للتبادل . ولكن عصر الرأسمالية وحده هو الذي شهد مولد الروابط العالمية الشاملة

مثل السوق العالمية ، والعلاقات الاقتصادية الدولية ، وشبكات النقل والمواصلات ، والأعلام التى تغطى المعمورة كلها ، ولكن الراسمالية أفضت ايضا الى نشأة التناقضات العالمية . فعمال العالم يواجهون البورجوازية العالمية . وأنتج عصر الرأسمالية ، منذ يوم مولده ، التناقضات بين عدد قليل من البلدان الراسمالية والعالم غير الراسمالى ، والذى تم تحويل أغلبه الى مستعمرات . كما ادت الراسمالية أولا الى نشأة النزاعات الدولية ، ليس فقط من أجل تقسيم العالم بل وأيضا من أجل اعادة تقسيمه بين البلدان الراسمالية . والراسمالية هى سبب الحروب العالمية ، ولقد تفجرت تناقضاتها الداخلية فى التناقض العالمى بين النظامين الاجتماعيين الاقتصاديين.ومن المناسب ان نتذكر هنا بأنه عندما قال لينين فى مقاله «حول شعار الولايات المتحدة الأوروبية » أن الاشتراكية يمكنها أن تحقق النصر أولا فى عدد قليل من الدول الراسمالية او حتى فى دولة راسمالية واحدة على حدة ، لم يكن يعنى ذلك عزلة تلك الدولة الواحدة ، وانما يعنى تناقضها مع النظام الرأسمالى العالمى . يقول لينين : « وبعد مصادرة ممتلكات الرأسماليين وتنظيم اقتصادها الاشتراكى الخاص ، فسوف تهب البروليتاريا المنتصرة ضد بقية العالم — العالم الراسمالى — لتجذب الى قضيتها الطبقات المقهورة فى البلدان الاخرى»(١). ويصدق هذا القول وينطبق تماما على عصرنا الراهن الذى لم يعد فيه بلد واحد هو الذى يواجه النظام العالمى للراسمالية الاحتكارية ، وانما يواجهها نظام اشتراكى كامل .

ولم تكن العلاقات الدولية فى عصور ما قبل الرأسمالية على ما أصبحت عليه من تصادم وتنازع على يد الرأسمالية . ولكن هذا لا يعنى أن فكرة التاريخ العالمى غير صالحة للتطبيق على عصور ما قبل الراسمالية ، وان اختلف معناها كثيرا . فالسمة المميزة للتاريخ القديم والوسيط هى العلاقات المتسلسلة ، أى الرباط المباشر بين أحد البلدان والبلدان المجاورة ، التى ترتبط ، بدورها ، ببلدان اخرى . وفى هذا الاطار يصعب علينا ان نرى الطبيعة العالمية للتاريخ ، ولكن هذه الطبيعة العالمية حقيقة موضوعية

---

(١) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٣٤٢ .

لا جدال فيها ، لأنه لم يحدث أن وقف أى بلد من البلدان ، حتى أصغرها حجما وأشدها عزلة ، خارج هذه العلاقات المتسلسلة .

وأخيرا ، فحتى فى العصور المبكرة لم تكن العلاقات التاريخية العالمية تعنى التغلغل المتبادل الموجب أو التفاعل بين البلدان المتجاورة ، سواء فى علاقات اقتصادية أو سكانيــة أو سياسية أو ثقافية ، وانما كانت تعنى علاقة سالبة ، أى النفور والعزلة .

ويمكننا القول بأن البشرية ظهرت فى بادىء الأمر كنسيج أملس لا تشوبه شائبة ، تحمل خيوطه ، أى الحدود ونقاط الاتصال ، شحنات سالبة فى أغلب الأحيان ، وان كانت لم تمنع فى الواقع نشأة بعض حالات التلاحم والاختلاط . ثم اخذ الاتصال الاقليمى فى الاتساع تدريجيا فى مرحلة لا حقة ، ولكنه لم يكن — فى التحليل الأخير — الا جزءا من نظام متسلسل شامل لم يدخل فى دائرة ادراك معاصريه ، وكانت العزلة هى العامل السائد، ولكنها اصبحت الآن عزلة سياسية ، ولذلك اتخذت شكل التهديد العسكرى للبلدان المجاورة أو اتخاذ الاجراءات الدفاعية لصد عدوانها ، وأما فيما أعقب ذلك من أحقاب ، فأخذت العلاقات الدولية تحمل شحنة موجبة ، واصبحت لها السيادة على الانفصالية والعزلة والركود ، لتحول التاريخ الى تاريخ عالمى شامل لا تخطئه العين ، ولتؤكد أيضـا ما يعرفه العالم المعاصر من تناقضات ونزاعات .

هــذه هى بعض السمات الجدلية فى تطور الظاهرة الاجتماعية — التاريخية الموضوعية والذاتية التى نسلم بها كقاعدة لعلم الاجتماع ، والتى وصفناها بالصيغة « نحن وهم » ، ولكن تارخ الانسان لم يتحول بعد الى تاريخ « نحن » **فى مواجهة لا أحد** ، والذى تختزل فيه الظاهرة « هم » لتصبح مجرد منافسة وتعبيرا عن العون المتبادل وليس عن العزلة والعداء . وهذا هو رأينا فى المستقبل الشيوعى للبشرية ، رغم كل ما تضعه القوى المعادية للشيوعية من عراقيل فى طريق ما نأمله من قيام « نحن » العالمية الشاملة .

لقد كان التاريخ دائما أكثر من مجرد الحصيلة الاجمالية لعدة تواريخ ، وما زالت الكتابة التاريخية فى حاجة اليوم للتصدى لدراسة التاريخ ، وليس التواريخ وحدها،وهى دراسة يحتل علم النفس الاجتماعى فيها موقعا هاما.

٣ — وماذا عن الغــد ؟

فحصنا فيما سبق المشكلتين اللتين تتعلق بهما الآمال فى مجال الكتابة العلمية ، الحقة للتاريخ ، ويرتبط تقدم علم التاريخ أوثق الارتباط باتساع معرفتنا بالقوانين التى تحكم الأفعال التاريخية للجماهير ، بما فى ذلك « تمرد الجماهير » — محور التاريخ — والتى تثير حقد علماء الاجتماع البورجوازيين . وسوف يصبح التاريخ أكثر علمانية كلما تمكن من تخطى الحواجز والسدود التى تقسم البشرية الى أجزاء متعارضة ، وسوف تنشأ العديد من المصاعب التى لم نعرفها بعد . وسوف تكتشف قوانين جديدة ، ولكن علم التاريخ حرى بأن يصبح فى خاتمة المطاف علما حقيقيا يتخذ من الجماهير ومن البشرية كلها موضوعا له .

وفى كلا هذين الاتجــاهين ، تناول التاريخ فــكرة « الأعــداء » و « العدو » . ولكن جوهر هذه الفكرة كان دائم التغير من عصر الى عصر ، وسوف يواصل هذا التغير . ففى الماضى السحيق ، كان « العدو » هو أسلاف الانسان ، أو الحيوانات التى كان الانسان كنوع يتجنبها ، ثم أصبح « العدو » فيما بعد هو الغريب ، الذى لا ينتمى الينا ، الأجنبى ، وكان « الاعداء » فى المجتمع الطبقى هم القاهرين والمستعبدين (أو « الغوغاء » ، من الطرف الآخر) ، الى جانب الأجانب ، والغزاة ، والشعوب التى تتكلم لغــات أخرى ، واخيرا ، المارقين والهراطقة . ومع ذلك ففى مقدورنا ، ومن الآن ، أن نرنو بأنظارنا الى ذلك العصر الذى سيخلى فيه العداء مكانة لحرب الحجج والبراهين ، وهى حرب تعنى العون المتبــادل وليس العداء . وهــكذا يمكننا وصف الأعداء ، اى المجموعات « هم » ، بانها مقولة لا غنى عنهــا من مقولات علم الاجتمــاع ، لاتقل اهميــة عن نقيضها : « نحــن » ، الخاصــة بنا .

وثمة عملية مضادة للعداء ودوره التاريخى ، وهى توحيد النــاس من أجل التصدى للمهام التاريخية الجوهرية ، والمهام تزداد جسامة وتعددا بمرور الوقت ، بحيث تعجز الجماعات الصغيرة — وحتى تلك التى كانت تبدو على الحجم الكافى حتى الأمس القريب — عن مواجهتها . وســوف يستمر التضامن فى التزايد داخل الجماعات « نحن » التاريخية من هــذا النوع ، كماستزداد اعداد المنضمين اليها يوما بعد يوم ، ولذلك ، فلعل أكثر المهام التى يتصدى لها علم النفس الاجتماعى جدارة بتحقيق أروع النتائج هى أن يتعمق اكثر واكثر فى استكشاف ودراسة الآليات ، والأنمــاط ،

والقوانين الكامنة وراء تكوين الجماعات الانسانية بالغة الضخامة ، وعليه ان يتصدى للاجابة على السؤال : **كيف نبنى ارادة عملاقة موحدة من جماع العديد من الارادات المتفرقة ؟ كيف نحصل على عقل مركب خلاق ضخم واحد ، عقل متحرر من التناقضات والتشققات ، من عديد من العقول ؟**

ولنرجع الى العلم اللينينى للثورة ، ان غرضه الأسمى هو ان يوحد القطرات لتشكل نهيرات ، وان يوحد النهيرات لتشكل تيارا عارما ، وان يوحد مئات الآلاف ليجعل منهم عشرات من الملايين يتحركون الى الامام في نفس الاتجاه ، اى مشبعين بطاقة تؤلف بينها وحدة الهدف . يقول لينين : « اننا نزيح الأساليب القديمة القائمة على القهر التى كانت تمارس في المجتمع البورجوازى ضد ارادة الأغلبية ، لتحل محلها الانضباط الواعى طبقيا للعمال والفلاحين ، الذين يجمعون بين كراهية المجتمع القديم ، والعزم ، والقدرة ، والاستعداد لتوحيد وتنظيم قواهم من اجل هذا النضال ، حتى يتمكنوا من تحقيق التلاحم بين ارادة الملايين ومئات الملايين من ابناء الشعب — المفككين والمبعثرين على امتداد بلاد فائقة الاتساع — فى ارادة واحدة ، بدونها تصبح الهزيمة هى المصير المحتوم » (١) ، وهذا هو معنى المركب « نحن وهم » فى الوقت الراهن ، وهو معنى سيزداد عمقا ومدلولا كلما تقدم بنا الزمان ، يقول لينين : « ان عقول عشرات الملايين ممن يصنعون الأشياء ، تبدع شيئا اكثر نبلا بلا حدود مما يستطيع اعظم عبقرى ان يتنبأ به » (١) .

وكان حجم الجماهير وتضامنها ، فى راى لينين ، هما المعيار الحاسم عند التصدى للمهام ذات الأهمية الغالية ، وتتغلغل فكرته هذه على وجه الخصوص فى برنامجه لتوحيد الشعوب والجمهوريات فى الاتحاد السوفيتى ، وتأمين الاشتراك فى المصالح والعمل المشترك من جانب الطبقة العاملة والفلاحين . ولكن ينبغى فى بعض الأحيان ان تكون الأولوية للمشاركة فى الأفكار بين الطبقات والشعوب وليس لسرعة التقدم . وكان لينين يرى فى عام ١٩٢٢ ان المهمة المباشرة هى « ان ترتبط بجماهير الفلاحين ، بالعامل الزراعى العادى ، ثم نبدأ فى التحرك الى الأمام ، بخطى اشد بطئا مما كنا

(١) ف. ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣١ ، ص ٢٨٨ .
(١) ف. ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٢٦ ، ص ٤٧٤ .

نتوقع وبخلاف كل قياس ، ولكن على النحو الذى يضمن أن تتحرك جماهير الفلاحين كلها بالفعل معنا الى الأمام » (٢) .

ولكن لينين كان يحذر دائما من أن هذه الوحدة الحقة للجماعة « نحن » الكبرى صانعة التاريخ ، يمكن أن تنهار داخليا اذا شابها انعدام الاخلاص والصدق فى مجالات السياسة والدعاية والاثارة .

والعالم الراسمالى مشبع بالشكوك والزيف ، والدعاية الراسمالية ، والممارسة الاجتماعية الاقتصادية أيضا فى بعض جوانبها ، تبذل قصارى جهودها من اجل خلق احساس بالمصلحة والواجبا تالمشتركة بين المالكين والعمال على السواء . ولكن الحقائق تسحق هذه المحاولات وتكشف عما تنطوى عليه من كذب ونفاق ، لاننا نرى فى جوهر الأمر ما هو أكثر من مجرد التناقض الاقتصادى . ولعل أروع دليل على ذلك هو اضراب مصانع جنرال موتورز فى الولايات المتحدة الأمريكية فى شهر سبتمبر ١٩٦٤ ، والذى كان لمطالب العمال فيه طبيعة اجتماعية نفسية أكثر منها اقتصادية ، حيث أصر العمال على أن يكف أصحاب المصانع عن التجسس ، والتصنت ، وانتهاك كرامة الانسان ، ويالها من جماعة « نحن » ودية هذه التى يدعون اليها لتضم العمال والمالكين جنبا الى جنب ! ان التجسس والمراقبة والتصنت أشبه ما تكون بالسرطان الذى يدمر الجماعة « نحن » ويفضى الى موتها ، ويقضى على اى احساس بالانتماء للجماعة .

وكان لينين يحدد دائما أن الصدق هو القاعدة الصلدة التى تنبنى عليها قوة الحزب والحكومة السوفيتية . « ان دعايتنا واثارتنا يتعين أن تتسما بالصراحة وعدم المواربة » (١) وكان يصر على أن تعرف الجماهير كل الحقائق ، والا تحجب عنها أى انباء عن المصاعب أو أوجه القصور والنقص ، وكان يرى أن هذا هو الطريق الذى ينتهى بالجماهير الى أن تربط بين مصيرها ، وعلى نحو لا انفصام له ، بمصير الحزب والحكومة السوفيتية ، فى وحدة راسخة حقيقية — يقول لينين : « ان عدم خوف الحكومة السوفيتية من أن تقر علينا بذلك ، يجذب الى جانبها المزيد من ملايين العمال » (٢) .

---

(٢) المرجع السابق ، المجلد ٣١ ، ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(١) ف. أ. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣٢ ، ص ٣١٥ .

(٢) المرجع السابق ، المجلد ، ٢٨ ، ص ١٦١ .

واما فى غياب الوحدة ، فينقسم الشعب والحكومة فى اعين الجماهير الى « نحن » و « هم » . واما عندما تتوحد الجماهير والحكومة فى « نحن » واحدة ، فيصبح فى مقدرة الحكومة ان توجه طاقة وعواطف الجماهير فى الاتجاه الأكثر جدوى بالنسبة للحركة العامة فى اللحظة المعينة . واليكم ما يقوله لينين فى عام ١٩١٩ ، عندما كانت الحرب الأهلية والدمار الاقتصادى فى الذروة : « ان انتصاراتنا ترجع الى النداء المباشر الذى وجهه حزبنا والحكومة السوفيتية الى الجماهير العاملة ، مع مكاشفتها بكل مصاعب جديدة وكل مشكلة فور ظهورها ، والى قدرتنا على ان نشرح للجماهير الأسباب التى حتمت ان تكرس طاقاتنا فى بادىء الأمر لجانب واحد من جوانب العمل السوفيتى ثم ننتقل بعد ذلك الى جانب آخر ، والى قدرتنا على ان نثير الحماس والبطولة بين الجماهير وان نركز كل درهم من الطاقة الثورية على اكثر واجبات الساعة اهمية » (١) .

واذا كانت هذه هى الحال فى بداية الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، الا ان هناك بعض الحقائق التى ينبغى أن نسلم بها حتى نتجنب الوقوع فى أى خطأ : فالشيوعية ليست سكونا وانما هى تسارع لا يخبو . وهى ليست محطة للوصول والتوقف ، وانما هى زاخرة بالحركة الصاعدة ، وتعنى التقدم والنمو بمعدلات دائمة التزايد ، ولا تعوق انطلاقتها اى حواجز اجتماعية ، وتاريخ الانسان كله ، وفقا لمعدلات التطور ، يتبع منحنى دالا يقابل متتالية هندسية . وهاهى القرون الأخيرة تكشف عن تسارع حاد فى النمو ، وهذا التسارع هو الذى وصل بالانسانية الى مشارف الشيوعية عند ذلك الجزء من المنحنى الذى ينطلق فيه التسارع بلا معوقات ، وبلا حدود ، وفى حركة صاعدة دائمة . واذا نظرنا الى آفاق علم النفس الاجتماعى من هذه الزاوية ، يحق لنا أن نتنبأ ان حركة التاريخ سوف تكون لهـا مطالبها الجوهرية فى المجال النفسى : أولا فيما يتعلق بتضامن من البشرية ككل فى حل المهام ، وثانيا فيما يتعلق بالقدرة على تحقيق الانتقال من مجموعة من الظروف الى مجموعة اخرى .

ولسنا نجافى الحقيقة اذا ما افترضنا أن ظواهر السيكولوجية الاجتماعية المغلفة بأفكار التركيب الذهنى الثابت والعادات الراسخة ، سوف تنحسر بالتدريج . ويجب أن ننظر الى التركيب النفسى للانسان فى المجتمع الشيوعى كظاهرة أكثر حركة مما هى عليه اليوم . وسوف ينبع ذلك من القوى المحركة الموضوعية للحياة .

---

(١) ف. ا. لينين ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣٠ ، ص ١٣٩ .

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٢٠٩

مطبعة الفجر الجديد

٣٨ شارع الكبارى ــ منشية ناصر

هذا الكتاب

« عيشوا فى أعماق الأشياء ، تعرفوا على مزاج الناس ، تعرفوا على كل شيء ، تعلموا كيف تفهمون الجماهير، توصلوا الى الأسلوب الصحيح للاقتراب منها ، وفهمها » .. (لينين) .

علم النفس الاجتماعى ، شأنه شأن العمل النفس عموما ، مجال واسع يلامس مجالى العلوم التاريخية والبيولوجية : ويثبت الجدل الماركسى « أن علم النفس إنما هو علم بيولوجى واجتماعى فى آن واحد ، وأنه يعنى بدراسة الانسان كوحدة مندمجة فى البيئة المحيطة بها ، والتفاعل المستمر بين الانسان وبيئته والصراع الاجتماعى الذى يحدد شخصية الانسان » ؛ وهذا التعريف العام يصدق أيضا على علم النفس الاجتماعى ، فهوفرع هامشى واحد يمتزج بعلمين أساسين من العلوم الحديثة .

وعلم النفس الاجتماعى يتناول النشاط النفسى للناس داخل الجماعة ، داخل البيئة الاجتماعية ، على خلاف « علم النفس الفردى » الذى لايتناول هذا النشاط الا فى عزلة نسبية أو فى علاقة الفرد بفرد آخر .

وعلم النفس الاجتماعى علم تاريخى بالضرورة ، والجانب التاريخى هو حجر الزاوية فيه بنفس الدرجة التى يشكل بها الجانب الفسيولوجى المادى قاعدة النشاط النفسى ، لأنه يدرس الانسان فى حركته وتغيره ، ولذلك فعلم النفس الاجتماعى وعلم التاريخ يرتبطان ارتباطا وثيقا لاينفصم .

ونحن لاندعى عزيزى القارىء أننا ـ فى هذه الاشارة قد القينا ضوءا كاملا على مضمون هذا الكتاب الجاد وانما اكتفينا بالتنويه عن جوهره ونرحب بك على صفحاته لتتعرف على وجهة نظر مؤلفه فى مجمل القضايا المثارة .

دار الثقافة الجديدة

السعر: محلى : ٢٥٠ قرش
تصدير: ٤٠٠ قرش

